الطيـور

رواية

◆ **Author** : Tarjei Vesaas ◆ المؤلف: تارجى فيساس
◆ **Title**: The Birds ◆ العنوان : الطيور
◆ **Translation: Mostafa Mahmod** ◆ ترجمة : مصطفى محمود
◆ **First Edition**: 2012 ◆ الطبعة : الأولى 2012
◆ **Cover Design by**: Amr ElKafrawy ◆ تصميم الغلاف: عمرو الكفراوى

رقم الإيداع:
٢٠١٢ / ١١٦٣٤
الترقيم الدولي : ISBN
977-6148-77-8

FUGLANE Copyright © Gyldendal Norsk Forlag AS 1957
[All rights reserved.]

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه. أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No Part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

75 QASR – ALAINI ST., in Front of Dar Al-Hekma, - CAIRO – EGYPT
Tel: +202-2795-3811 Fax: 00202-2795-4633
E-mail:afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com
٧٥ ش القصر العيني – أمام دار الحكمة – القاهرة – جمهورية مصر العربية
ت : ٣٨١١ ٢٧٩٥ فاكس: ٤٦٣٣ ٢٧٩٥

تارجى فيساس

الطيـــور

رواية

ترجمة

مصطفى محمود

آفاق للنشر والتوزيع

صدرت هذه الترجمة بدعم مالي من مؤسسة نورلا النرويجية

This Translation has been published with financial support of «NORLA».

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

فيساس، تارجي.

الطيور: رواية

تارجي فيساس – ط1 القاهرة – دار آفاق للنشر والتوزيع – 2012

285 ص ، 20 سم.

رقم الإيداع 11634 / 2012

الترقيم الدولي 8 – 77 – 6148 – 977

1 – القصص الإنجليزية

أ – محمود، مصطفى (مترجم)

ب – العنوان

الجزء الأول

١

كان الوقت مساءً. نظر «ماتيس» ليرى ما إذا كانت السماء صافية وخالية من الغيوم. قال حينئذ لشقيقته «هيج»، ليبهجها: «أنتِ تحبين البرق».

بعثت الكلمة برعشة في عموده الفقري، لكنه شعر بالأمان في الوقت ذاته عندما رأى السماء مثالية.

أضاف: «أقصد، مع إبر الحياكة هذه التي معك».

أومأت «هيج» غير مبالية ومضت مع السويتر الكبير الذي تصنعه. تلمع إبرة الحياكة معها. تحيك زهرة هائلة ذات ثماني بتلات، سرعان ما سيرتديها شخص ما.

قالت ببساطة: «نعم، أعرف».

«لكنني ممتن لك بالفعل لكل ما فعلته، هيج».

كان ينقر ببطء على ركبته بأصبعه الأوسط ـ بالطريقة التي كان دائمًا يفعل بها حينما يفكر. أعلى وأسفل، أعلى وأسفل. سئمت «هيج» منذ أن كبرت من زمن طويل أن تطلب منه التخلي عن هذه العادة التي تثير التوتر.

مضى ماتيس: «لكنك لا تحبين فقط البرق مع الزهرات ذات البتلات الثمانية، إنه الشيء نفسه مع كل ما تفعلينه».

لوحت له بجانب يدها: «نعم، نعم، أعرف». كان «ماتيس» راضيًا ولم يقل المزيد.

استخدام كلمة البرق هو ما وجده مثيرًا للإغراء.

بدا أن خطوطًا غريبة تتشكل داخل رأسه حينما استخدمها وشعر بنفسه ينجذب إليها. كان يرتعب من البرق في السماء ـ ولم يستعمل الكلمة قط في طقس الصيف الحار حينما تكون السحب كثيفة. لكنه الليلة آمن. مرت بهم عاصفتين بالفعل هذا الربيع، مع هزيم رعد حقيقي مزمجر. وكالعادة عندما تكون العاصفة في ذروتها، يختبئ «ماتيس» بنفسه في الحمام؛ لأن شخصًا ما قد قال له ذات مرة: إن البرق لم يضرب قط هذه الأماكن. لم يكن «ماتيس» متأكدًا إذا كان ذلك ينطبق على العالم كله، لكنه أينما كان على الأقل ثبت صدقها بما يسعده حتى الآن.

«نعم، البرق»، هكذا غمم نصف غمغمة إلى نفسه والنصف الآخر إلى هيج التي تعبت من هذا التبجح المفاجئ الليلة. لكن ماتيس لم يتوقف.

قال: «أقصد عند التفكير أيضًا».

عند هذا نظرت سريعًا إلى أعلى، كما لو أنها خافت؛ شيء خطير قد ورد ذكره.

قالت: «هذا سيحدث الآن»، وأغلقت الموضوع فجأة.

سأل: «ما الخطأ؟»

«لا شيء. فقط أجلس هادئًا».

نجحت هيج في قمع ما كان يحاول الخروج منه. الحقيقة هي أن مأساة أخيها البريء تطاردها منذ زمن طويل، إلى درجة أنه حينما استخدم ماتيس

كلمة تفكير، قفزت كما لو أنها لُدِغت.

عرف «ماتيس» أن شيئًا ما خطأ، لكنه ربطه بالضمير السيئ الذي كان دائمًا يلازمه بسبب أنه لم يكن يعمل مثل الآخرين. هز كرسيه محدثا صوتًا: «ينبغي أن تجدي لي عملًا غدًا. لا يمكن أن تسير الأمور هكذا».

قالت بدون تفكير: «نعم».

«لا يمكن أن أسمح بهذا أن يحدث. إنني لم أكسب أي شيء من...».

«لا، مضى وقت طويل منذ أن أتيت للبيت بأي شيء»، هكذا بادرت مندفعة بقليل من الاهتمام وبقليل من الحدة. وندمت على هذا في اللحظة التي قالته فيها؛ فقد كان ماتيس شديد الحساسية للنقد بشأن هذه النقطة، ما لم يكن هو من يوجه النقد لنفسه.

قال لها، وتعبير غريب يرتسم على وجهه: «لا يجب أن تقولي لي أشياء مثل هذه».

احمرَّت خجلًا وأحنت رأسها. لكن «ماتيس» استمر: «لماذا لا تتحدثين إليَّ مثلما تتحدثين مع أي شخص آخر؟»

«نعم، وهو كذلك».

استمرت هيج تحني رأسها. ما الذي يمكن أن تفعله مع أشياء مثل تلك التي كانت؟ أحيانًا لا تستطيع أن تتحكم في نفسها، وحينئذ كلماتها تؤلم.

٢

يجلس الأخ والأخت على الدرجات الأمامية خارج الكوخ المنزلي البسيط حيث يعيشان بنفسيهما. كانت أمسية لطيفة دافئة من أمسيات يونيه، حيث تبعث الأجزاء الخشبية القديمة برائحة تدعو إلى الخمول بعد يوم من شمس مشرقة.

كانا جالسين هناك لوقت طويل بدون أن ينطقا كلمة واحدة ـ حتى شرعا في الحديث عن البرق وعن كسب النقود. فقط جلسا هناك جنبًا إلى جنب. جلس ماتيس ينظر على قمم الأشجار بنظرة ثابتة. فجلسته هذه مشهد مألوف لدى أخته أيضًا. عرفت أنه لا يملك الفكاك منها، وإلا طلبت منه دون شك أن يتوقف عنها.

عاش الاثنان هنا مع بعضهما البعض ـ لم تكن هناك منازل أخرى ـ لكن، هناك طريق وتجمع كبير من المزارع مباشرة فيما وراء خط أشجار «السبرو» الضخمة دائمة الخضرة. وفي الاتجاه الآخر، تأتي ومضات الضوء من البحيرة الواسعة، حيث الشواطئ المتباعدة فيما وراءها. وتصل البحيرة إلى المنحدر الواقع خلف الكوخ، وهنا تحتفظ هيج وماتيس بقاربهما. ويحيط سياج بالمساحة الصغيرة المستوية المملوكة لهما حول المنزل، لكن فيما وراء السور لم تكن للأخ والأخت كلمة.

فكر ماتيس: إنها لا تعرف ما الذي أنظر إليه. شعر برغبة مغرية أن يخبرها.

ماتيس وهيج ـ أصبحا مزدوجين! لا تعرف هيج ذلك.

هو لم يخبرها.

مباشرة وراء السياج، وقفت شجرتان ذابلتان من الحور الرجراج، مجردتين، بقمتيهما المدببتين فيما بين الأشجار الخضراء المتأنقة. وقفتا قريبتين من بعضهما البعض، وكانتا تُسميان فيما بين الناس في القرية ماتيس وهيج، وإن كان بصورة غير علنية. وفقط عن طريق الصدفة، سمع ماتيس الاسمين. كانا – تقريبًا – مضغمين في كلمة واحدة: ماتيس وهيج. لابد وأنهما كانا مستخدمين لفترة طويلة قبل أن يسمعهما ماتيس.

شجرتان ذابلتان من الحور الرجراج، جنبًا إلى جنب فيما بين صفوف الأشجار المنسقة النامية الخضراء.

شعر بأنه مشحون بالرغبة في الاحتجاج على الاسمين، ولم يستطع أن يتوقف عن النظر إلى الشجرتين. لكن هيج لا يجب أن تعرف السر أبدًا، هكذا يقرر في كل مرة يجلسان هناك هذه الجلسة. فهي سوف تثور وتستشيط غضبًا ـ وعلى أية حال فقد اكتسبت الشجرتان اسميهما.

وفي الوقت نفسه، فإن الشجرتين اللتين ظلتا هناك منحتا ماتيس شعورًا تامًّا بالحماية. وفي الحقيقة هما لم تكونا شيئًا سوى إنهما مزعجتان، وتسببان الضرر حيث تقفان، لكن المالك لم يحضر ويقطعهما ويسقطهما أمام عيونكما ويلقمهما للنيران بالفعل. ذلك سيكون شيئًا مروعًا هنا، أمام الناس الذين كانوا يستشعرون بتأنيب الضمير بسبب الاسمين ـ كما لو أن

الأمر يشبه عملية قتل تقريبًا. وهذا هو السبب في أنه لم يفعل هذا. فكر ماتيس، لابد وأنني سأحب أن أقابل هذا الرجل يومًا ما. لكن حينئذ هو لن يأتي إلى هنا أبدًا.

مضى «ماتيس» يفكر:

إنني أتعجب ما الذي يشبهه من الداخل، الرجل الذي وجد مثل هذه السعادة في اختراع الاسمين على الشجرتين ذات القمتين المدببتين؟ من المستحيل القول. كل ما تستطيع فعله هو أن تجلس وتفكر في الأمر خلال أمسيات الصيف هنا على درجات السُّلَّم. لكن كان أحد الرجال هو من فعل ذلك. رفض «ماتيس» أن يفكر في أن من فعل هذا امرأة؛ فمشاعره تجاه النساء كانت ودودة. وكان غاضبًا أيضًا من مقارنة هيج بقمة شجرة ذابلة، لم تكن تشبهها في شيء! بالتأكيد يمكن لكل فرد أن يرى هذا. هيج التي كانت بارعة جدًّا وحكيمة.

ما هذا الذي يؤلم كثيرًا؟

جاءت الإجابة، أنت تعرف جيدًا، شيء لا معنى له بكيفية ما، لكنه يصل مباشرة إلى الهدف.

ينبغي أن أتحول بعيدًا ولا أنظر ـ وبدلًا من ذلك أجلس أحدق، أول شيء في الصباح وآخر شيء في المساء. لا شيء يمكن أن يكون أكثر جنونًا من ذلك.

«ماتيس؟»

كان غارقًا في أفكاره.

سألت: «ما هذا الذي تراه؟»

هو يعرف جيدًا هذه الأسئلة التي تسألها. هو لا يجب أن يجلس هكذا، لا ينبغي أن يفعل هذا ولا ينبغي أن يفعل ذاك، ينبغي أن يكون مثل الأناس الآخرين، ليس «سيمون العبيط» في أغاني الأطفال كما أطلقوا عليه، مخزون الضحك أينما ذهب وحاول أن يعمل أو يفعل أي شيء آخر. سريعًا، حوَّل عينيه إلى أخته. عينان غريبتان. بائستان دائمًا، مذعورتان مثل الطيور.

قال: «لا أرى أي أحد».

«أوه».

قال: «أنت غريبة. إذا رأيت شيئًا ما في كل مرة أنظر فيها حولي ـ ما الذي سيصير عليه الحال هنا؟ سوف يزدحم المكان كله».

فقط أومأت هيج برأسها. إنها أرجعته بكيفية ما، وتستطيع أن تمضي في العمل. هي لم تكن تجلس على الدرج عاطلة مثل «ماتيس»، فيداها دائمًا مشغولتان بالحياكة كما اعتادت أن تفعل.

كان ماتيس ينظر إلى عملها باحترام، فهذا ما جعل بيتهما يسير، يسير على قدر المستطاع. هو نفسه، لا يكسب شيئًا. لا أحد يريده. أطلقوا عليه «سيمون العبيط»، ويضحكون حينما يُذكر اسمه مقرونًا بالعمل. فالاثنان لا يتماشيان مع بعضهما البعض. ربما كانت هناك عشرات من الحكايات تُحكى فيما بين جيرانهما المشغولين في القرية حول ما حدث حينما حاول «سيمون العبيط» أن يعمل ـ كل شيء دائمًا يمضي إلى المسار الخاطئ.

فجأة فكر وهو جالس هناك: «ربما تنقر الصخر» ـ وشرع في البدء.

ماذا؟

لكنها ذهبت.

الصورة والكلمات تدفقت خلاله. وذهبت مرة أخرى بسرعة تامة ـ وبدا بدلًا من ذلك كأنه يحدق في الحائط الفارغ. وألقى نظرة خاطفة على أخته، لكنها لم تلاحظ أي شيء. جلست هناك صغيرة وأنيقة، لكنها لم تعد بعد فتاة، كانت في الأربعين من عمرها.

هل يُفترض أن يذكر لها أشياء مثل ذلك؟ أنقر على... إنها لن تفهم.

كانت هيج تجلس بالقرب منه، لذا فقد رآها رؤية جيدة ومباشرة، شعر بني قاتم. لاحظ فجأة شعرًا رماديًّا هنا وهناك فيما بين الشعر البني. خيوط فضية طويلة.

هل لدي اليوم عيون الصقر؟ هكذا فكر في ومضة من الدهشة السعيدة، لم ألاحظ هذا من قبل. وهتف مندفعًا: «لكن هيج!»

ونظرت سريعًا، وتأكدت من نغمة صوته.

استعدت أن تلحق به: «ما هذا؟»

«أنتِ بدأت تشيبين!»

مالت برأسها.

«هل أنا كذلك بالفعل؟»

قال: «أشيب بالفعل. لم ألاحظ هذا قبل اليوم. هل كنت تعرفين ذلك؟»

لم تكن هناك إجابة.

قال: «إنه مبكر على نحو مضحك. فأنت بعد كل شيء فقط في

الأربعين وصار شعرك رماديًّا جدًّا».

فجأة شعر بشخص ما ينظر إليه من مكان ما. ليست «هيج». من مكان ما. نظرة حادة. ربما كانت مصوبة من «هيج» بعد كل شيء. وشعر بالرعب، وتأكد أنه قد ارتكب خطأ ما، ومع ذلك بدون أن ينتبه له بالفعل؛ لقد كان بعد كل شيء مجرد ملاحظ.

«هيج».

على الأقل هي نظرت.

«ما هو الأمر الآن، إذًا؟»

لا، ما أراد أن يقوله قد تلاشى. ولا نظرات أيضًا.

قال: «لا شيء بالفعل. فقط استمرِّي مع حياكتك».

ابتسمت وقالت: «وهو كذلك إذًا ماتيس».

«نعم، ولا تبالي، أليس كذلك؟» وسأل برقة: لن تبالي «بحديثي عن شعرك الرمادي؟»

فقط أزاحت شعرها كما لو كان نوعًا من العناد شبه المرح: «لا، حقيقة. أنا أعرف به بالفعل، أنت ترى».

كانت إبرتا الحياكة اللامعتان متصلتي الحركة طوال الوقت. بدا أنهما تعملان بصورة آلية طوال اليوم.

«أنت متقدة الذهن، أنت كذلك بالفعل»، هكذا قال ليعوض ما كان يجب ألا يقوله.

منحه هذا فرصة أخرى لكي يستخدم واحدة من تلك الكلمات المعلقة أمامه، اللامعة والجذابة. وعلى المدى البعيد، كان هناك المزيد منها حادة بخطورة. كلمات لم تكن له، لكنه استخدمها في الخداع، وهي التي كان لها نكهة مثيرة ومنحته شعورًا بارتعاشة في الرأس. كلها كانت خطيرة إلى حد قليل، كلها جميعًا.

«هل تسمعين يا هيج؟»

تنهدت: «نعم».

لا شيء أكثر من هذا، أوه حسنًا، كان هذا ما كانت عليه. ربما هو أشاد بها كثيرًا جدًّا؟

لكن حقيقة، هذا مبكر جدًّا لأن يصير رماديًّا، هكذا غمغم بهدوء، ولذلك لم تسمعه. وأتساءل وماذا عني؟ ينبغي أن ألقي نظرة قبل أن أنسى.

«هل أنت ذاهب إلى الفراش ماتيس؟»

«لا، أنا فقط...» ذاهب لألقي نظرة على المرآة، هكذا كاد أن يقول بدون تفكير، لكنه منع نفسه ومضى إلى الداخل.

٣

فقط عندما دخل ماتيس المنزل، لاحظ كم هي أمسية جميلة. كانت البحيرة الضخمة هادئة مثل مسطح مائي ساكن. خلفها، التلال في الغرب يغطيها الضباب ـ في العادة هي كذلك. تسري هناك رائحة الصيف المبكر.

وعلى الطريق المختفي خلف الأشجار، بدا أن السيارات تهمهم فقط بهدف اللهو. السماء صافية، لن يكون هناك رعد خلال المساء. وفكر، مباشرة خلال البرق، وارتجف. فكر، مباشرة خلال خط مستقيم.

فقط، إذا استطاع المرء.

استمر واقفًا في تفكير عميق إلى جوار الدكة الفسيحة والتي تصبح فراشه عند المساء.

منذ عمر مبكر، ماتيس ينام على الدكة في غرفة الجلوس ـ لذلك هو يعرفها جيدًا بالفعل. قرر أن يستمر في فعل هذا لباقي حياته. كانت هناك خدوش في الدكة منذ الوقت الذي كان فيه ماتيس صبيًّا، وأُعطي سكينًا. كانت هناك أيضًا علامات متلاشية على خشب الدكة غير المطلي من وقت إلى آخر حينما أعطي قلم الرصاص. فهذه الخطوط والأشكال الغريبة تكمن تحت الغطاء، ينظر إليها كل ليلة قبل أن يذهب إلى النوم، فهو أحبها لأنها لم تتغير أبدًا. كانت هي ما كان من المفترض أن يكون. تستطيع أن تعتمد عليها.

دخل إلى غرفتها. هناك رائحة زكية، لكن هذا شيء ضئيل لا يذكر إلى جانب المرآة التي يحتاجها.

«همم!!» تعجب حينما لمح نفسه في الزجاج.

في الحقيقة، مضى وقت طويل منذ أن نظر إلى نفسه في المرآة بهذه الطريقة. من حين إلى آخر، كان يأتي إلى هنا ليحضر المرآة حينما يعتزم الحلاقة. لكن حينئذ، كان يركز على الحلاقة، وحتى عند ذلك لم يكن يزيل الشعر جيدًا.

الآن هو ينظر على ماتيس، نوعًا ما.

أوه يا إلهي!! هكذا قال صوت من داخله. قليل من البكاء الصامت لم يستطع أن يفسره.

تمتم: «لا تنظر كثيرًا».

أضاف: «ليس سمينًا بدرجة كبيرة».

«ليس مكتنزًا».

قال: «حلاقة سيئة».

بدت كئيبة.

«لكن، هناك شيء ما بالرغم من ذلك»، هكذا قال سريعًا واستمر يحدق.

لم تكن المرآة جيدة أيضًا، فقد شوهت الصورة ـ لكنه اعتاد هذا هو وهيج على مر السنين.

لم يدخل ماتيس هناك منذ وقت طويل قبل أن تهيم أفكاره، يقف حيث كان في الغرفة الأنثوية ذات الرائحة الزكية.

فكر، إنني أقف أنظر في المرآة مثل فتاة، وشعر بإحساس بالتحسن يزحف إلى داخله.

أنا متأكد كثيرًا، أن فتاة وقفت تنظر إلى نفسها في الزجاج العتيق لهذه المرآة قبل أن ترتدي ملابسها.

استحضر الكثير من الصور الجميلة المغرية.

دعني أتذكرها.

لكنه أوقف نفسه.

لا، لا ينبغي أن تفكر في البنات في منتصف الأسبوع. هذا غير مسموح به. لا أحد يفعل ذلك.

شعر بالتردد: أنا خائف أن أفعل، الآن ومن ثَمَّ، ها هو يعترف.

لكن لا أحد يعرف.

نظر إلى نفسه في الوجه. خفض بصره. فقد امتلأ وجهه في الحال بالجموح. بالتأكيد أستطيع، طالما أنني لا أخبر أحدًا.

إنها الطريقة نفسها التي اتبعها.

خفض بصره مرة أخرى. اتسعت عيناه وجحظت، مفعمة بالترقب.

ما هذا؟

قال صوت بداخله، تغلفه الدهشة، حسنًا أنا لم أخاطب أحدًا على وجه الخصوص. أحيانًا تضطر إلى قول أشياء كهذه، بدون سبب تقريبًا، بسبب أقل بكثير مما عرفه.

قال بصوت عالٍ: «لكن هذا ليس كثيرًا حتى التفت إليه». عليه أن ينحي جانبًا كل الأشياء التي تملكته، لكنها لا تنتمي إلى اللحظة الراهنة.

كان الوجه المقابل له نحيفًا وممتلئًا بالأفكار. كان شاحبًا، لكن عينين اجتذبتاه ولم تدعاه يمضي.

شعر كأنه يقول إلى شخص أمامه: من أي مكان على الأرض قد جئت!

لماذا أتيت؟

لن يكون هناك رد.

لكنه كان يوجد في تلكما العينين ـ عينان لم تكونا له، بل جاءتا من بعيد، تنظران من خلال الليل والنهار. اقتربتا، أضاءتا. ثم ذهبتا مرة أخرى وأظلم كل شيء.

فكر سريعًا: ماتيس الأبله.

سيمون العبيط.

كم كانوا سيضحكون إذا رأوني واقفًا هنا، أنظر إلى نفسي في المرآة.

تذكر أخيرًا ما الذي جاء لأجله بالفعل إلى حجرة هيج. لقد أتى ليبحث عن الشعر الرمادي.

لا شيء منه في المقدمة. أحنى رأسه، وفي بحثه عن الشعر الرمادي أعلى رأسه تدحرجت عيناه تجاه أسفل خصلة الشعر التي سقطت فوق جبينه. ولا شعرة واحدة. بعد ذلك حدق بقدر ما استطاع خلف كل أُذن. لا توجد شعرة رمادية واحدة في أي مكان. هو أصغر من هيج بثلاث سنوات على كل حال، فهي في الأربعين.

فكر، لا، هنا زميل بشعره هكذا الذي سيبقيه لبعض الوقت.

لكن في ثلاث سنوات سوف ألحق بـ «هيج».

ولا شعرة واحدة رمادية. فكر، كلمتي، سوف أُخبر هيج عن ذلك، وأبعث فيها الخوف، ناسيًا أنها لا تحب هذا الموضوع في النقاش.

مشى للخارج مرة أخرى. كانت هيج معتادة على الجلوس على الدرج منهمكة في حياكتها.

جلست هناك تمامًا بالفعل. بدا أن السويتر يكبر في تناسق على يديها السريعتين. كانتا تؤديان نوعًا من الرقص الصامت، بينما يتشكل السويتر بدون عناء.

عند رؤيته قادمًا بمثل هذه العجلة، قالت: «خيرًا؟»

أشار ماتيس إلى شعره المصفف:

«ولا شعرة رمادية عندي. كنت بالداخل، ونظرت في المرآة».

لم ترغب هيج في مناقشة الموضوع مرة أخرى.

قالت باقتضاب: «أنا أعرف».

سأل: «أليس رائعًا؟»

رددت ببرود: «بالطبع هذا رائع».

قال: «نعم، فقط انظري إلى نفسك، أُراهن على أنك ترغبين...»

لم تستطع السيطرة على نفسها:

«أوه، رحمتك يا إلهي!»

توقف في الحال. هناك شيء ما يتعلق بـ «هيج» دفعه إلى أن يتوقف.

سأل مذعورًا: «هل هناك شيء خطأ؟»

أخيرًا نهضت.

«ماتيس».

نظر إليها بعصبية.

«حسنًا، استمر».

«لا أظن أنها ممتعة كثيرًا، تلك الطريقة التي تستمر فيها المرة تلو

الأخرى حول هذا، الليلة».

أجاب: «ممتعة؟ ما هو الممتع لديك أو لديَّ؟» فكر، يا له من شيء غريب عليها ما تقوله!

نظرت هيج إليه، لا حول لها ولا قوة، مرتعبة بشكل مفاجئ. ينبغي فعل شيء ما سريعًا؛ لأن ماتيس كان على وشك أن يبدأ شيئًا ما لا تستطيع التعامل معه.

قالت بحسم لتدفع الرأس إلى مكانه مثل مسمار: «نحن لدينا متع كثيرة أكثر مما تتصور. أنت فقط لا تفكر فيها. لدينا متعة في كل يوم على حدة».

أحنى رأسه، لكنه سأل: «متى؟»

قالت بصرامة: «متى؟»

وانطلقت مرة أخرى. ينبغي لهذا أن يتوقف.

قالت متناسية اللدغة المعتادة: «استعمل عقلك، ماتيس». ووقفت فوقه، في إصرار، على الرغم من أنها كانت الأقل حجمًا.

أجاب ماتيس: «إنني أفكر بإمعان شديد يكاد يقتلني».

«إذًا أنت تتذكر بالتأكيد أكوام من المتع واللهو».

فكر، ولم يعط إجابة.

استمرت هيج. ينبغي تأكيد الحقيقة بشكل قاطع بحيث لا يتبقى مجال لأدنى شك.

«لدينا متع أكثر من أناس آخرين».

بدأ يهمهم بكلمات خافتة تكاد لا تُسمع: «لدينا بالفعل؟»

«نعم، وأنت لا يجب أن تنسى ذلك أبدًا».

توقفت عند هذا. اعتدل ماتيس قليلًا، لكنه لم يجرؤ على الاعتراض. كانت هيج ذكية وتعرف دون شك الأشياء التي كانت ممتعة. من الأفضل ألا أعترض، وأجعل من نفسي مجنونًا.

نظرت إليه بغضب.

كان كل ما قاله: «لم أدرك هذا».

حينئذ خطرت له فجأة فكرة ساطعة، فقال بصوت سعيد: «شيء جميل، ذلك الذي أخبرتني به».

«ماذا؟»

«كما ترين أنني لم أعرف»

شعر بالسعادة، ضحك قليلًا.

قال: «هل أنت ذاهبة بالفعل؟»

بدلًا من أن ترد هيج عليه، أومأت له إيماءة ضجرة، ومضت إلى المنزل.

٤

ذهبت هيج هذا المساء إلى الفراش في وقت مبكر عن المعتاد أيضًا. على الأقل ذهبت إلى حجرتها في وقت مبكر أكثر. كان ماتيس على وشك أن يسألها عن السبب، لكنه قبل أن يشرع في ذلك، استوقفته بصبر نافد:

«أوه، انتظر حتى الغد، ماتيس! من فضلك لا تستمر أكثر من هذا اليوم».

أنصت إليها، فقد الرغبة في أن يسألها المزيد من الأسئلة. كانت في حالة سيئة، استطاعت بالكاد أن تمضي. تساءل عما إذا كان ارتكب أي خطأ. لابد وأنه الأمر المتعلق بشعرها دون شك. هل كان رعبها من أن شعرها رمادي وشعره لم يكن كذلك؟ عمومًا لا يستطيع أن يفعل شيئًا حيال ذلك. لكن كانت هيج هي التي أبقته في حالة طيبة تحت سيطرتها. علاوة على أنها بارعة وكانت هي التي يحترمها أكثر.

تركته هيج بدون أن تقول كلمة أخرى. ومكث بعدها يفكر في كل هذا.

فكر، غدًا يجب أن أقوم بجولة حول المزارع، لأرى ما إذا كان يوجد لدى أي فرد عمل لي، وهو ما يخيفه بالفعل.

السبب هو أن هذا أصل المشكلة. هيج تجعلني أدور طوال السنة. وكذلك كانت هي لمدة أربعين سنة، شعر أنه ربما يضيف بالمثل. على الأقل هو لن يجعلها بالخارج تكون أقل مما هي عليه بالفعل.

تحافظ عليَّ. تحافظ عليَّ.

الكلمة لها مذاق مرير. إنها تشبه مضغ لحاء شجرة الحور الرجراج. وتعين عليه أن يمضغها، سنة بالداخل، سنة بالخارج. يجلس وحيدًا كما هو الآن. مُجبر على أن يضعها على لسانه ويتذوقها. لا يوجد مفر. إنها أكثر الكلمات التي عرفها مرارة.

غدًا، أنا ذاهب للعمل.

أضاف سريعًا، بشرط ألا يوقفني شيء، لكي يكون على الجانب الآمن.

لديه ذكريات ضبابية عن الأيام الكثيرة التي يبدأ فيها العمل لشخص ما. في مزرعة، أو في الحقول، أو في الغابات. كان هناك دائمًا شيء ما يقلب الأشياء بالنسبة له، لدرجة أنه لا يستطيع أن ينهي العمل. وبعد ذلك لا يطلبون منه العمل هناك. فهؤلاء البارعون، هؤلاء الذين يمتلكون أشياء وكانت لديهم وظائف يقدمونها، يتخطونه بدون أن يلاحظوه. وهكذا قد عاد إلى هيج خالي الوفاض. واعتادت هي على هذا الآن لدرجة أنها قبلت به على مضض. لكنها استمرت تكافح من أجل الاحتفاظ به. يتساءل: ما الذي تفكر فيه فيما يخص الأمر بأكمله؟!

كن قويًّا غدًا. واجه الأمر بشجاعة، أذهب إلى المزارع وأسأل عن وظيفة.

قال بنبرة وحشية في الهواء الطلق: «لا يمكن أن تجري الأمور هكذا إلى الأبد. لابد أن أحصل على عمل ما، إن هيج قد داهمها المشيب».

بدأ يتأكد: إنه أنا من جعل هيج تغدو رمادية الشعر. وبالتدريج تفتحت عيناه على الحقيقة بأكملها. وشعر بخجل عميق من نفسه.

٥

تأخر الوقت أكثر بكثير مما اعتاد أن يبقى مستيقظًا بشكل عام. ورغم ذلك، لم يشعر بالرغبة في الذهاب إلى الفراش، ومضى يتجول بالخارج. حينما يكون لديك شيء يشغل بالك، يصعب عليك حتى أن ترقد بالفراش تتلوى وتتقلب على جنبيك.

ربما لا تكون هيج نائمة أيضًا. فهي قد مضت إلى حجرتها مبكرًا فقط لتتجنبني.

«وليس من الممتع كثيرًا أن تعرف ذلك»، هكذا قال بصوت مرتفع، بصوت عالٍ لدرجة أنه من الممكن أن تسمعه في حجرتها.

شعر باكتئاب شديد.

فجأة، طرأت فكرة جديدة جعلته يبدأ: لا ينبغي أن تتركيني هيج! لهث متشوقًا، تحول تجاه الغرفة حيث ترقد هيج. مهما حدث لك أو لي، لا ينبغي أن تتركيني.

لم تكن تلك فكرة جديدة على الإطلاق، لكنها تبدو جديدة كل مرة تمامًا كما هي مؤلمة. وفي كل مرة كان عليه أن يستبعدها على أنها حماقة لا قيمة لها. لم تتلفظ هيج أبدًا بكلمة عن تركه. لماذا يتعين عليه أن يعذب نفسه بهذا الشكل؟

إن الرؤيا لن تفارقه. رأى هيج تمشي مبتعدة أكثر وأكثر. كانت تحمل كل حاجياتها في حزمة تحت إبطها.

أراحلة أنت؟

نعم، ماتيس.

هذا أمر محزن جدًّا، هيج.

نعم، ماتيس.

ثم بدأت تمشي ثانية.

لم تعد تنصت إليه بعد ذلك، وأخذت تصغر وتصغر، غدت في النهاية مجرد نقطة سوداء صغيرة ـ وبقيت هناك. لم تستطع أن تختفي تمامًا في

هذا التمثيل للفزورة المؤلمة.

وعند هذه اللحظة تمامًا، جاءت الواقعة العظيمة.

كان مستغرقًا في التفكير في الرؤى التي تنتابه حيث تمشي هيج مبتعدة، وهو يجلس في مكانه المعتاد على الدرج ينظر إلى التلال عبر البحيرة في الغرب. البحيرة الآن سوداء والتلال عميقة ومظلمة. حمرة الغسق الصيفي الرائعة في كل مكان في السماء وعلى الأرض. لم يكن ماتيس أعمى لكي لا يبصر مثل تلك الأشياء.

كان كوخهما المنزلي يقع على غور صغير لمستنقع يمتد من البحيرة. وتتناثر أشجار البتولا والحور الرجراج فيما بين أشجار الصنوبر. ويتخلل الغور نهر صغير. أحيانًا يفكر ماتيس في أنه أجمل من أي مكان آخر رآه ـ من الأماكن القليلة التي عرفها.

ربما كان هذا هو ما يشعر به الآن، أيضًا ـ كان بالتأكيد مستغرقًا في التأمل وترك الغسق ينمو أعمق وأعمق إلى أبعد حد من الممكن أن تطلق عليه غسقًا، وليس مجرد شيء ما تنتفي عنه صفة اللطف.

عند هذه اللحظة حدث غير المُتَوقَّع.

كان يفكر لتوه، «إن هذا الجانب من الرياح ساكن»، بينما هو يحملق تجاه شجرتي الحور الرجراج وسماء المساء. كان شيء ما يترشح من خلال قمم الأشجار، كان واضحًا، شعر أنه يستطيع أن يراه. ليست رياحًا، مجرد شيء يتغلغل ـ ومن هذا الجانب كان ساكنًا إلى درجة أنه لم ترتعش ورقة واحدة على أشجار الحور الرجراج الأخرى.

لكن حينئذ أتى صوت خافت ضعيف: فجأة صرخة غريبة، وفي الوقت نفسه لاحظ رفرفة سريعة في الهواء من فوقه. ومن ثَمَّ جاءت صرخات ضعيفة عاجزة أكثر بصوت طائر. عاجزة.

مضت مباشرة عبر المنزل.

لكنها سرت مباشرة من خلال ماتيس كذلك. إثارة صامتة نبعت من داخله؛ جلس هناك مستيقظًا ومضطربًا بشدة.

هل هو سحر؟

لا، أي شيء إلا، ومع ذلك ــ

كان هو وودكوك طائر الغابة الذي رفرف فوق المنزل، وودكوك لا يفعل هذا النوع من الأشياء بالصدفة، وليس في هذا الوقت من اليوم. بدأ التحليق فوق منزله!

فمن أين بدأ؟

لأنه لم يكن هناك أي ربيع من قبل على قدر ما يتذكر فيما مضى. فهو لم يتأخر بالخارج بما يكفي لكي يراه ويسمعه إذا كان قد وُجِد.

لكن الليلة، كان فوق الرأس مباشرة، فوق هيج وفوقه، وهذه الكيفية التي ستكون من الآن فصاعدًا، كل طلعة نهار وحلول مساء.

نظر ماتيس إلى منزله. بدا منزلًا مختلفًا الآن، ينبغي أن تنظر إليه بعيون مختلفة. بدا وودكوك طائر الغابة أنه شيء ينساب محلقًا خلال الوديان مبتعدًا عن كل ما يخصه. هكذا تخيله دائمًا. الآن، هذا المساء هو هنا، انتقل مباشرة إلى هنا. هذا هو معناه إذا لم يكن وهمًا ـ كان يعرف أنه مدمن للأوهام. هل سمع أي أحد أبدًا عن وودكوك ينتقل من مساره المعتاد؟ لم

يحدث على مقدار علمه. ولماذا أتى إلى هنا؟

جلس ماتيس مترقبًا يحبس أنفاسه تقريبًا. لأنه إذا كان هذا طيرانًا حقيقيًّا، سوف يعود الطائر في خلال فترة وجيزة على طول المسار نفسه، مرة تلو أخرى، خلال الوقت القصير الذي يستغرقه الطيران المسائي. عرف هذا من مناطق أخرى يحدث فيها الطيران. وفي الصباح الباكر أيضًا ينتقل الطائر عبر المسار نفسه، أخبره بذلك أحد صائدي الطيور. فقد رأى أحيانًا على أراضي المستنقع الجاف، علامات مناقير طيور وودكوك تالية لآثار سيقانها الرفيعة.

جلس ينتظر مفعمًا بالإثارة. بدا أن اللحظات تطول، وشكوكه تنمو أكثر.

لكن صه، هاهو. الجناحان المرفرفان، الطائر نفسه، غير واضح، يسرع من خلال الهواء مباشرة عبر المنزل، ويبتعد في الاتجاه الآخر. يذهب مرة أخرى، يختفي بين طيات الغسق الرقيق، وينام على قمم الأشجار.

حينئذ قال ماتيس في صوت حازم: «إذًا جاء وودكوك أخيرًا».

لم يعرف كيف قال هذا أو لماذا. إنه على الأقل استطاع أن يقول ويفعل ـ ولم يكن هناك شخص ينصت حينما قاله. شعر كما لو أن شيئًا قد حدث وانتهى بعد زمن طويل وصعب.

انحصر تفكيره في أن يخبر هيج عن ذلك، أراد أن يسارع فورًا. نائمة أو مستيقظة، يجب أن تسمع عن هذا حالًا. لكنه توقف. إذا كان هذا حقيقيًّا، فسرعان ما سيعود الطائر حينئذ للمرة الثالثة، ولم يكن ماتيس متأكدًا من نفسه تمامًا لدرجة أنه شعر أنه ينبغي عليه أن ينتظر لهذا الظهور الثالث.

أجلس وأنتظر اكتمال البهجة.

سوف تصدقني هيج إذا رأيته ثلاث مرات. سوف يصدقني كل شخص حينئذ.

صه، ها هو مرة أخرى.

تمامًا كما قبل الرفرفة، يندفع الظل في الغسق مثل سهم ـ ومن ثَمَّ الصيحة المكتومة، سواء أكان أحد ينصت أم لا. مباشرة عبر السقف، وبعيدًا إلى الفضاء. إذًا هو ببساطة مساء متأخر مرة أخرى.

لكنه يأتي. الآن أنا أعرف شيئًا، استنتج بدون أن يذهب إلى أبعد من ذلك في الموضوع. لا يوجد أي شك في ذلك. شعر باختلاف.

وهيج نائمة.

الآن، ستكون هيج قادرة على أن تشعر بالاختلاف أيضًا.

٦

هيج نائمة. هيج التي كانت تشبه البرق ببتلات ورودها الثمانية والتي استطاعت التعامل مع الصعاب ـ لم يكن ماتيس متأكدًا بعد أيهم أكثر أهمية. شعر في هذه اللحظة تقريبًا أنه يضع نفسه أولًا.

ذهب إلى حجرتها محدثًا ضوضاء لا بأس بها.

من السخف أن يفعل ذلك. فقد ذهبت هيج إلى فراشها منذ فترة طويلة، ربما حتى مستغرقة في النوم، لذلك فهذه لحظة تعيسة أن أزعجها. أيضًا هي كانت حادة المزاج.

انفجرت قبل أن يستطيع أن يجد الكلمات لعواطفه المتدفقة: «ما الأمر الآن؟». لقد عرف فقط هذه النبرة بالفعل جيدًا. من الواضح أنها استغرقت في النوم تمامًا، ثم جاء هو بضجيجه. لكنه عرف أيضًا ما الذي سيعقب؛ كانت بالفعل تُجلي حنجرتها كطريقة لتخفيف أثر كلماتها الجارحة الأولى.

قالت بضجر بصوت خفيض بدا الآن ودودًا وممزوجًا بتأنيب الضمير: «ما الأمر، ماتيس؟»

الأنباء يا ماتيس مشجعة عظيمة. لم يعرف كيف يصوغ الأمر في كلمات. في النهاية قال ببساطة: «يوجد وودكوك بدأ التحليق عاليًا هنا الليلة!» كان صوته صارمًا وجامدًا. شعر بنفسه غريبًا يقف عند فراشها.

بدا أن هيج تلاحظ نغمة صوته. لسان مخدر بالدهشة والفزع. لكن هناك الكثير من الأشياء الغريبة التي جاء ماتيس مندفعًا ليخبرها بها. أشياء سرعان ما يتم تفسيرها في العادة فلا تبدو غريبة بعدها. قالت بهدوء:

«وودكوك ؟ أوه، مفهوم. اذهب الآن ماتيس لتنال قسطًا من النوم».

لم يفهم.

قالت برفق عندما رأت تعبير الذهول على وجهه: «اذهب إلى النوم الآن ماتيس».

تأوه ماتيس محبطًا.

«ألم تسمعي ما قلت؟ يوجد وودكوك هنا! إنه يتنقل! إنه يطير مباشرة عبر سطح منزلنا! الآن! في هذه اللحظة تمامًا، بينما أنت تجلسين عندك في الفراش».

ظلت هيج جالسة كما هي، بنفس التعبير على وجهها.

«بالطبع أنا سمعت. لكن ماذا في ذلك؟ ألا تستطيع أن تترك وودكوك يأتي ويذهب كما يشاء؟»

لم يفهمها. بدا كما لو أنها تتكلم بلغة لا يفهمها.

«ألا يعني هذا أي شيء بالنسبة لك؟ هل سمعت من قبل عن وودكوك يغير مساره مثل هذا، ويطير مباشرة فوق رأسك؟»

هزت كتفيها.

«وما الذي تطلبه مني؟»

«لا، أراهنك أنت لم تري هذا من قبل. ارتدي أشياءك الآن وتعالي إلى الخارج».

«الخارج؟ الآن، في منتصف الليل؟»

«بالطبع أنت يجب أن تريه أيضًا».

قالت: «لا، ماتيس».

«يجب عليك! إنه يحدث الآن. إذا لم تكن هذه مسألة مهمة أيضًا، إذًا...»

كانت إجابة هيج فقط أن تضطجع مرة أخرى. تثاءبت بعمق مع النوم.

قالت: «أنا متأكدة من أنك استمتعت بالمشاهدة، لكني أستطيع أن أراه في وقت آخر. إذا كان هنا، إنه هنا، أليس كذلك؟»

حدق ماتيس فيها وفمه مفتوح.

ردد مذعورًا: «إذا كان هنا، إنه هنا! وتفترضين أن تكوني حكيمة؟»

وزاغ بصره بدون تفكير.

سألت: «ماذا تعني؟»

أوجز قائلًا: «أنت لا تفهمين أي شيء إذًا».

وقف على مقربة منها محبطًا وعاجزًا.

لمست ذراعه برفق. اعتبرها علامة على المودة. لم ير كم كانت هيج مرهقة وبائسة في هذه اللحظة. رقدت هناك في ثياب نومها الباهتة لا تنظر إليه، تحول وجهها إلى الحائط.

«دعنا نتحدث عن ذلك في الصباح ماتيس. اذهب إلى فراشك الآن، هل تسمع؟»

بالنسبة إلى ماتيس بدا الأمر مثل الجنون ـ إفلات فرصة مثل هذه.

«إنني أخبرك أنه يحدث الآن. وأنت لا تريدين أن تأتي إلى الخارج وترين؟ لا استطيع أن أفهمك. لا شيء يبدو له أي معنى لديك».

في النهاية، لم تستطع هيج أن تتحمل المزيد. ضربت بيدها على حافة فراشها وصاحت: «أنت لا تعرف ما تتحدث عنه. ويأتي منك أنت الذي هو...» توقفت فجأة.

سأل بصوت مرتعب: «ماذا أكون؟»

صاحت وهي تعطيه ظهرها: «اتركني في سلام، أرجوك! لا أستطيع أن أتحمل المزيد إذا لم... أوه، من فضلك اذهب، الوقت متأخر، وينبغي أن ننام قليلًا، ماتيس».

وأعرضت عنه، حتى أنها تحولت بعيدًا عنه أكثر. رأى كتفيها وقد أخذا يرتجفان. هزه ذلك عميقًا، جعله يشعر بالذنب، سواء أكان مذنبًا

أم لم يكن.

شعر بالحيرة. هل لم يكن رحيمًا بها؟ أراد فقط أن يسرها بطائر وودكوك. لم يحدث له من قبل أن لا يكون الحدث جللًا عند هيج كما هو بالنسبة له. إنه يجري هناك بالخارج الآن، في اللحظة الراهنة ـ وهيج لا تهتم، وتصيح فيه، وترقد هناك تبكي بصورة عاجزة غير مفهومة.

«لكن هيج ـ أنا لم أقصد أذى، فقط أردت أن...»

لكنها الآن جامحة بصورة مطلقة، صرخت: «هل سمعت ما قلت لك»، وأسرع بالتراجع بالخطوات القليلة اللازمة للخروج من حجرتها. وأغلق الباب برفق كما لو أن هيج نائمة ولا يجب إزعاجها.

فكر بطريقة حائرة حينما خرج، كم يختلف الناس. على الأقل أنا وهيج. لا أعتقد أنها حتى تصدقني. لكنني رأيته وسمعته. سوف أقسم أنني رأيته. التحليق انتهى للتو لهذه الليلة، هذا كل شيء.

قال صوت بداخله، والآن دعنا نغني أغنية. ليست تلك التي بدأ يغنيها. بدت فقط أنها تلي بشكل طبيعي بعد «انتهى لهذه الليلة». حضرت كل أنواع المقابلات، لذلك عندي فكرة جيدة عن الكيفية التي تحدث بها الأشياء هناك.

انتهى لهذه الليلة. لأن الطائر الآن قد وجد حبه الحقيقي.

حينما نظر إلى أعلى، كانت هناك أشعة من الضوء حيث حلق وودكوك. فوق منزله مباشرة.

ومن أجل الأمانة المطلقة، هو ليس متأكدًا تمامًا من هذا ـ لكنه يشعر أن شيئًا ما قد حدث أعلى هناك، وأن تغييرًا ما قد حدث. في الغد، سوف

يحدث هذا ثانية، بصورة رائعة كما حدث الليلة. وسوف تراه هيج. حتى لو اضطررت أن أقيدها هنا.

«سوف تمضي الأشياء بصعوبة من الآن فصاعدًا»، هكذا فكر قبل أن يستغرق في النوم، مقوسًا على الدكة مثل طفل.

من أجلي؟

بعثت الفكرة بفيض من الدفء في أوصاله.

٧

وتابع وودكوك طائر الغابة ماتيس في نومه، لكنه كان عليه أن يشكره على ذلك، فقد تبعه حلم رائع.

قبل كل شيء فأل حسن، قبل أن يظهر أي شيء بالفعل:

قال شخص ما: «نحن قادمون، نحن قادمون، أنت مستعد، أليس كذلك؟»

استطاع أن يجيب: «نعم بالطبع».

قال صوت ودود: «استغرقت وقتًا طويلًا، ماتيس، لكن كل ذلك الآن قد انتهى».

وقد جاء بالفعل. شعاع براق فوق المنزل وفوق كلا الجانبين، عالٍ ومنخفض، وصوت بالكاد مسموع ـ كما ينبغي لأصوات مثل تلك أن تكون. وفي الحال، تغير المنزل وأصبح جديدًا بالكامل.

قال: «لكنه ليس المنزل، هذا أهم شيء».

لا، ولم تكن أشياء أخرى أيضًا، كان هو نفسه. الشعاعات اخترقته وجعلته مختلفًا تمامًا. حينما ثنى ذراعه الأيمن ليختبر عضلاته الجديدة، كان هناك انتفاخ ما حيث تفجر الجزء العلوي كله من كم قميصه. نظر إلى العضلة الملساء جميلة المنظر، وضحك.

قال: «هذا أفضل».

قال وهو يلقي نظرة خاطفة حوله: «هذا بالفعل شيء للضغط به».

صاح: «أين أنتم؟»

ضحكوا وهم مختبئون في الأخدود.

«نحن موجودون حيث نوجد عادة».

كان منزله جديدًا بالفعل، وذهب لكي ينظر على انعكاس صورته على زجاج النافذة. لم ير من قبل هذا الرفيق القوي مثل هذا الشخص الذي يواجهه في الزجاج المعتم. استطاع أن يرى نفسه من كل زاوية، وبدا كله جيدًا بقدر متساوٍ.

صاح بصوتٍ عالٍ: «هل ترون أي شيء؟»

جاء الرد من الأخدود: «نعم أنت تراهن أننا نرى، لا نستطيع أن نرى أي شيء آخر».

قال: «انتظروا قليلًا»، لكن الجوقة كلها أجابت: «ننتظر؟ الآن؟»

«ماذا ستفعل، ماتيس؟»

«استعد يا ماتيس!»

قال مستخدمًا تعبيرهم: «نعم، أراهن أنني سأفعل».

هز رأسه، وبمجرد أن فعل هذا امتلأ بكل الكلمات الصحيحة ليقولها للفتيات ـ وللأناس الآخرين أيضًا من أجل هذه المسألة. ليست مجرد ومضات خافتة كما كان من قبل. ضحك، وأخذ يتلاعب بموهبته الجديدة، يجرب كلمة أو اثنتين من الكلمات الجريئة.

قال: «هاي، أنتم يا من في الأخدود، هل أنتم مستعدون؟»

قالوا: «نحن مستعدون، من تريده أن يأتي؟»

قال وهو يترك قميصه يضيق حول ذراعه: «هل ستأتي؟ أنت، من أفكر فيه».

كانت لحظة متوترة، لكن الرد جاء في الحال: «هذا ما أريد أن أفعله».

وبدا أن الأصوات الأخرى قد غاصت في الأرض.

هناك كانت تقف في مقدمة الأخدود، لم تعد تختفي. لقد رآها في خياله ألف مرة، لكنها مازالت مختلفة. ومع ذلك فهو تعرف عليها نوعًا ما، ولم يكن خائفًا بأي قدر. أتت إليه مباشرة، أحاطته بعبيرها الفواح.

لا يجب أن يلمسها الآن.

قال: «افعلي شيئًا».

فهمت في الحال. قالت: «نعم، انظر».

لوحت بذراعها، وامتلأ كل الهواء المحيط بأغنية الطيور.

بدأ ماتيس: «نعم، أنت وُلِدت من تحليق الوودكوك، وكنت في أفكاري منذ زمن طويل، هناك شيء تريدين قوله، يجب أن تقوليه، يجب أن تقوليه الآن».

قالت: «أقوله؟»

«نعم».

«لا، لا يوجد شيء أكثر أريد أن أقوله».

نظر مباشرة في عينيها. وفي الوقت نفسه ثنى ذراعه الأيسر بهدوء، جعل كم قميصه يتمزق تمزيقة صغيرة. لمعت العضلات المستديرة الناعمة الهائلة في الشمس مباشرة أمام وجهها.

قال بهدوء شديد: «لا تقلقي من شيء، لديَّ الكثير من القمصان».

قالت مفعمة بالدهشة: «والذراع الأيسر!»

قال مستبعدًا المسألة: «نعم، الكم الأيمن قد تمزق منذ زمن طويل».

لم تقل المزيد، كانت مسحورة بشدة بما رأته من أن الكلمات خذلتها. كانت هذه الكيفية التي رغب فيها. أصبحت كل رغباته حقيقة. والأكثر من ذلك أنه كان قادرًا على قول أشياء بالطريقة الصحيحة.

قال لها: «الآن أنت تفعلين ما تريدينه تمامًا، أنت رائعة».

اقتربت أكثر في الحال.

أضاف: «لقد بدأت أفهم بشكل أفضل الآن لماذا كنت أنتظر هكذا طويلًا».

ظلت صامتة الوقت كله ـ لأن لديها سرًّا أرادت أن تخبره إياه. كل مافعلته هو أنها اقتربت أكثر. لوحت بذراعها فامتلأ الهواء حولها بأغنية الطيور ـ الآن تحرك جسدها كله، وكان مأسورًا بسحرها.

حركت جسدها كله، ولم يستطع قول ما حدث. شيء مجهول. اقتربت

أكثر، هذا كل ما هناك. كانت قريبة منه، وُلِّدت من تحليق الوودكوك، فهي تنتمي إليه.

٨

نهضت هيج كالعادة أولًا. كان ماتيس مستيقظًا تمامًا، لكنه مكث في الفراش يعيش حلمه. سمع هيج تتحرك في غرفتها. حينئذ خرجت. فسارع ماتيس بالتحول إلى الحائط متظاهرًا بالنوم. بدا ذلك أكثر ما يفعله أمانًا، بعد الطريقة التي افترقا بها الليلة الماضية.

وقفت إلى جواره للحظة في طريقها إلى المطبخ. انقباض. لكنها عبرت. تحركت ثانية. سرعان ما سمع الأصوات الصباحية المعتادة للأكواب والسكاكين.

فكر ماتيس حالمًا، ستسير الأمور على نحو مختلف. عثر على ملابسه وارتداها. شعر باختلاف فعلي، شعر أنه مدعوم بذراعيين قويين ـ وودكوك طائر الغابة والحلم، واحد على كل جانب. لم يتمكن من الإنصات ليرى ما إذا كان سيحدث اليوم شيء ما كذلك. ربما تنتظره كلمة غير متوقعة أو مفاجأة سارة ـ فالآن الأشياء مختلفة.

ليس بعد. لكن اليوم لا ينبغي أن يكون مثل أي يوم آخر. عليه أن يتأكد بذلك من نفسه.

قال إلى هيج من باب المطبخ: «طائر مبكر» . خطر على باله جزء من المثل القديم، واستخدمه بدلًا من أن يقول صباح الخير.

شعر أنه غير واثق من نفسه. كانت لمحته الأخيرة لـ «هيج» الليلة الماضية حزينة لا تُحتمل. يستطيع أن يفكر في أنها كانت غلطته وهي مستلقية هناك، وجهها للحائط تبكي.

وبعد ذلك فقط جاء حلمه!

على أية حال، انتهت هيج من ذلك الآن بعد نوم ليلها. وقفت هناك، صغيرة ورشيقة، تُقَطِّع الخبز. بدا الأمر الأمر كما لو أنها كانت تفعل شيئًا خاصًا يشير إلى أنها مبتهجة وهادئة لتلطيف الأجواء بعد الليلة السابقة. أجابت على كلماته حول الطائر المبكر: «أنت في حالة طيبة، أليس كذلك؟»

ضحك من داخله، لكنه أجاب: «ماذا تعنين؟»

«حسنًا، ألست في مزاج طيب؟»

قال: «أنت لا تعرفين لماذا».

ولا كلمة منها عن الليلة السابقة. وحينئذ تقريبًا، ذهبت بعيدًا جدًّا: «أظن أنني أعرف. لأنك بصدد عمل شيء ما اليوم كبير بالفعل، تمامًا كما اتفقنا. وأنا واثقة من أن الخير في التبكير».

أوه لا! نسى أنه وعد بأن يذهب ويبحث عن عمل. لكن هيج لم تنس، هذا واضح تمامًا. لم يكن لينكر أن هذا قد ألقى بظلاله على ابتهاجه.

قال: «لا، أنت مخطئة في هذا».

«لكن ألست ...»

قاطعها: «يوجد وودكوك طائر الغابة هنا الآن». قال هذا كما لو أن شخصًا يقدم معلومات، ليشرح الظروف الجديدة. بالتأكيد هو لم يتوقع أن يقوم بالرحلة المؤلمة حول المزارع يطلب عملًا الآن، في الوقت الذي حدثت فيه الكثير من الأشياء اللذيذة.

لكن هيج لم تتحرك قيد أنملة.

قالت: «وماذا في ذلك؟ ما الفرق بين إذا ما كان هنا وودكوك أم لا؟»

«لا أعرف حقيقة. هل أنت واثقة من أنك لا تعرفين أيضًا؟» شعر أنه الآن أشجع، لكن لا فائدة.

وهكذا فعل. فهو مازال يعيش في حلمه. سوف يجعل هيج تفهم فيما بعد، تفهم الشيء المهم الذي حدث وترفض أن تقبله.

وعلى حين غرة، كسر الصمت: قال: «همم!» ونقر على الأرضية ثلاث مرات بكعب حذائه.

«حسنا؟»

«لا شيء يمكن فعله معك».

قالت هيج: «أليس كذلك؟ يبدو كما لو أنك على وشك أن تقول شيئًا ما».

ازدرد ماتيس بضع لقيمات بدون أن يقول أي شيء، لكنه لم يستطع أن يمنع نفسه.

قال: «غريبة نوعية الأشياء التي يمكن أن يحلم بها الناس، إذا أرادوا بالفعل».

لم تكن هيج تشاركه اللعبة.

قالت كما لو أن الأمر برمته لم تكن له أهمية على الإطلاق: «أوه، إذًا أنت كنت تحلم».

همهم ماتيس مرة أخرى: «همم!»

«من الأفضل أن تخبرني، وإلا فسوف تنفجر».

لقد جعل رد فعلها الحلم أكثر حيوية وواقعية. بدا حقيقة تقريبًا.

«أخبرك ماذا حلُمت؟»

هزت رأسها.

قال بجدية وهو ينظر إليها بعينين مفتوحتين على اتساعهما: «لا أستطيع».

«إذًا، لا يمكن أن يكون أكثر من مجرد حلم»، هكذا قالت هيج بقليل من السخرية، وهي تصب له قهوة خفيفة اعتادا أن يشرباها. بدأت بالفعل تتحرك مبتعدة عنه.

قال ماتيس: «ليس من اللياقة أن تتحدثي عن نوعية شيء حلمت به. لذا أنت تعرفين الآن».

«أوه؟»

«ليس من المحبب سؤالك واستمرارك في السؤال. تستطيعين الآن أن تخمني بالتأكيد».

لم تعد شغوفة إلى أدنى درجة، صبت الماء البارد على الموضوع بأكمله: «حسنًا، يمكنك أن تعزي نفسك بحقيقة أن الأحلام يحدث في العادة عكسها. فعكس ما حلمت به يصبح حقيقة».

انفجر: «ماذا!» أصابته كلماتها بالرجفة. بدا الأمر كما لو أنها أرادت أن تؤلمه. لكنها لم تعرف ماذا كانت تتحدث عنه، هذا كل ما هنالك. قال مرتعبًا: «هذا أسخف شيء تقولينه مما تعرفينه»، ورفض أن يأكل المزيد. ونهض بشكل مفاجئ لدرجة أنه أطاح بالمائدة ـ جلس منسحقًا حيث كان. انسابت القهوة الخفيفة في المكان كله وتهشم الكوب كذلك.

«يا لها من فوضى تلك التي أحدثتها ماتيس!».

«حسنًا، خطأ من هذا؟»

بالتأكيد فهمت كيف أفسدت كل شيء له.

قال: «لكنني لن أسمح لك بإفساد هذا».

«أهدأ الآن، ماتيس»

شد من نفسه في الحال:

«لا، هذا لا يهم، لأن الأشياء ستكون مختلفة منذ الآن. لقد بدأت الليلة الماضية».

تذكرت هيج كيف كانت غاضبة الليلة الماضية، وشعرت بالأسف لذلك.

«سوف آتي معك وأنظر على طائر وودكوك هذا ذات مساء. فقط لا تستمر على هذا المنوال».

«لن يكون مثل المرة الأولى».

رفعت هيج المائدة عند ذلك ونظفتها وأخذت السويتر نصف المنتهي. وفي الوقت نفسه ظلت تنظر على ماتيس لترى ما هو مقدم على فعله. استطاع أن يشعر بها تنظر إليه، وسألها بصوت غاضب: «ما الأمر الآن

إذًا؟»

«أنتظر لأرى ما إذا كنت ستذهب إلى المزارع، كما قلت إنك ستفعل».

لم يكن لديها رحمة.

«لكن وودكوك...»

تصلبت هيج.

«وودكوك، طيور، هذا ليس عذرًا. أنت قلت إنك ستذهب، والآن يتحتم عليك أن تفعل».

أصبح ماتيس مذعورًا. لابد وأن هيج مصممة على هذا الوقت، رأى أنها كانت متشبثة بعنادها. أمازالت لا تفهم كيف يسلمه ذلك إلى الشقاء؟ نهض من مقعده الآمن، وسأل بصعوبة: «هل هكذا تختلف الأشياء هنا بعد الوودكوك؟»

قالت هيج: «لا ينبغي أن نستسلم أبدًا، أخبرتك ذلك آلاف المرات».

«من السهل عليك أن تتحدثي».

فكر للحظة.

«لماذا ليس لديَّ عضلات كبيرة بما يكفي لتمزيق قميصي؟» هكذا قال، وكان صوته عاليًا وقاسيًا.

لم ترد هيج.

ومضى في انفعاله: «أنت لم تسأليني أبدًا!»

«عن ماذا؟»

«نوعية الأشياء التي لا يسأل الناس عنها».

كان صوت هيج حادًّا: «أوقف هذا الآن».

لقد لمسا مسائل كانت حرجة لكل منهما.

«هل يمكنني الانتظار حتى الغد؟» هكذا سأل وهو يشير إلى الرحلة المهينة حول المزارع بحثًا عن عمل. كانت في كثير من الأحيان أختًا طيبة له ـ لكن الآن بدأت تفقد أعصابها أكثر من ذي قبل.

«اليوم، يعني اليوم، أنت تعرف».

قالت هيج: «اتفقنا، سوف نسمي ذلك اتفاقًا».

٩

اليوم كان هو اليوم.

ذهب ماتيس يتجول.

فكر مع نفسه، كانت هناك ثلاثة أشياء في الحلم.

كنت مختلفًا بثلاث طرق مختلفة.

كان يجول في دفء صباح صيف لطيف. ربما كانت هيج تجلس بالداخل عابسة لأنه رفض أن يذهب للبحث عن عمل. لم يستطع أن يساعد في ذلك. فالأحداث مؤخرًا كانت متلاحقة جدًّا وبالغة الأهمية. كانت الروائح العطرة والأنسام المنعشة تحيط به من كل جانب.

ثلاثة تغيرات عظيمة. كانت تجري هذا الصباح، لم يكن هناك شك في ذلك. لم يكن لديه شيء فيما عدا ذكرى ذلك كله تهتز من تحته مثل وتر

كمان. كما لو أنه مشى فوق هذه الأوتار والأرض من تحتها، ودق صوت سحري وفعلي وصادق.

مختلف في ثلاثة أشياء ـ لكن اليوم كان هو اليوم. غريبة هي الكيفية التي تبدو بها قلة ما تفهمه هيج، فكر في هذا ومضى صوب البحيرة.

توقف هناك يلقي بالأحجار في الماء مثل طفل. كانت البحيرة ملساء تمامًا، لم تكن هناك جدوى على الإطلاق من محاولة الصيد، لذلك يستطيع أن يترك بأمان قاربه القديم المتهالك حيث كان.

ثلاثة أشياء. حوله في مكان ما، توهم هو في الليلة الماضية شيئًا واحدًا. كانت كل هذه الأشياء التي رغب فيها بنفسه مختلفة.

وقف هناك يقذف بالأحجار إلى البحيرة بتعبير مذهول يتطلع بعيدًا، أحجار ثقيلة تثير الدوامات.

نادت هيج عليه من المنزل: «ماتيس! الغداء!». الصوت المريح لامرأة المنزل.

الأشياء الثلاثة أعطت قفزة.

لم تكن هناك حاجة لها أن تصيح «تعالى في الحال!» كان ماتيس سريعًا بما يكفي حينما دُعي للغداء. أسرع عبر المنحدر وجلس على المائدة.

قالت هيج وهي تجذب الطبق ناحيتها: «من الأفضل أن تأكل حينما تستطيع». عرف جيدًا أن لهجتها لديها شيء ما لتفعله مع رفضه أن يذهب للبحث عن عمل. هذا هو السبب في أنها تتحدث إليه هكذا.

قال وهو يأكل: «لو فقط اختلف المرء بثلاث طرق».

«أية ثلاث طرق؟»

«إنها أن تفعلي ما لم أخبرك به. ومع الفتيات و...»

«وهو كذلك لكن انتهي من طعامك».

قال بصوت متنكد: «أنت دائمًا الشيء نفسه».

قالت هيج: «نعم، لكن هل ستقوم بالرحلة غدًا؟»

فكر، كم هي غريبة وعنيدة، لكن مع ذلك هذه هي الطريقة التي يحصل بها على الطعام.

«إذا قلت إنني سوف أفعلها، إذًا سوف أفعلها»، هكذا أجاب مرتعشًا من فكرة أن يقف عاجزًا، معرضًا لنظرة العمال الأكفاء بالفعل.

كانت هيج منهمكة في السويتر الذي تصنعه. قال ماتيس شبه متوسل: «هل ستشاهدين طائر الغابة حينما يعود هذا المساء؟ قلت هذا الصباح إنه سيكون لديك بعض الوقت».

«ليس هذا المساء، هذا يعني أن أستيقظ إلى وقت متأخر».

«لكنك قلت...»

قالت هيج بحزم: «أفضل أن أنال قسطًا من النوم».

قال ماتيس بقسوة: «لكن افترضي أنك لم تستيقظي أبدًا مرة ثانية! ستكونين بالفعل نادمة حينئذ».

أعطت البداية. كان لكلماته تأثير لم يفهمه.

صاحت: «توقف عن هذا، ماتيس».

فر هاربًا. سمعها تقول شيئًا ما من خلفه، لكنه انسل خارجًا، مرتعبًا.

جلس هذا المساء على الدرج مضطربًا، متململًا بعصبية بأصابعه. خاضت هيج المخاطرة وذهبت إلى الفراش على أية حال.

جاء الوقت للطائر ليظهر.

كانت صرخته، وجاء جناحاه، يرفرفان بضعف نوعًا ما، ويضربان بسرعة.

كان الجناحان مرتفعين في هواء الليل المعتدل، لكنهما لمسا في الوقت نفسه المركز الفعلي لقلب ماتيس. اللمسة الناعمة السوداء لشيء ما يتجاوز الفهم. انتشرت مباشرة من خلاله. أنا وطائر وودكوك، نوع ما يحرك قاطرة الفكر التي لا شكل لها.

وفي غمرة سعادته أعطى وعدًا: غدًا سأذهب فقط كما أرادت هيج طالما لن تكون هناك عاصفة رعدية. فالبرق هو البرق. لن أذهب حينئذ ـ إنها تعرف ذلك جيدًا.

انتظر أن يحلق مرتين أخريين قبل الذهاب إلى الفراش في حجرة يغمرها الدفء ونصف ضوء لليلة صيفية. لكنه أصيب بالإحباط، إذ إنه توقع للحلم أن يعاود الظهور. فلم تكن ثَمَّة إشارة عن بستان مملوء بالفتيات.

١٠

شجرتا الحور، ماتيس وهيج، وقفا يشيران إلى شمس الصباح والسماء داكنة الزرقة. مشى ماتيس إلى ما وراءهما حتى وصل إلى الطريق. كان

يمشي وشفتاه مذمومتان يطبقهما بشدة. ما الذي جاء من أجله إذا كان كل شيء سيبقى هو نفسه كما كان؟ أليس أفضل شيء هو مجرد الانتظار لنرى إذا ما حدث شيء؟ لا، هيج قالت لا.

لم يكن شغوفًا بقدر كبير الآن، كما كان الليلة السابقة بعد أن حياه الطائر.

إذا كانت هيج نوعًا مختلفًا من الأشخاص، ما كانت أرسلت به أبدًا في هذه الرحلة التي لا طائل من ورائها، إذا ما أدركت أنها لا ينبغي أن تفعل. لكن هيج لن تكون مختلفة أبدًا. ولا تحتاج إلى أن تكون بطريقة أو بأخرى.

مشى يتهادى.

وحالما خرج من الغابة، امتد أمامه تجمع كامل من المزارع. تقريبًا، يحمل لكل واحدة منها ذكرى محاولة فاشلة للعمل.

كان الطريق مزدحمًا بالفعل. وكالعادة كانت السيارات تدفع الناس إلى جانب الطريق. كانت الحواف رمادية من أثر الغبار المنثور في الهواء.

أحيانًا يمشي ماتيس على طول هذا الطريق حتى لو لم يكن يبحث عن عمل. وفي بعض الأحيان ترسله هيج إلى المتجر بنقود قليلة ليشتري طعامًا، أو بالسويتر الذي انتهت من صنعه. وكان العمل دائمًا محفوفًا بالمخاطرة، ربما تسير الأمور بصورة جيدة، لكن يمكن أن تنتهي أيضًا بالخزي والخجل.

كان الناس قد بدأوا للتو في التجول خلال المزارع لبدء يوم العمل. رآهم ماتيس كلهم من حوله. الوظائف الأولى في الصيف معظمها إزالة

الأعشاب. بدوا أقوياء وقادرين، شرعوا في العمل كما لو كان الأمر شيئًا طبيعيًّا مثل العيش والتنفس. البعض ينفثون الدخان من غليون صباحي، يستخدم الآخرون أفواههم في الصفير، والبعض الآخر كانوا فقط يؤرجحون أذرعهم.

هل ينبغي أن يذهب ويسأل مباشرة؟ هل يذهب إلى أقرب فناء مزرعة؟ لا، يستحسن ألا يفعل. سوف يشعرون فقط بالحرج لأنه يتعين عليهم أن يختلقوا عذرًا ما حول تعذر ذلك اليوم. غادر مزرعة بعد أخرى بهدوء. تخيل الناس يتنهدون ارتياحًا عندما يمشي مبتعدًا ويرون ظهره يختفي.

لكنهم لا يستطيعون أن يعيشوا حلمًا مثل الذي حَلُم به! هكذا كان يفكر، وهذا ما بعث فيه شعورًا بالفرحة.

لم يستطع أن يتذكر الكثير من الوقائع المحرجة، بعضها أسوأ من الآخر. عدد من الرجال الذين عبروا الطريق كانوا أناسًا من الذين حاول العمل معهم، وجعلته ذكرى هذا يثبت عينيه في الأرض. ومر به بالمثل معظم هؤلاء الذين قابلهم ـ كما لو كانت مقابلتهم الأخيرة معه شيئًا أراد كلاهما أن ينساها.

ولابد أن الأمر هو نفسه اليوم. تعرف هيج هذا جيدًا، وكذلك أنا. وفكر في أن يستدير ويرجع الآن. لا أستطيع أن أذهب إلى المزارع نفسها حيث يعرفني كل فرد بالفعل.

لكن الأمر الغريب، أنه بمجرد أن حدث وخطرت له الفكرة، فعل العكس تمامًا. ترك الطريق الرئيس، ومشى إلى فناء إحدى المزارع. ما الذي حدث له؟ ومضت ذكرى في ذهنه. تذكر حادثة صغيرة لم تنته

بإحراج، واقعة جرت في فناء هذه المزرعة بالفعل.

ربما وجد هناك شيئًا ما يدعمه اليوم أيضًا.

قابل ماتيس المزارع فقط عند ركن المنزل. كان واقفًا هناك مع شاب وفتاة، وكان كل منهم يمسك بمعول حقل خفيف. لم ينظر ماتيس إليهم حتى التف حولهم مقتربًا جدًّا منهم، ثم فجأة ظهر وجهه أمامهم، إن لم يكن من لا مكان.

«صباح الخير ـ هل توجد فرصة لوظيفة هنا؟» هكذ سأل على عجل، بينما ينظر بعينيه القلقتين يبحث عن المزارع. يجب أن يتجنب إعطاء نفسه وقتًا لأفكار ثانية. وعمل على أن يتقدم شيئًا فشيئًا في طريقه بحيث يجعل الفتى والفتاة خلفه.

ولدهشته، جاءت إجابة المزارع فورية؛ لم يأخذ وقتًا لتفكير ثانٍ أيضًا.

«نعم، إذا كنت تستطيع تفرق نبات اللفت».

فتح ماتيس فمه قليلًا، ثم ابتسم ابتسامة عريضة.

قال: «تماما كما اعتقدت، إذًا الأشياء اختلفت عما قبل، هكذا يجب أن تكون».

«ماذا تعني؟»

قال ماتيس: «أوه، مجرد شيء ما، شيء ما مختلف تمامًا بالنسبة لي اليوم. لكنه شيء لا تعرف عنه أي شيء».

تحركت الفتاة والفتى بحيث أصبحا الآن في مواجهة ماتيس. بدأوا

يتبادلون النظرات فقط بطريقة عرفها ماتيس جيدًا جدًّا، ولا تبشر بالخير له.

قال ماتيس بسرعة وبعصبية للمزارع: «الأمر يتعلق بطيران وودكوك».

«طيران وودكوك؟»

قال ماتيس، شاعرًا بالتحسن: «نعم، ألا تعرف ما الذي يعنيه هذا؟»

تذكر المزارع بدون شك الآن من الذي يقف أمامه، لكن الوقت قد فات، فهو بالتأكيد لن يتراجع في كلمته.

قال: «سمعت عن طيور وودكوك، لكنه هذا هو حقل اللفت الذي أردت أن تذهب إليه، أليس كذلك؟ من الأفضل أن نجد لك معولًا أيضًا ـ ثم نرى من هو الأسرع في التقطيع».

شعر المزارع أنه ينبغي عليه أن يضيف هذه الإشارة الأخيرة، ربما لم يستطع أن يوقف خروجها.

كان ماتيس حساسًا وشعر بالتأثير.

قال بضحكة خفيفة: «نعم، ربما نستطيع أن نرى من يركض أسرع أيضًا». تعمد غالبًا أن تبدو مثل مُزحة حقيقية.

اندهش المزارع قليلًا، لكنه سارع بالمشاركة في الضحك.

«أنت تقصد من يستطيع أن يصل إلى اللفت أولًا؟»

كانا يضحكان كلاهما، كل منهما يحاول أن يتفوق على الآخر.

سأل المزارع وهو يضع نهاية للمزاح: «لكنني أرى أنك ربما ترغب في القليل من الطعام قبل أن تبدأ؟»

هز ماتيس رأسه.

«نحن لدينا الكثير من الطعام في البيت، شكرًا».

من اللطيف أن يكون قادرًا على أن يقول مثل هذا، هكذا شعر.

الآن هو وقت العمل. أُعطي ماتيس المعول، ومشوا كلهم عبر حقل اللفت. فكر ماتيس أنه حقل كبير بشكل مرعب، أنت لا تستطيع أن ترى الطرف الآخر، فهو يمتد فوق تل ويختفي.

تحول ماتيس إلى المزارع وقال في لهجة ساخطة: «ما فائدة وجود الكثير من اللفت؟»

وقف هناك متجهمًا وضائعًا.

قال المزارع: «ماذا، بالفعل؟ حتى قبل أن نبدأ؟» بدت الكلمات لا معنى لها، لكنها كانت واضحة بما يكفي لدى ماتيس، ونكس رأسه.

قال مغيرًا الموضوع بعجلة: «هل سأفعل هذا». أشار إلى صفوف اللفت أمام قدميه فقط.

أومأ المزارع.

«أتصور أنك قد قمت بهذا النوع من العمل من قبل، ماتيس، لذلك أتوقع أن تعرف مقدار الحيز الذي تحتاج أن تتركه فيما بين النباتات التي تتركها لتنمو؟»

شعر المزارع دون شك أنه مُجبر أن يقول هذا، لأن التقليع كان وظيفة مهمة يمكنها أن تحدد الإنتاجية، ومكافأته هي من أجل عمله.

قال ماتيس: «كيف يمكن أبدًا أن أقترب من الأربعين بدون أن أعرف شيئًا مثل ذلك؟» وأضاف: «أنا فقط أقل بثلاث سنوات». في موقف مثل

هذا ينبغي أن تكون صارمًا. كان فخورًا تمامًا برده.

أجاب المزارع: «صحيح بما فيه الكفاية، لكنني سألت كم حيزًا تم إخبارك أن تتركها بين النباتات. ربما ترغب في أن تبينها لي؟»

وأشار ماتيس بشكل جزافي تمامًا.

قال المزارع: «لا، لابد وأنك تعلمت من شخص ما لا يعرف الكثير عن هذا. هذه هي الكيفية التي ينبغي فعلها».

مرة أخرى، طأطأ ماتيس رأسه.

تبادل الشاب والفتاة النظرات. لقد رتبا الأمر بحيث يستطيعان العمل جنبًا إلى جنب. وأُعطي ماتيس صفين بين الفتاة والمزارع نفسه، وهو ما أرضاه كثيرًا.

صاح الشاب: «واحد، اثنان، ثلاثة، انطلق! من سيصل أولًا الطرف الآخر؟»

نظر إلى الفتاة وضحك. أحبا أن يبتسما لبعضهما البعض، هذان الاثنان، وينظران في عيني أحدهما للآخر. لقد شعر ماتيس بالارتياب في اللحظة التي انتبه فيها.

لكنها كانت الآن ببساطة مسألة البدء. حاول ماتيس أن يقلد الآخرين، وأن يكون سريعًا تمامًا في حركاته. كانت هناك الأعشاب في كل مكان على جانبي الأخدود، وفيما بين اللفت على القمة. ينبغي الآن اقتلاعها وتركها تحت رحمة الشمس الحارقة. كانت نباتات اللفت أيضًا تقف متقاربة جدًّا مع بعضها، بحيث ينبغي اقتلاع الكثير منها. كان على ماتيس أن يعالج كل هذا بسرعة ودقة، كل منهما بالمعول، وحيث يكون من

الصعب الوصول إليها فبيديه.

كان عصبيًّا. لم يستطع ببساطة.

ربما سرعان ما تكون القصة القديمة نفسها، ستخرج أفكاره عن نطاق التحكم بينما هو يعمل، فتشوشه وتعوق قدرته على العمل.

وبمجرد أن فكر في هذا حدث ذلك؛ اضطربت أصابعه، وفعل عكس ما أراد، وتباطأ تفكيره. وعلى يساره تنحنح شخص ما من حنجرته. كان هو المزارع نفسه، ينحني فوق نبتاته من اللفت، يقتلعها بعناية محببة.

كان ماتيس في حمايته في الحال. بالطبع لا يعني هذا بالضرورة أي شيء. فالناس يتنحنحون أحيانًا بدون أي سبب على الإطلاق.

لكن ماتيس صار عصبيًّا أكثر وأكثر، وتخبطت أصابعه فيما بين النباتات، واقتلع النباتات الخطأ. لم يعمل المعول بشكل صحيح في يديه، كان متصلبًا جدًّا.

أخبر المزارع: «أنا لست معتادًا على هذا المعول، فيده طويلة جدًّا».

قال المزارع: «حسنًا، لن أزعجك به إذًا، يمكنك أن تستخدم فقط أصابعك بالمثل. يمكنك أن تؤدي العمل أفضل أيضًا باستخدام أصابعك».

قال ماتيس في لهجة مخلصة: «أنا سعيد بأنك قلت هذا». شعر بدعم ودود في كلمات المزارع، مساندة احتاجها ضد الشابين الصغيرين.

استمر مع الشاب والفتاة أيضًا لليادرات القليلة الأولى. فبعد كل شيء هو لديه عشرة أصابع يزيل العشب بهم. وكان الاثنان رائعين في المحافظة على السرعة نفسها. وكانا يستمتعان حتى ببعضهما على الرغم من العمل

القاسي. تيقن ماتيس منذ وقت مضى أنهما كانا حبيبين. كان ذلك مؤسفًا، لكنه ممتع بالمثل ومثير أن يراقبهما. لم يتذكر ماتيس أنه اقترب هكذا جدًّا من حبيبين من قبل.

نظرت الفتاة على ماتيس بعينين تملؤهما السعادة. لم يكن لديه ما يخشاه منها، فقد كانت نظرتها تحلق في سعادة بالحب الذي تشعر به للشاب إلى جانبها. ضحكت على كل شيء قاله. أخيرًا تحولت إلى ماتيس الذي كان ينتظر بقلق. شعر بمتعة لا يمكن أن تعبر عنها أية كلمات. الوجه المستدير الضاحك للفتاة يشع بالسعادة عليه.

قالت: «شيء جميل أنك أتيت، لنتعامل كلنا مع هذا الحقل الهائل». بدى أنها تعني هذا أيضًا. وكان ماتيس على استعداد أن يصدق كل كلمة قالتها. ليكتسب الثقة. صار أكثر جرأة. وفي جهد منه ليشكرها ويرضيها أخرج ورقته الرابحة، سألها: «هل سمعت من قبل عن طيران وودكوك؟». كانت الصفوف التي يقفان عليها متقاربة جدًّا من بعضها البعض إلى درجة أنه استطاع أن يقول ذلك بهدوء واثق.

ردت سريعًا بدون أن تفكر في الأمر: «بالطبع. ماذا في ذلك؟»

«أوه، لا شيء».

كانت الفكرة التي استغرقت ماتيس أكثر من أي شيء آخر: الآن أنا أتحدث إلى فتاة. وربما تكون هذه مجرد البداية.

لكنه استمر وشعر لمرة واحدة أنه فوق أرض آمنة: «لا أعتقد أن وودكوك يحلق مباشرة فوق منزلك أيضًا؟»

هزت الفتاة رأسها. في الوقت نفسه، كانت مشغولة بإزالة الأعشاب،

وتمزيق حفنة من نباتات قدم الأوز السميكة القوية، وقذفها بعيدًا لتذبل في الشمس الحارقة. كان ماتيس يعمل قدر استطاعته في الصف التالي لها. وفي الوقت نفسه يتحدثان.

«لا أعتقد أن وودكوك يحلق فوق منزلك أيضًا»، هكذا قالت ببراءة.

قال ماتيس: «من يعرف».

من داخله كان يمور بالانفعال.

«أوه، حسنًا، إذًا»، هكذا قالت الفتاة شاردة الذهن، تشتت انتباهها ما بين إزالة الأعشاب والشاب على الجانب الآخر منها.

بعد ذلك، لا شيء أكثر من ذلك قيل عنه. شعر ماتيس أنه نجح في أن يذكر هذا بكياسة. لقد أحب هذه الفتاة ـ لكن لديها صديقها إلى جانبها، لذلك لا يجب أن يتحدث إليها كثيرًا جدًّا. كان يعرف أن هناك قواعد دقيقة لمثل هذه الأشياء. فقط كلمة واحدة أو اثنتين، ثم يتوقف.

بدأ: «أنا...»، ثم فقد الاتصال معها. كان الشاب هناك الآن، يقرص فخذها العارية. في الحال ضاع ماتيس منها. بدا الأمر كما لو أنه لم يكن أحد على الإطلاق على هذا الجانب منها.

قال لنفسه: حسنًا، أفقت قليلًا من الحلم. لكن ربما بالمثل لم يأت هذا بجديد، فالأشياء هي كما كانت.

أسوأ ما في الأمر هو أن كل هذا التفكير كلفه وقتًا طويلًا. كان الشابان يتقدمان أمامه الآن. وقبل وقت طويل تقدما بعيدًا عنه، لذلك كان ما استطاع أن يراه هو ظهراهما. وبدأ ماتيس وتحول ناحية المزارع نفسه. وبعد ذلك أطلق بداية أخرى: المزارع كان يعمل في ثلاثة صفوف. في

البداية أخذ صفين، مثل الشابين.

بادره ماتيس: «كيف توصلت لعمل ثلاثة صفوف؟»

قال المزارع مترددًا: «حسنًا، من السهل علينا المحافظة معًا على مثل هذا ـ على الأقل تلك إحدى الطرق لفعل هذا»، هكذا قال وهو يقطع نبات قنب القراص الكثيف.

لم يفكر ماتيس في المسألة أكثر من ذلك، لكنه اقترب من المزارع، وقال هامسًا تقريبًا: «أظن أن الاثنين حبيبان. على الأقل يبدو الأمر كذلك».

أومأ المزارع برأسه.

«ربما أنت عرفت بالفعل؟»

قال المزارع: «نعم»، وفسر وهو يغمز إلى ماتيس: «ولهذا السبب جئت بهما معًا». خفض هو أيضًا من صوته: «إنهما أفضل من يفصلان اللفت، أتعرف، إنهما لا يلاحظان كيف أن العمل ممل وشاق. بالطبع الأمر مختلف بالنسبة لأناس مثلك ومثلي».

يا له من رجل حكيم! شعر ماتيس تقريبًا بالرعب من كونه بالقرب منه ـ على الرغم من أنه تأكد أن المزارع كان لطيفًا معه اليوم، فقد كان ودودًا تجاهه طوال الوقت. لا، لم يكن خائفًا، استطاع أن يتحدث إلى هذا الرجل، وفهم تمامًا أن العمل يمكن أن يبدو ثقيلًا ومملًّا.

قال: «نعم، نحن نعرف الآن ما الذي يشبهه بالفعل عمل مثل فصل اللفت».

أجاب المزارع بحزم: «ليس بعد، بالتأكيد لسنا متعبين بالفعل، أليس كذلك؟ ألم نبدأ الآن فقط تمامًا؟»

مرة أخرى تعين على ماتيس أن يخفض رأسه.

قال: «لا، بالطبع لا».

وعلى الرغم من أن المزارع كان يعمل على ثلاثة صفوف الآن، فقد كان يتقدم بسرعة إلى الأمام. ومن ثَمَّ غير مرة أخرى إلى اثنين ثانية، وهو ما كان الشيء الطبيعي. بعد ذلك لم يستغرق من الأمر طويلًا أن ينسحب على الفور بعيدًا عن ماتيس.

صاح ماتيس عاجزًا: «هل ستتركني في الخلف؟»

قال المزارع: «أخشى ألا تلحق، عليك فقط أن تتابع بأسرع ما تستطيع».

«لكنك ترى كيف أعمل جاهدًا».

قال المزارع وهو ينحني فوق نبات قدم الأوز: «همم».

وكان ماتيس وحيدًا. همم، كانت آخر شيء قاله المزارع. كيف يمكن أن يفهمها؟ أصبح ماتيس عصبيًّا مرة أخرى، الاضطراب المعتاد بين الأفكار والعمل يزداد. زحفت صفوفه من الخلف مثل ذيل ينمو أطول وأطول. ذيل كسول، هذا ما بدا أنه سمع الناس يطلقونه عليه. قال لنفسه: هذا ليس ذيلًا كسولًا، إنني فقط لا أستطيع أن أعمل بأسرع من هذا.

لكن هناك تعلق الذيل، وبالنسبة إلى شخص شديد الحساسية لهذه الأشياء مثل ماتيس، كان الخزي مؤلمًا بصورة واضحة. كانت صفوفه مغطاة بالأعشاب الخضراء اللامعة، لكن على الجانب الآخر تنبسط الصفوف البنية النظيفة مع خط منتظم من نباتات اللفت على طول الجزء العلوي.

لو كان فقط من الممكن أن يوقف الآخرين نوعًا ما بحيث لا يتأخر في الخلف. تسير الأشياء بصورة خاطئة جدًّا. كان المزارع رجلًا بمحرك، تفوق على الشابين الصغيرين، وسرعان ما سيصل الثلاثة إلى قمة التلال الصغيرة ويختفون إلى أسفل المنحدر على الجانب الآخر.

هناك ذهبوا.

تأخر ماتيس في الخلف. كان الأمر كما لو أنه يقف بمفرده في الحقل. وحيدًا، يتصبب عرقًا. الشمس حارقة، وقميصه يلتصق إلى ظهره بشكل غير مستحب. فكر في أن كل هذا اللفت مليء بما هو مثير للغثيان. ما فائدة هذا كله؟ كما لو أن اللفت هو الشيء الوحيد في العالم!

مضى وقت طويل منذ أن توقف عن الانحناء إلى أسفل، بدأ في الزحف إلى الأمام على ركبتيه. لن تنفذ أصابعه بالشكل الذي يُطلب منها، إنها تسيء فهم أفكاره، والآن ومرة أخرى أمسكت عن العمل بالكامل.

أدرك هو كل ذلك جيدًا من الخبرة الماضية، وقد توقعه. عمل بأقصى ما يستطيع، لكن أفكاره تدافعت في كل الاتجاهات. وبعد برهة لاحظ أنه ينتزع اللفت بدلًا من أوراق قدم الأوز. شرع في البدء، نهض على قدميه ووقف يرتجف.

أنا ذاهب...

لا، لا.

كان هناك الشابان عائدين من الجانب الآخر، كل منهما مشغول بصفين جديدين. وعندما ظهرا، رفعت البنت رأسها قليلًا، ولوحت بسرعة إلى ماتيس الذي وقف هناك عاجزًا وبائسًا. لا شيء سوى تلويحة مقتضبة فيما

بين نزع الأعشاب. لكن بالنسبة له، صنعت كل الفرق.

أقسم، سوف يكافئها على ذلك، بالتأكيد ليس هذا ضد القواعد. سيمران، أحدهما إلى جانب الآخر في خلال لحظة، ولديه الفرصة أن يخبرها، صديقة أو لا صديقة.

وفي لحظة أيضًا، فعلت يداه ما كان متوقعًا منهما. زحف إلى الأمام على ركبتيه، ينتزع الأعشاب في هذه المرة، وليس اللفت. والآن هما يتحركان، أحدهما صوب الآخر، بدا كما لو أن ماتيس قد اكتسب بعض السرعة بالفعل؛ تتضاءل المسافة فيما بينهما سريعًا. لكن ماتيس توقف تمامًا؛ كان غارقًا في التأمل في الفتى والفتاة.

كانا عاشقين حقيقيين، لم يكن هناك شك في ذلك.

لا غرابة في أن المزارع كان معجبًا بهما، يبتسم لهما من حين إلى آخر ابتسامة سريعة. فهما لم يستطيعا فقط أداء العمل الذي كان يفكر فيه ـ بل أدخلا البهجة على كل فرد في الحقل. كانا يضحكان ويثرثران ويعملان بشكل جيد طوال الوقت كذلك. ويحرصان بين الحين والآخر على أن يتعانقا بالفعل، ولاحظ ماتيس بدقة الكثير من الأشياء الصغيرة التي فعلاها حينئذ، أشياء ربما من المفيد أن تعرفها.

هذا ما كان يشبهه بالفعل العشاق الحقيقيون، حينئذ. كان المزارع المحظوظ يحتفظ بهما في الصفوف التي يقوم بها. كان بين ثلاثتهم وماتيس الآن البقعة الداكنة التي أُزيلت. انبسط أمامه الصفان قبيحين ومهملين.

لكن لم يستطع المساعدة: كان عليه أن يراقب هذا الفتى والفتاة المتألقين وينصت إلى حديثهما؛ ثرثراتهما الممتعة؛ عيناهما الغريبتان. كانا مواجهين له تمامًا الآن. الضحكة المتموجة تشق طريقها من خلال كل الكد والكدح.

نهض ماتيس على قدميه.

«مهما كنتما عاشقين كثيرًا، أريد أن...»، وبدأ ينظر محمومًا بشكل مباشر إلى الفتاة الجميلة. لكنه حينئذ أمسك عن الكلام.

انتظر الآخران في دهشة، كل من الفتاة والشاب. لم يكونا يضحكان أيضًا. وعلى الرغم من أنه لم يدرك، لكن ماتيس نفسه منع هذا من خلال الهيام على وجهه والوجد في صوته.

المزارع أيضًا، سرعان ما توقف حيث كان.

انتظروا دون جدوى. أخيرًا قال المزارع بصوت ناعم: «حسنًا، اذهب إذًا يا ماتيس».

لم تقل الفتاة شيئًا، ولا الفتى، كانا ينتظران كلاهما بقلق.

انتظروا كلهم دون جدوى. لم يضف ماتيس أي شيء أبدًا على ما بدأ قوله ـ لكن رغم ذلك بدا كما لو أنه عمل على أن يمهد لنوع معين من الاتصال وأنه لم يُترك بعد يصارع الكل بمفرده. كان هناك أكثر مما أراد أن يقوله، وبطريقة مختلفة، لكن كالعادة أفلت منه، اختلط بكل أنواع الأشياء الأخرى.

قال أخيرًا مواصلًا من حيث توقف: «لأنكما، أليس كذلك؟»

ردت الفتاة: «نعم، نحن هكذا».

اندفع بدون تفكير قبل أن يدرك ما يقوله: «نعم، هذا ما ينبغي أن يكون من أجلنا جميعًا».

قالت الفتاة وهي تومئ له إيماءة عارضة: «هذا يمكن تصحيحه بالتأكيد».

فكر، يمكنني أن أحكي حلمي إلى هذه الفتاة من البداية حتى النهاية.

تمتم محرجًا: «حسنًا، لا يوجد أزيد من هذا، أقصد لا شيء أكثر مما أردت أن أقوله».

قالت الفتاة: «شيء مؤسف».

قال الشاب يذكرهما أنه موجود كذلك، وأن هناك سباقًا يجري لإزالة الأعشاب: «دعينا نستمر في التقطيع».

خلفهم، كان المزارع المحظوظ الذي لديه هذان العاملان الرائعان، يقهقه. من الواضح أنه لم يأخذ في حسبانه أغاني تدليل الأطفال، لم يفعل أحد.

قالت الفتاة في ردها: «وهو كذلك، وهو كذلك، أستطيع أن أسمعك».

بينج، هكذا جاء رنين صوت هادئ يقول من داخل ماتيس، مباشرة إلى الشاب الذي تلقى موسيقى الراب هذه فوق مفاصل الأصابع.

بدأوا جميعًا العمل ثانية.

كانت حرارة الشمس تشتد أكثر وأكثر. في الصفوف الضعيفة، تُطرح النباتات المقتلعة، تذبل وتكتئب. تنبعث من التربة رائحة حميمة شهوانية.

نظر ماتيس خلفه على المُزارع. تعجب، هل يشعر بالتعب وخوار القوة؟ من غير المرجح تمامًا لرجل قوي رشيق. كان ماتيس مجهدًا وظمآن، وفقد من الآن التحكم في أصابعه. الفتاة قد أنعشت معنوياته الواهنة، لكنها غاصت مرة أخرى تحت ضغط الوظيفة التي لم يستطع أن يواكبها. والآن، ثلاثتهم يتحركون مبتعدين ثانية، هذه المرة خلفه، مما ترك المكان كله حزينًا مقفرًا. والآن مرة أخرى بالفعل اضطربت أفكاره ووجد نفسه ينتزع اللفت بدلًا من الأعشاب، وتوقف.

وبعد طول انتظار، وصل إلى أعلى، وكان عليه أن يعمل إلى أسفل من الجانب الآخر، وشعر حتى بوحدة أكثر. بدا أن الآخرين ذهبوا إلى الأفضل.

امتدت صفوفه الخضراء اللامعة مثل تحدي. أخذ يحفر حوله وهو يفكر: لابد على الأقل أن أكسب قوتي. بعد ذلك جلس لفترة. لا يستطيع أحد أن يراه، وأن التشوش الذي هو عليه يربك كل حركات يديه. إلى جانب أنه لذيذ أن تجلس حينما تكون متعبًا.

حينما رأى ثلاثتهم يظهرون فوق التل مرة أخرى بعد قليل، بدأ. بالفعل! بدأ متخبطًا، يتلف كمية من اللفت الجيد. لكن مازال من الجيد أن شخصًا ما قادم. كان بائسًا في مكانه على هذا الجانب من التل. لم يكن الفتى والفتاة يغردان برقة كما كانا من قبل، لكن بالطريقة نفسها. ولم يكن المزارع يبدو متعبًا. فحينما تتصدى لحقل كبير مثل هذا، أنت لا تتعب، أنت تستمر في العمل. فهو حتى لم ينظر.

صوت غريب جدًّا جعلهم يبدأون: كان هو ماتيس.

صرخ: «أرجوك توقف!». إنها صيحة تشق طريقها إلى الخارج.

استقام المزارع سريعًا، ماسحًا العرق عن جبينه بيد مغطاة بالتراب. كان بالتأكيد يعرق.

«ما الأمر، ماتيس؟»

كان ماتيس في حالة سيئة. على الرغم من أنه لم يكمل رحلة واحدة عبر الحقل، شعر أنه ينهار. رسم التراب شاربًا خفيفًا أسفل أنفه. ربما حدث الشيء نفسه للآخرين، لكن يبدو أن ذلك لم يؤثر عليهم. مشى ماتيس مترددًا إلى أعلى إلى المُزارع.

«ألا ترى أنني أصبحت متأخرًا في الخلف؟»

أجاب المزارع على مضض: «حسنًا، ماذا في ذلك؟»

«هل أنت مدرك؟»

قال المزارع رافضًا الموضوع: «نعم، نعم».

قال ماتيس بلهجة جادة: «أخشى أنني لا أحب عملًا معقدًا مثل هذا».

أجاب المزارع، وهو ينحني مباشرة فوق اللفت: «لا، لا أظن».

انجذب ماتيس إلى أن يسأل: هل تريدني أن أتوقف؟ لكنه لم يفعل. تمتم المزارع له بشيء ما. استغل الفتى والفتاة التوقف ليتبادلا قرصة أو اثنتين.

فجأة سأل المزارع مباشرة: «هل تريدنا أن نقوم بالعمل في صفوفك؟»

اندفعت سحابة رمادية أمام عينيه. شيء ما مألوف من حياته القديمة، بالشكل الذي كانت عليه قبل أن يصل وودكوك طائر الغابة.

أجاب بتصنع: «ليس بعد».

«وهو كذلك إذًا».

توقف المزارع فوق معوله.

بدأ ماتيس يمشي راجعًا إلى المكان الذي يعمل فيه، لكن في طريقه أعطى الفتاة نظرة، نظرة يتوسل إليها أن تفعل شيئًا يساعده ويواسيه ـ فبعد كل شيء هي صغيرة وسعيدة ولديها صديق.

وتنحنح كعلامة على أنه يحتاج المساعدة سريعًا.

وبدا أنها فهمت. ابتسمت له كما لو كانت تُذكِّره: ها هنا نحن، أنت وأنا، نلوح لبعضنا البعض في الحقل.

كان هذا كل ما احتاجه. وما كان أكثر، سمعها بوضوح تام حتى أنه صاغها في كلمات وكررها.

«نعم، ها نحن هنا، أنت وأنا، في الحقل»، هكذا قال فقط بحرارة ورقة، وليس في السر كما فعلت.

قالت الفتاة: «نعم، نحن هنا».

كان الأمر حقيقيًّا بالفعل. كانت واقفة تنظر إليه، محرجًا وعاجزًا برغم ذلك. كانت مشدوهة تمامًا.

«واحد اثنان ثلاثة، انطلق!»، هكذا قال الشاب وهو يقرصها في فخذها ـ بدا هذا أنه تسليته المفضلة ـ وفي الحال أصبحت الفتاة مستغرقة بالكامل مع صديقها مرة ثانية.

قال المزارع أيضًا: «نعم».

المُزارع مع الحقل الكبير. ألقوا نظرة سريعة عليه، وعرفوا ما يعنيه؛ بعيدًا نحن نمضي!

مرة أخرى تحرك ثلاثتهم سريعًا، تجاوزوا ماتيس. نظر من الجانب الآخر عليهم. بدا أن لديهم كل الأشياء التي يتوق إليها: الأشياء الثلاثة. هؤلاء الناس لم يكونوا شيئًا سوى الأشياء الثلاثة. كانوا مملوئين بها، ومع ذلك لم يفكروا فيها، لم يكونوا حتى منتبهين إليها، على قدر ما استطاع أن يرى. كيف استطاعوا أن يرحلوا بهدوء يفصلون حقل اللفت؟

رقد منبطحًا على بطنه، يقتلع الأشياء، أفكاره شاردة بضراوة. فكر، ساعدوني. لكن أفكاره حلقت على غير هدى، كما حدث من قبل. وعلى الرغم من أنه قصد اقتلاع الأعشاب، انتزع اللفت.

فكر، لا أحد يريد أن يساعدني، هذه هي المشكلة، وبدأت الألوان تتراقص أمام عيني.

أغضبته نباتات اللفت الثمين. أُلقيت هناك سقيمة كالخيط المنظوم حينما اقتلع الأشياء التي كانت تستند إليها. أراد ماتيس في غمرة بؤسه أن يصرخ فيها، أراد يناديها بالضعيفة الضئيلة الحزينة، لا تستحق أن تُلقى هنا من أجل شيء، تبعث الإحساس بالتعاسة. هامت أفكاره جيئة وذهابًا. هذا ما كان يحدث دائمًا حينما يحاول العمل ـ لم يتغير شيء. وهذا هو ما كان يزعجه بالفعل اليوم: لا تغيير، مجرد الروتين القديم نفسه.

شكرًا لطيبة القلب! هناك نداء من الآخرين على الجانب البعيد من التل. «ماتيس!»

إنه المزارع نفسه، الرجل الحكيم. الشخص الجميل والشخص القوي، لم يقل شيئًا، لكنهم كانوا هناك بالفعل. كل الأشياء الثلاثة كانت هناك.

صاح ماتيس سريعًا مثل البرق: «هل حان وقت الغداء؟»

صاح المزارع الذي كان مازال خارج نطاق الرؤية: «نعم، تعال على الفور». النداءات المحببة سُمع رنينها ذهابًا وإيابًا عبر التلال. كان ماتيس يتحرك بالفعل.

مازال لدى ماتيس جزء من أول صفين له تركه قبل أن ينتهي. فكر، لكن النهاية على الأقل باتت في المشهد، لذلك ربما كانت الأسوأ، شعر أنه أفضل قليلًا، فهو في طريقه إلى وجبة شهية.

لم يقل الآخرون شيئًا عن عمله الضعيف حينما لحق بهم ليتركوا الحقل. ولا كلمة وحيدة قيلت ـ لكن ماتيس كان متأكدًا من أنهم كانوا لا يفكرون في أي شيء غير ذلك. عبأ ذلك بداخله لفترة، لكنه في النهاية انفجر: «تستطيعون أن تقولوا ما تفكرون به مهما كان!» قال لهم هذا وهم يغسلون أياديهم المتسخة في الجدول.

سأل الشاب: «ما هذا الذي نفكر فيه إذًا؟» كانت المرة الأولى التي يتكلم فيها إلى ماتيس.

قال ماتيس الذي كان في حالة هياج عظيم وكان مجبرًا على أن يستمر في تعذيب نفسه: «أنا أعرف تمامًا».

قال المزارع: «أوه حسنًا، دعنا نعود إلى المنزل ونتناول شيئًا نأكله. نأخذ راحة قصيرة و...».

غسلوا أياديهم في الجدول الصغير الصافي الذي يتدفق بالقرب من حافة الحقل. غسلت الفتاة يديها في الحوض نفسه مثل ماتيس. بالنزول إلى الماء تعكر من الطين، تلامست يداهما للحظة خاطفة عندما غطساها. سرت رعشة إلى داخله. وبالتدريج اجتاح الماء الجاري الحوض والأيادي لينظفها ثانية. لكن الآن لم يجرؤ على الاقتراب منها.

نظرت الفتاة إليه، وهو لا وقت لديه للتفكير.

بادر بدون تفكير: «كان الأمر مثل لمس سور مكهرب».

فكر فيما بعد أنه أصاب إلى حد ما، لكن كل ما فعلته أنها ابتعدت. هل لم تكن تضحك بالتأكيد؟ كان فتاها يغسل يديه قريبًا أيضًا، وحينما انتهى وضع ذراعه حولها، كما لو كان هذا هو أكثر شيء طبيعي في العالم ـ وبهذه الطريقة سارا إلى المزرعة حيث كان الطعام ينتظر. ربما لم يكونا متعبين. فكر ماتيس في ذراع الشاب المنتفخ داخل قميصه ـ أغلب الظن أنه قد وضعه بالكامل حول خصرها. هكذا يتعين أن تكون الأمور.

«مرحبًا، ماتيس». كانت زوجة المزارع. رحبت بـ «ماتيس» ترحيبًا وديًّا. فكر، هناك شيء ما ليقال حول هذا بعد كل شيء. الوجبة الدسمة أشعرته بالتعب والخمول، لذلك رقد على العشب بالخارج. لم ير ما حدث من الفتى والفتاة. استغرق في النوم.

١١

حينما استيقظ ماتيس بعد أن استلقى نائمًا في شمس منتصف النهار، كان متلظيًا بكل معنى الكلمة. الشيء الأول الذي لاحظه حينما صفى ذهنه هو الصفوف الثلاثة لنباتات اللفت الممشطة في هذا الحقل الهائل. بعيدًا هناك على مسافة، كانوا واقفين فوق صفوف من اللفت. كانوا هناك منذ فترة طويلة، هذا واضح من العمل الذي تم إنجازه.

غادروا بدون أن يوقظوه. ربما كان العار هو أقل ما يستحقه. وبينما وقف هناك يحاول أن يواجه الموقف، خرجت زوجة المزارع من المنزل. مشت إليه، وقالت بدون تردد: «أنا من أخبرتهم ألا يوقظوك. أراد أن يهزك، لكنك كنت مستغرقًا في نوم عميق، رأيت أنه من الأفضل أن يدعك نائمًا. لقد ذهبوا منذ ساعتين».

تطلع ماتيس، لا يعرف ماذا يقول. كانت المرأة ودودة. والآن هو فهم لماذا ترك الطريق فجأة وأتى إلى هنا هذا الصباح. كانت ذكرى هذا الوجه مثبتة في ذهنه من مناسبة سابقة. لقد رآها من قبل.

«ربما لم تحظ بقسط وافر من النوم الليلة الماضية، أيضًا؟»، هكذا سألت المرأة وهي تقدم له عذرًا مقبولًا.

قال: «لا، لم أفعل، لم أنم لليلتين. هناك وودكوك طائر الغابة بدأ يحلق فوق منزلنا».

إن الطريقة التي تكلم بها جعلتها تبدأ، لكن فقط للحظة وجيزة، حتى تذكرت من هو الذي تتعامل معه. لم يغفل عن ملاحظة ذلك.

قالت بهدوء: «حسنًا ليس من المستغرب أبدًا في هذه الحالة أنك تحتاج أن تقتنص بعض الوقت للنوم. كيف بدأ التحليق إذًا؟» هكذا سألت بأناة.

أضاء وجه ماتيس.

«بدأ فقط في وقت متأخر ذات مساء. ومنذ ذلك الحين تنتابني أيضًا أحلام غريبة».

سألت المرأة التي كان لديها الكثير لتتساءل عنه: «هل لديك الآن؟ تظل الأحلام بالأحرى أشياء شخصية لا تفكر فيها، لذلك لن نناقشها».

كانت امرأة حكيمة، استطاع أن يدرك ذلك. نظر بقلق في اتجاه جامعي اللفت الذين يتصببون عرقًا في الحقل. فهمت المرأة ما كان يقلقه.

قالت: «الآن ما الذي تفضله، أن تلحق بالآخرين في الحقل أو تأتي معي للداخل وتتناول فنجانًا من القهوة؟»

قال منتعشًا: «أوه، أظن أنني أفضل تناول القهوة».

قالت المرأة: «أعتقد أنك وقعت على الاختيار الصواب».

قال ماتيس محاولًا أن يكون أمينًا: «لكن من اللطيف أيضًا مراقبة العاشقين».

«نعم، أنا متأكدة، لكننا سندع العاشقين يواصلان ذلك، لنقوم نحن ونشرب قهوتنا».

«حسنًا، إذا كان هذا على ما يرام».

فكر وهو يتبعها إلى المطبخ، هذا ما ينبغي أن تكون عليه النساء.

تناولا بعضًا من القهوة الجيدة. سألت المرأة عما كانت تفعله أخته.

«أوه، تشتغل في سويتراتها كالعادة، كما تعرفين». جلسا بعد ذلك في صمت. انتاب ماتيس تفكير مخيف عن هيج كان عليه أن يحتفظ به.

قال: «أنا أكول نهم أيضًا». لا ينبغي أن يكذب على المرأة. قال: «أنا آكل كل ما تكسبه».

لم تقل المرأة أي شيء. فقط استمرت تملأ له فنجانه.

قال: «الآن تتحول إلى المشيب أيضًا».

ظلت المرأة صامتة.

قال: «ليس من السهل أن يتسلل إليَّ».

حينئذ نهضت المرأة تقول بصوت تغلب عليه القسوة: «هلا أوقفت الحديث عن ذلك ماتيس».

أوقف الحديث عن ذلك؟ لكنه كان تواقًا للحديث عن نفسه ومشاكله. لا يحدث دائمًا أن تتاح لك الفرصة للجلوس وشرب قهوة جيدة وتفتح قلبك للنساء.

قال: «إذا لم أستطع، فمن المفترض أنني لا أستطيع».

كان صوته مرتعشًا.

وجدت المرأة عذرًا للذهاب إلى الغرفة التالية، بحيث يستطيع ماتيس أن يبقى بمفرده. حينما عادت، لم يستطع أن يتحرك؛ جلس محاصرًا بمشاكل محيرة، يلح عليه سؤال مهم. بدأ: «لكنني أستطيع أن أسألك عن

شيء ما، أليس كذلك؟»

أومأت، لكن بصورة غير مشجعة كثيرًا.

«نعم، تستطيع أن تسأل. لكن علينا أن ننظر ما إذا كنت سأجيب أم لا. إذا استطعت».

سأل ماتيس: «لماذا تكون الأشياء بالطريقة التي تكون عليها؟»

هزت المرأة رأسها. لا أكثر. لم يجرؤ على معاودة السؤال. انتظر بصبر. الصبر بكل مظاهره، لكن من داخله كان هلوعًا نافد الصبر. تحول إليها ثانية. مرة أخرى هزت رأسها.

قالت: «مزيد من القهوة؟»

فهم، ولكن حتى الآن لم يفعل. ارتعش. حملق إلى أسفل في هاوية من الألغاز.

قال مشيرًا إلى القهوة: «أنت تراهني».

استمر كما لو أنه يسأل سؤالًا: «لكن الآن الوودكوك هنا؟»

«نعم، هذا شيء لم يحدث أبدًا فوق منزلنا»، هكذا قالت المرأة بسرعة، سعيدة لأنها قادرة على أن تتحدث عن شيء مثل هذا. قالت: «الآن أنت تقيم هناك»، وتركته لبرهة وجيزة لتعطي الوقت لسؤاله المزعج أن يغرق مرة ثانية إلى الأعماق التي جاء منها.

مر الوقت وجلس ماتيس حيث كان.

قال للمرأة: «أراهن أنهم يتصببون عرقًا الآن».

كانت تجهز للوجبة القادمة، سرعان ما يحين وقتها.

«هل تظنين أنه ينبغي أن أذهب وأساعد؟»

قالت: «الوقت متأخر جدًّا الآن، سوف يأتون سريعًا. أرى أن تبقى فقط». استطاعت أن ترى أنه لا يعرف ما يفعله. «ربما حتى لا يريدونك أن تذهب هناك الآن».

كانت هناك نبرة سلطة في صوتها وفي تعبير وجهها. إن فكرة اجتماع الآخرين ملأت ماتيس بالفزع وجعلته يتلوى في مقعده. وبعد فترة خرجت المرأة إلى الفناء ونادت عليهم أن يعودوا. كم تمنى لو أنه بالخارج معهم يغسل يديه في الحوض الصغير.

هناك كانوا. الباب مفتوح. تحلقوا بالخارج قليلًا. ماتيس الذي لديه إحساس مفرط في السمع، يتصنت بقلق ليعرف ما إذا كان أحد منهم قال «سيمون العبيط». نعم، حدث ذلك. كان الفتى الشاب هو من قالها. ماتيس لم يسمع الباقي. دخل ثلاثتهم. جلس ماتيس مترقبًا. تحول بخجل إلى المزارع: «نويت أن آتي لأنهي ما تبقى لي من الصفين، لكني دُعيت إلى قهوة بدلًا من ذلك».

هز المُزارع رأسه باقتضاب. كان ظهره متعبًا، ولم يعد بعد ودودًا كما كان في الصباح.

أجاب: «نحن انتهينا من الجزء الخاص بك منذ فترة طويلة. لم يكن من الممكن أن نترك أشياء من هذا النوع».

مشى الحبيبان متجاوزين ماتيس كما لو أنه لم يكن موجودًا. ظهر أنهما محرجان.

«تعالى وتناول شيئًا تأكله ماتيس»، هكذا قال المُزارع متجاهلًا الأمر بالرغم من كل ما حدث.

أجاب ماتيس: «نعم، إنني جائع بالفعل». تأوه في الوقت نفسه من داخله.

كانا هما الشابين الحبيبين اللذين ساعداه على المائدة طوال الوقت. كانا صغيري السن جدًّا لدرجة أنه توقع منهما نظرات جانبية طويلة وابتسامات جارحة، لكنهما جلسا هادئين، ينظران إليه بطريقة ودودة. لا شك أن المرأة أخبرتهم كيف يتصرفون قبل أن يدخلوا. عرف هو هذا النوع من الأشياء التي حدثت مرات كثيرة. قال لنفسه، لا يهمني السبب في ذلك، وسرعان ما حول قلقه إلى شعور بالسرور.

ومع ذلك، كان الفتى والفتاة للأسف مرهقين جدًّا الآن حتى أنهما لم يعودا الحبيبين بالطريقة نفسها التي كانا عليها في أول اليوم. فكر، إنه عار حقيقي. شعر برغبة قوية في أن يتحدث للفتاة حول هذا، بينما جلسا الآن أمام بعضهما البعض يأكلان. أرسل بصره يتفحصها. امتدت يداها المغسولتان النديتان على المائدة. كان هناك شيء ما حميمي ومحبب يتعلق بها.

بدأ: «هل تشعرين بالتعب؟» قرر أن يخاطر. وبدون أن يدرك هذا، سألها برقة مثل أم، ونظر إليه في دهشة كل فرد حول المائدة. تحولت الفتاة إلى اللون الأحمر، ولم تستطع الإجابة.

قالت: «نعم» في همهمة سريعة بصوت منخفض، منجذبة نحو شيء ما شعرت أنه طيب وعطوف، عدته مدخلًا لها.

كانوا جميعًا منتظرين ماتيس أن يستمر، وهو قد فعل: «من المؤسف على ما أعتقد أن تكونا عاشقين بالفعل، حينما تكونان متعبين!». أحس أن الأشياء كانت تسير على نحو خطأ، وارتبك. لكن هذا هو ما قصده في النهاية.

استطاعوا جميعًا أن يضحكوا مستمتعين، واستمروا في الطعام مرة أخرى. تعين على ماتيس أن يضحك أيضًا. هل كان بارعًا في النهاية؟ ضحكته كانت مثل صهيل الحصان، وهذا ما جعل الآخرين يضحكون ربما أكثر. ثم خيم السكون، كما في أعقاب انفجار مفاجئ. ما هذا؟ لم يعرف أحد.

نهضوا من المائدة. انتهى العمل لهذا اليوم، وسأل المزارع الحبيبين أن يأتيا ويساعداه مرة أخرى في اليوم التالي.

أجابا، «أظن ذلك»، وغادرا. تابعهما ماتيس بنظرة طويلة من الخلف. من غير المحتمل أن يعود غدًا، لذا لن يكون قادرًا على أن يتمتع بمشاهدتهما.

أجبر نفسه على السؤال: «لا أظن أنك تريدني غدًا؟». فالأشياء التي جرت اليوم بدت سخيفة على وجه الإجمال.

شعر المزارع كذلك بعدم الارتياح قليلًا.

قال: «ليس في الأمر مشكلة عويصة، أليس كذلك؟». كان من الصعب أن يتجنب أن يقول غير ذلك. «ما رأيك أنت نفسك إذًا؟ لكن دعنا نسوي حساب اليوم على أية حال».

«لا! أنا لم أقم بأي عمل، أنت تعرف أني لم أفعل».

«أوه، لكن ينبغي أن تأخذ أجرك».

قال ماتيس بشكل محموم تقريبًا: «حسنًا، عن صفين إذًا، لكن ليس أكثر. انظر كم يستحق هذا».

كانت لحظة صعبة لكليهما. رأى ماتيس المرأة تنظر سريعًا إلى زوجها. قال المزارع: «وهو كذلك، سوف نتركها عند هذا إذًا. صفان. الآن نحن كلانا متفقان».

دفع المزارع ونطق ببضع من الكلمات المعتادة للشكر.

غمغم ماتيس إلى نفسه: «همم!».

«أي شيء أكثر؟».

«لا، كل شيء تمام».

همهم لنفسه، كله تمام.

بعثت هاتان الكلمتان المثيرتان للإعجاب بتوهج دافئ يتخلله. هكذا يتكلم الرجال إلى الرجال.

أخذ قبعته.

قال عند الباب: «حسنًا، كثير جدًّا عليَّ هذا». نظر المزارع وزوجته عليه مترددين قليلًا.

١٢

عند الرجوع إلى البيت، كانت هيج تجلس بالخارج تمارس عملها. لقد اختارت مكانًا يتيح لها نظرة على طول الممر من عند الطريق الرئيس. لمحها ماتيس في اللحظة التي دخلت فيها مجال الرؤية. فكر في أنها بدت ضئيلة مثل كرة صغيرة من الصوف.

بدت من حيث وقف شيئًا ضئيلًا. تجمعت. لا شيء على الإطلاق.

تساءل، ما الذي بداخلها. كانت شيئًا مدهشًا. ملأته بالاحترام. ربما تشبه بركانًا هناك، لكل ما عرفه.

ينبغي أن تكون هي الأصغر منه ـ كان سيراها بينما هي شيء قليل جدًّا بالغة الصغر حينئذ، ويكون قادرًا على أن يطعمها بالملعقة ويراقب الطعام وهو يتساقط من جانبي فمها. نعم، ينبغي أن يكون الطريق الآخر يدور كذلك حولنا تمامًا.

بدأت الظلال التي تلقيها الأشجار تطول أكثر. كان المساء يحل وتتزايد البرودة. جميل ومنعش أن تكون بالخارج في الحرارة وغليان النهار.

نهضت هيج عندما وصل.

حيته: «أظن أنك لم تأكل؟».

«بل بالتأكيد فعلت»، هكذا أجاب ماتيس بشكل قاطع، سعيدًا بأن يكون قادرًا على أن يخبرها بشيء قد فعله جيدًا اليوم. أضاف: «لا يوجد

نقص في الطعام حيث ذهبت».

بدأت هيج تسأله أين كان وما الذي فعله، أرادت أن تعرف كل شيء عن الكيفية التي قضى بها اليوم. ولم يكن هناك شيء بالنسبة لها إلا أن يخبرها.

«ومكثت في المزرعة حتى الآن».

«عرفت».

فقط لو كان قادرًا أن يضع أجر اليوم بأكمله ليساوي نصف سويتر منته.

قال سريعًا: «لكن الأشياء جرت كلها بأمانة، حصلت على الأجر في الموقع».

«ماذا أخذت إذًا؟».

كانت لا تحتمل في أشياء مثل هذه.

«النقود عن صفين بالطبع! على أية حال سارت الأمور بأمانة. وإلا كان الأمر كله خطأ».

قالت هيج: «فهمت».

«حسنًا، أنت تعرفين ما الذي يعنيه أن تكون الأشياء مكتملة مضبوطة، أليس كذلك؟ بكل هذه السويترات التي تصنعينها».

بدأ ينفعل ويرتعش صوته. ومضى مسرعًا يخبر هيج عن السويترات.

قال في النهاية: «وحينئذ سألت زوجة المزارع أسئلة لم تستطع مجرد الإجابة».

قالت هيج متوترة: «مرة أخرى؟ مزيد من الأسئلة؟»

قال ماتيس: «نعم، هذه الطريقة التي كانت عليها».

قالت أخته بقسوة: «لا فرق، يومًا ما سيتعين عليك أن توقف هذا».

«لماذا؟»

قالت هيج بمرارة: «لمجرد أن هذا سخيف».

جفل ولم يقل شيئًا. لم يذكر ما الذي سألت عنه زوجة المزارع. هيج عرفت بالفعل.

لكن مؤخرًا في هذا المساء، قالت هيج: إنها سوف تأتي وترى طائره وودكوك. اعتبر هذه هي طريقتها في مكافأته عن يوم مزعج وصعب قضاه يعمل. توصل إلى أن يعتبر الوودكوك تقريبًا هو إبداعه الخاص. تبعته هيج إلى الخارج.

قال: «أمر جيد أن تعودي إلى صوابك». بالخارج خيم السكون تمامًا، الجو المناسب. نظر ماتيس بفارغ الصبر في كل اتجاه وأصغى مفعمًا بالتوقعات.

جاء الطائر، حاملًا معه كل هذه الأشياء التي لا تستطيع الكلمات أن تعبر عنها. شعر به أيضًا. وميض، لمسة الجناح بداخلك، ثم ذهب مرة أخرى.

لم تقل هيج أي شيء، لكن موقفها بدا على الأقل ودودًا. قال ماتيس، منفعلًا من أعماقه: «وهو يأتي ثانية وثانية».

قالت هيج: إنهما الآن يمكنهما الذهاب إلى النوم، لكنه متأكد من أنها

كانت متأثرة.

وضع يده على ذراعها. أراد أن يخبرها أن المنزل مختلف الآن، كان بشكل ما أفضل من المنازل الأخرى، فقد تحول. كان من المستحيل أن يشرح ما الذي يعنيه، لكن على الأقل استطاع أن يضع يده على ذراعها.

كان كل ما قاله: «الآن قد رأيته». وبدون إرادته، جعل الأمر يبدو كما لو أنه قد امتلك الطائر. قالت هيج، وقد نسيت نفسها: «حسنًا، ليس أنت من أحضرته، أليس كذلك؟ أي فرد سيظن ذلك، من الطريقة التي تتحدث بها».

لطمة على الوجه. حملق فيها مرتعبًا. قول هذا النوع من الأشياء في لحظة مثل هذه. حينئذ تدفق الغضب من داخله.

«أي نوع من الأشخاص أنت! دائمًا تفسدين الأشياء!».

«اسكت الآن».

لم يكن ليسكت، نظر حوله على شيء ما يمكن أن يستخدمه ضدها. كان الشيء الأول الذي وقعت عليه عيناه شجرتي الحور الرجراج الذابلتين. نسي كل الوعود التي قطعها في السابق بالسلوك الجيد، أشار إلى الشجرتين: «أترين هاتين؟ سوف أخبرك بشيء: إنهما تسميان على اسمينا. الناس لا يطلقون عليهما أي شيء آخر! الآن أنت تعرفين. ليس فقط اسمي الذي يُستخدم، اسمك كذلك».

توقع أن يرى هيج تُصعق. لكن لا شيء قد حدث. قالت ببساطة، وهي متماسكة تمامًا: «أوه، كذلك أنت تعرف عن هذا؟».

حملق.

قالت، وهي تربت على ذراعه: «كنت أظن أنني الوحيدة التي أعرف به».

وقفت هناك، أكثر شخص متغطرس عرفه أبدًا. انتابها تغير مفاجئ. تحدثت عن الشجرتين الذابلتين: «ما الضرر الذي تسببانه لنا؟ لا شيء على الإطلاق. لعبة صبيانية حمقاء، هذه هي. مجرد سخافة طفولية».

هي تنامت قامتها. ونما ماتيس لأنه كان واقفًا بالقرب منها، وكان أخاها، ولأن واحدة من قمتي الشجرتين الذابلتين كانت له، ولم تسبب له أذى.

رغم ذلك، لم يستطع أن يتفق معها بالكامل. كان من السهل عليها أن تقول أشياءً مثل تلك. لكن كان من المريح أن ينصت لها، ومنحته رؤيتها القوة. نظرت مباشرة إلى عينيه، وقالت بصوت حازم: «والآن، لن نذكر ذلك ثانية. دع الشجرتين تبقيا هناك بقدر ما تحبان. هذا شيء لا يخصنا».

قال ماتيس: «حسنًا، هذا إذا كانت هذه هي الكيفية التي تشعرين بها». لم يكن هناك المزيد ليقوله.

١٣

قالت هيج بعد يومين:

«ماتيس، أعتقد أنه ينبغي أن تحاول الآن مرة ثانية»

بدا كما لو أنه أمر في الغالب.

«أخرج وأعمل؟»

«أسأل عن عمل على الأقل. أرى أنك تصرفت بشكل جيد المرة الأخيرة».

أجاب: «الأشياء بسبيلها أن تختلف الآن»، ولم يظهر أي علامة على طاعتها.

قالت هيج بحدة: «حسنًا، ألا تستطيع أن تذهب إلى مكان ما، وإلا ستظل تنتظر ذلك أن يحدث».

الوقت مبكر، وبدا أنه سيكون يومًا رائعًا. جلس ماتيس على الشاطئ لمدة يومين، يلقي الحجارة ويفكر. رمى قليلًا، ومارس بعض الصيد بدون أن يصطاد أي شيء كالمعتاد. كل ما أرادته هيج بالفعل هو أن تتجنب رؤيته يجلس هناك يلقي بهذه الأحجار السخيفة مرة تلو أخرى. لم يكن بسبب العمل ـ هذا لن يؤدي إلى أي شيء.

اللهجة الحادة في صوتها حسمت القضية.

توسل إليها: «لكن ليس ترقيق اللفت!».

قالت هيج بدون أن تبدي رحمة: «لا يهمني، أنت تعرف، طالما أنك ستأتي ببعض النقود.

قال ماتيس: «هذا يعتمد على أفكاري، هم يقررون في النهاية». وسمح لنفسه أن يضيف: «يا إلهي، أنت قاسية بالفعل».

قالت هيج: «أوه، أنا واثقة أن الأمور ستسير على خير ما يرام. فهناك الكثير من الوظائف الصغيرة في هذه الناحية لأي شخص مستعد للقيام بها».

كم كانت عنيدة من أجل التخلص منه. كانت أكثر عنادًا من ذي قبل،

نافدة الصبر أكثر، هكذا قال لنفسه، وهو يهيل الاتهامات الصامتة فوقها.

إلى أين سيذهب؟ لقد بدأ الرحلة كما أخبرته هيج. المزرعة التي كان فيها آخر مرة ليست موضع جدال، لقد انتهى الأمر هناك على خير. لا شك في أنهم مازالوا على النوعية نفسها من العمل أيضًا. وجنح ناحيتهم. نعم، ها هم كانوا ثلاثتهم. فقط خرجوا إلى الحقل الضخم. مازال متبقيًا لديهم القليل للقيام به. بدا غريبًا بوجه عام أن يمشي متجاوزًا الطريق متوجهًا إليهم، فهو قد عرفهم جيدًا منذ ذلك اليوم وشاركهم الكثير من الخبرات. بدا العاشقان مفعمين ببهجة الصباح.

هل كانوا ينظرون إليه على الطريق؟

لا.

تضرع أن تأتيه تلويحة خفيفة. سيكون شيئًا يتعلق به لسنوات قادمة. الفتاة بالطبع. لم يرغب أن يلوح له الرجال، سوف يربكونه. لكن الفتاة. لا، يبدو أنها لا تلاحظ شيئًا فيما عدا القرص.

وعلى مسافة قريبة جلست بنتان صغيرتان على العشب إلى أعلى الطريق تمامًا. جلستا في أمان على الجانب الآخر من السياج مع لعبهما، تثرثران وتلعبان بالدمى، صغيرتان إلى حد البراءة. كانتا مشغولتين باللهو مع بعضهما البعض، لكن مع ذلك وجدت إحداهما وقتًا أن تسأل، وقد استقرت عيناها الزرقاوان عليه بصوت مفعم بالأغنية: «من أين جئت، يا سيمون العبيط؟»

سؤال مفعم بالأغنية وليس بالشغف، يُسأل من أجل السؤال. بالطبع الأطفال يعرفون جيرانهم القريبين الذين يسكنون بالقرب من الطريق مثلهم. لذلك كان مشهد ماتيس مألوفًا لهم.

قال لنفسه: خذ الأمر بهدوء الآن، إنهما طفلتان لا تعرفان ماذا تقولان.

أجاب: «لا خصوصية في أي مكان».

لم تسألا أسئلة أخرى، لم يفرق الأمر معهما أدنى فرق حينما مضى.

في الوقت نفسه، أسرع بالابتعاد عنهم. ومن خلال بعض السيارات اللامعة المندفعة التي تمر به، استعاد شجاعته. كان من السهل أن تقابل سيارات أنت لا تعرفها. فلا أحد من الجالسين داخلها يعرف أنه سيمون العبيط. نظر مباشرة إلى الناس الجالسين بالداخل ـ ربما يظنون أنه حكيم مثلما كانوا.

مر بمزرعة تلو الأخرى. من المفترض أنه بدأ العمل الآن. لكن حينما وصل إلى إحدى البوابات، توقف ليرى كيف تشعر ساقاه: لديه اختبار قد اخترعه في مناسبة سابقة حينما كان في المأزق العاجز نفسه.

«إذا كنتما تريدان أن تواصلا، أنا متأكد أنني سوف أشعر برعشة»، هكذا قال لساقيه، وانتظر.

لا، لا توجد رعشة في اتجاه هذه المزرعة، ساقاه بهما إحساس أكثر. حاول مرة تلو أخرى هذا الصباح، مع النتيجة السلبية نفسها عند كل بوابة جديدة.

لكنني أتساءل ما الذي ستقوله هيج عن استمراري هكذا؟

الحقيقة هي أن هيج لا تعرف شيئًا عن اختبار الساق. إنه سر. كانت بطيئة في تقبلها لأشياء مثل هذه.

في النهاية وصل إلى المتجر ـ وهذا ما كان بالفعل في ذهنه طوال الوقت. لم تكن هناك حاجة إلى إجراء الاختبار أيضًا، لأن المتجر يقع على الطريق مباشرة، مثل فخ منصوب لكل شخص ليقع فيه. أيضًا هو قريب للبحيرة من خلال نوع من الجسور. من الداخل، يمكنك أن تحصل على الحلوى المسلوقة. ماتيس مغرم بالحلوى المسلوقة. كما أن صاحب المتجر لا يسخر منه أبدًا حينما يعجز عن التصرف.

يعرف ماتيس أنه لا يوجد أحد في المتجر في هذا الوقت من النهار، فقط بضعة أشخاص من راكبي الدراجات، شباب يقضون إجازتهم بالشورتات، يشربون عصير الليمون. عرف ماتيس أنه لا ينبغي أن يحدق فيهم طويلًا. أجبر نفسه على أن يتوقف. وبحث في جيبه عن نقود، ووجد الخمسين «أور» التي يعرف أنها موجودة.

«كيس من الحلويات المسلوقة»، هكذ قال، كما لو أنه شيء ما يفعله عدة مرات في الأسبوع.

سأل صاحب المتجر بشكل روتيني: «حبات الكافور؟»

عرف صاحب المتجر عاداته. من الجميل أن ينصت الغرباء في المتجر. كان ماتيس ممتنًّا من أجل هذا الحوار المقتضب الآمن.

قال: «نعم، المعتاد». على أية حال تلقى اليوم نوعًا من الأسئلة أكثر أهمية.

سأل: «هل تعرف كيف يمكن لوودكوك طائر الغابة أن يغير مساره ويذهب مباشرة إلى منزل لم يأته من قبل؟». كان سؤالًا معقدًا حفظه عن ظهر قلب على الطريق.

قال صاحب المتجر: «طيور وودكوك لا تغير مسارها، أليس كذلك؟ وإذا رأيت أحدها يحلق في مكان جديد، حينئذ الأكثر احتمالًا على ما أظن هو أن يكون آخر طيور السنة من الصغار الذين يبدأون تحليقهم».

وبينما كان صاحب المتجر يتحدث، أخرج من العلبة الصفيحية حبات حلوى الكافور بمغرفة صغيرة. متوردة صفراء لذيذة مملوءة من جانبيها من العلبة.

قال ماتيس مكتئبًا: «أتظن ذلك؟»

«لا شيء خطأ في ذلك، أليس كذلك؟ إذًا هذا شيء رأيته مؤخرًا بالفعل؟»

«أوه لا، ليس بالطريقة التي تقصدها، لا أظن. لا يوجد شيء خاص فيما تقوله. لا يمكنك أن تستبعد الأشياء لتكون أقل أهمية مما هي عليه، بينما هي مهمة بالفعل!».

تناول أولى حبات الحلوى المسلوقة.

حينئذ، قال واحد من راكبي الدراجات:

«اللعنة، انظر إلى هذه السحب! ستجتاحنا عاصفة بعد قليل، هذا مؤكد».

شرع ماتيس وابتلع تقريبًا حبة الحلوى. استطاع أن يرى أيضًا وهو ينظر من النافذة الركام الداكن من السحب وهو يتسلق فوق التلال. الشمس

مازالت ساطعة.

سأل مرتعبًا: «هل ستكون هناك عاصفة رعدية؟». كانت كلماته موجهة مباشرة إلى راكب الدراجة الذي وقف محمرًّا كثيف الشعر.

نظر إليه الغريب مندهشًا قليلًا، لكنه أجاب بمرارة متحدثًا إلى رفيقته الجميلة بدلًا من ماتيس: «نعم، عاصفة رعدية هائلة. ونحن نتطلع إلى رحلة لطيفة».

لم يعد شيء في المتجر يجذب اهتمام ماتيس. ستكون هناك عاصفة رعدية، البيت، كان البيت هو التفكير الوحيد في رأسه. مخبؤه البعيد، هذا هو المكان الذي يجب أن يذهب إليه.

اندفع خارجًا من المتجر. سمع من خلال الباب نصف المفتوح صاحب المحل يقول شيئًا عنه ردًّا على سؤال من راكب الدراجة. مرة أخرى، شخص ما قد أخطأ في الحكم على أذنيه الحادتين. هو الذي يستطيع أن يسمع من خلال الجدران ومن مسافات أكبر بكثير من أي شخص آخر ـ مع كل ممارسته في سماع الأشياء التي لم يكن من المفترض أن يسمعها.

كان صاحب المتجر يقول بالداخل: «إنه أبله قليلًا».

صاحب المتجر أيضًا. لن يصدق ماتيس هذا أبدًا. لكن لماذا لا؟ تعين عليه أن يسأل نفسه في الحال. هو فقط يقول الحقيقة. هو أبله قليلًا. وهو كذلك. وبعد لحظة سمع: «لكن له أخت شجاعة، فهي التي تحافظ على استمرار الأشياء».

لحسن الحظ، أُغلق الباب بقوة، لذلك تجنب باقي المناقشة. ربما كان هذا كل ما قالاه. هذا الزميل لا يقوم بأي عمل، ربما قالا هذا أيضًا.

حسنًا، في الوقت الحالي طغى على كل ذلك سحابة سوداء وخوفه من العاصفة الرعدية. الشيء المهم الآن أن يعود إلى المنزل تحت الغطاء في مكان آمن. أسرع إلى الخارج بأسرع ما يستطيع، أحكم قبضته على كيس الحلوى في يده. مازالت الشمس ساطعة بشكل مكثف، كما كانت تفعل قبل عاصفة.

خلفه تمامًا صرخت سيارة بغضب، وقذف بنفسه إلى جانب الطريق مثل بؤجة من الخرق. لابد وأن السيارة توقفت بقوة، وحينما مضت تنزلق لتتجاوزه، قال أحد الأشخاص من خلال النافذة المفتوحة: «لا تمش في منتصف الطريق، أنت أيها الأحمق الملعون!».

كان صوتًا غاضبًا ومرعوبًا. رأى ماتيس زوجًا من العيون الغاضبة تنظر إليه من النافذة. غريبة بالكامل.

قال صوت مرتعش من النافذة: «كنت على حافة الهاوية، كان يمكن أن تلقى مصرعك بالطريقة الخرقاء التي كنت عليها». ثم أغلقت النافذة وأطلقت السيارة وابلًا من العوادم السامة على ماتيس، وهي تنطلق مسرعة.

ترنح ماتيس مبتلعًا جرعات عظيمة من العادم، ملتصقًا عن قرب إلى جانب الطريق. أدرك أن الرجل ربما يقول الشيء نفسه تمامًا لأي شخص. صاح بخوف. كان غريبًا، ولم تكن لديه فكرة من الذي كان يتحدث إليه. قال ماتيس ذلك لنفسه مرة تلو أخرى، وعندما فعل هذا، أدرك فجأة أنه كان محميًّا من مئات الملايين من الناس الذين لا يعرفون شيئًا عنه. كما لو أن ضبابًا حميميًّا مزروعًا بينهم وبينه. كانت فكرة مريحة: أعداد لا حصر

لها من الناس ليست لديها فكرة عن أنه أبله.

لكنه الآن يركض ليقهر العاصفة الرعدية. لقد رأى أنواعًا مختلفة كثيرة من العواصف الرعدية. بعضها يأتي فجأة، بعضها الآخر يستغرق وقتًا، تدمدم فترة كافية قبل أن تصير خطرة. البعض منها يبقى على بعد طوال الوقت، فهي تضرب في مكان ما آخر. ليست هناك قواعد ثابتة. تُقبل السحب اليوم ببطء أكثر. شعر ماتيس بأنه متأكد تقريبًا من أنه سيصل المنزل في التوقيت الصحيح.

لم يلمح الطفل الذي نادى عليه سابقًا في أي مكان. لكن الثلاثة في الحقل مازالوا مستمرين في الحفر.

هل ستلوح؟

لا.

لابد أنها متعبة.

لكنني لن أفكر في ذلك. ستأتي عاصفة حالًا، ولا ينبغي لك إذًا أن تفكر في هذا النوع من الأشياء. لا تشعر حتى كأنك تفكر في هذا. هذه هي الطريقة مع الرعد.

وعلى حين غرة اصطدم برجل عرفه بشكل مبهم. على الأقل اعتاد أن يتحدث إليه حينما يتقابلان، وشعر بالراحة التامة معه. رفع الرجل يده، كما لو كان ماتيس حافلة، أراد الرجل أن يوقفها.

«انتظر لحظة! أنت في عجلة قليلًا، ألست أنت ماتيس؟»

قال ماتيس بخطورة: «حسنًا، أنت ترى العاصفة، ألا تراها؟»

«أية عاصفة؟»

«إن عاصفة رعدية قادمة حالًا، ألا ترى؟ فالبيت هو أفضل مكان إذًا».

بدا أن الرجل يعرف كيف يشعر ماتيس تجاه الرعد. نظر إلى أعلى على السحب: «لا أظن أنك بحاجة إلى القلق. هذه ليست سحبًا رعدية، إنها تتفرق بالفعل، انظر!».

هز ماتيس رأسه ورفض أن يصدق. ربما قال ذلك ليخفف عنه. عاصفة رعدية هائلة، هذا ما قاله راكب الدراجة في المتجر، وهذا دون شك الأقرب إلى الحقيقة.

«ماذا قلت أنا؟ انظر هناك ماتيس!».

وفي المكان الذي وقفا فيه تمامًا، ارتفعت السحب، وظهرت رقعة من السماء الزرقاء فوق حافة الجبال. لقد تلاشى التهديد الكلي للرعد، لم تعد هناك بعد غيوم عاصفة. كانت توجد سماء زرقاء رائعة تحتها تمامًا.

قال الرجل: «لذلك تجد أنها فقط سحب خفيفة، وهذا يعني طقسًا لطيفًا؛ إنها تتلاشى كلها الآن».

جذب ماتيس تنهيدة ارتياح طويلة. قال، وهو يفيض بالامتنان: «مثل الحلوى؟».

ومضى الرجل في طريقه، يمتص الحلوى الصفراء. عاد ماتيس إلى المشي بخطوته المعتادة. تأخر الوقت من النهار حتى أنه قرر أنه لا يبدو من المناسب البحث عن عمل الآن. لم يكن سعيدًا بالمرة من احتمال أن يعود إلى البيت إلى هيج ويقدم حسابًا عن محاولاته للحصول على عمل. فبمجرد أن زال تهديد الرعد، عليه أن يواجه الضمير القديم المألوف العنيد.

كان إلى جوار الممر المؤدي إلى بيتهم الصغير. ارتفعت قمتا الشجرتين الذابلتين في الهواء. لم ينظر حتى نحوهما.

لا، هو لم ينظر إليهما أبدًا. حدث شيء غير عادي جعله ينسى كل شيء. وهو يعبر الممر ـ ما هذا الذي رآه:

طائر.

كان هناك طائر براق يقف مباشرة في منتصف الممر.

طائر غير مألوف. ارتفعت رأسه عالية وتحولت تجاه ماتيس الذي كان قادمًا على الممر.

فكر مبهوتًا، ما هذا؟

شعر بغربة وفراغ من داخله. وقف متجمدًا والطائر وقف متجمدًا. ما هذا الذي أراه؟

وقف الطائر هناك، لكنه لم يستطع أن يبقى أطول من هذا فقد رآه ـ فطار. وبجناحين صامتين اختفى فيما بين الأشجار. لم يكن وودكوك طائر الغابة، كان طائرًا أكبر ومختلفًا تمامًا عن الوودكوك. وما الذي يفعله هنا؟

فكر، ما الذي يحدث؟ أي شيء المسألة مع هيج! كانت هي الشيء الوحيد الذي استطاع أن يفكر فيه. ركض عبر الممر ليجدها.

لا. سرعان ما وقع بصره على هيج، في المكان الذي اعتادت أن تجلس فيه تنتظره حينما يذهب إلى مكان ما. كانت مثل صرة ملقاة على الدرج. تتحرك أصابعها بنشاط. شعر بذلك أكثر مما رآه بالفعل من حيث كان.

ذهب ماتيس إليها، قال وعيناه متسعتان: «من الذي هناك؟»

ألقت عليه نظرة سريعة، لم تفهم.

«ماذا بك؟»

انفجر: «هناك طائر غريب هناك».

مضت تعمل ثانية. كان كما لو أنه أراد أن يوقف إبر الحياكة هذه، فقط لفترة قصيرة؛ قال وهو منفعل للغاية: «رأيت طائرًا كبيرًا رائعًا! كان يتجول على الممر هنا». ردت بالأحرى باقتضاب: «بالفعل». والشيء نفسه لم تكن نغمة صوتها فظة كالعادة. لابد أن هناك شيئًا في صوته أخبرها كم كان الطائر جميلًا. وهذا لأن شخصًا ما في منزلهما كان جميلًا. وتلى ذلك صمت. وقفة غير مُتوقَّعة. شيء ما ليس له اسم.

شرح ماتيس:

«لقد طار تقريبًا قبل أن تتاح لي الفرصة لأراه».

فكر، لن يمر وقت طويل في انتظاره الآن، فالسؤال الملح، لماذا عاد مبكرًا مثل هذا بينما من المفترض أن يكون في العمل. من الأفضل الحسم فهذا الجَمل وهذا الجَمَّال.

«ها أنا عدت إلى البيت، لا يبدو أنه يوجد أي عمل. كنت أعرف على أية حال. وقال شخص ما إنه ستكون هناك عاصفة رعدية كذلك. لكن هذا لم يغير من الأمر شيئًا».

قالت هيج: «لا».

قال: لكن الفتاة التي أعرفها لوحت لي». من حين إلى آخر يترجم أمنيته إلى واقع.

قالت هيج: «بالفعل».

لم تكن غاضبة، كانت منفعلة. انعكس الطائر جميلًا جدًّا في وجهها.

١٤

فكر في الصباح، مفعمًا بالعاطفة.

اليوم، إنه أنا وطائر وودكوك.

لم يستطع أن يفسر كيف. ولا هو احتاج أي تفسير. في نهاية الأمر، كانت هناك خطوط في الهواء فوق المنزل ـ خلفها طيران وودكوك بينما كان نائمًا الليلة الماضية وكل ليلة الآن. بدت شريرة في الغالب لينام.

وكلما فكر ماتيس في طائر وودكوك، تأكد شعوره أكثر بأن شيئًا جيدًا سيحدث. شيء مختلف. لهذا السبب كان وودكوك يحلق هنا صباحًا ومساءً، لكن دائمًا في الوقت الذي يكون الناس فيه داخل منازلهم.

شعر أن هذا يبعث إحساسًا طيبًا. يستطيع هو نفسه أن يمضي إلى الخارج ويجلس هناك يراقب، يتتبع الطيران من خلال الهواء كما كان يحب في الغالب. إنه طائر وودكوك وهو.

اليوم هو يوم جديد مع الطائر.

كان ماتيس مشبعًا بطائر وودكوك. لم يستطع أن يقاوم إخبار هيج عن ذلك مرة أخرى وأخرى. كانت هيج متعبة، لكنه شعر أنه يستطيع أن يحرف كلماته، بحيث لا تدرك ما الذي كان يتحدث عنه، وفي النهاية يجد مخرجًا لمشاعره.

في وقت مبكر من الصباح، وبينما كانت هيج تُعد له إفطاره، قال لها: «إنها تذهب وتعود معي الآن».

سألت بصبر: «ماذا تقصد؟»

«مثل هذا»

بأصبعه رسم خطوطًا في الهواء فوق رأسه، في الاتجاه نفسه كما كان طائر وودكوك يطير.

كانت هيج بالفعل مشغولة بمهمتها القادمة. دائمًا على وشك أن تبدأ. ربما أحب ماتيس كثيرًا أن يشركها في الأشياء التي كان يفكر فيها ويشعر بها في ذات اللحظة، لكن هيج كانت عمياء عاجزة عن أن تراه.

«انتظري هيج، هناك الكثير تمامًا الآن».

قالت: «حسنًا، أسرع إذًا».

«ما أقل ما تعرفينه عن الأشياء».

قال هذا بطريقة ودودة نصف خائفة؛ بعد كل شيء، هو كان يتحدث إلى واحدة من الأذكياء.

أجابت هيج: «نعم، لذلك أنت تقول».

قال: «خطوط هنا وهناك».

قال: «وبينما أنت نائمة».

قال، مطوقًا الأمر كله: «كل ليلة مفردة».

نظرت إليه باعتبارها راشدة الآن، وقالت شيئًا ما: «أنت محظوظ برؤية الأشياء بالطريقة التي تراها بها. أستطيع أن أخبرك أنني لا أفعل».

توقفت الآن، لم تكن تتوقف عن زهراتها ذات البتلات الثمانية. اليوم مرة أخرى قد سمعت نبرة في صوته جعلتها تتوقف.

قال ناسيًا نفسه: «كيف ترين الأشياء إذًا؟». فسدت اللحظة تمامًا. فهي قد بدأت، مع ذلك هي الملومة بالفعل.

لكن أغنية تتفجر من داخل ماتيس: هو وطائر وودكوك. شعر بدافع إلى أن يمشي خلال الغابة الصغيرة، مباشرة تحت الخطوط غير المرئية في السماء. كان هذا مساره، الطريق إلى الفرحة الغامرة. لم يكن محبطًا في هذه المرة أيضًا. وبعد فترة قصيرة، تعين عليه أن يتوقف.

أنت هو أنت، يبدو أن صوتًا من داخله يتكلم، على الأقل هذا ما بدا له.

صوت منطوق بلغة الطيور. مكتوب بكتابتها.

كان يقف إلى جوار بقعة جافة من المستنقع تحت مسار وودكوك، يقف وهو ينظر مذهولًا، يقرأ رسالة، أو أيًّا ما كان ذلك الذي تُرك هناك من أجله.

وعلى السطح البني الناعم لتربة المستنقع، كانت الآثار المرسومة لقدم الطائر. كذلك حُفِّر عدد من الثقوب المستديرة العميقة. الثقوب العميقة صنعها منقار وودكوك الذي يرشقها في الأرض لينقب عن فتات من الطعام أو أحيانًا لمجرد استخراج رسائل.

انحنى ماتيس وقرأ ما كُتِب. نظر على آثار الأقدام الراقصة الرشيقة. فكر، هذه هي الروعة والرشاقة التي يكون عليها الطائر. هكذا يمشي

الطائر برشاقة فوق أرض المستنقع حينما يتعب من الهواء.

كيف حالك، هذا ما كُتِب.

يا لها من تحية أن تتلقاها!

وجد غصينًا، ونقل نبتة إجابة في مكان خالٍ على السطح البني. لم يستخدم الحروف العادية؛ فقد كان المقصود توجيهها إلى وودكوك، لذلك كتب بالطريقة نفسها مثل الطيور.

إنه مجبر على ملاحظتها المرة القادمة التي يأتي فيها. أنا الوحيد الذي آتى إلى هنا، والوحيد الذي أكتب.

إنه سكون، بقعة مخفية جيدًا. من المستحيل تخيل مكان اجتماع أفضل من ذلك. فالأشجار الطويلة تقف ملتفة حول البقعة الصغيرة من المستنقع، وتشق أشعة الشمس طريقها إلى الأرض الجرداء، تسقط بكثافة ودفء على أرض المستنقع وتجففها حتى تستطيع المخلوقات الرشيقة الخجولة أن ترقص فوقها.

هل ينبغي له أن يستقر هنا لباقي النهار والمساء وينتظر الطائر أن يأتي وربما يهبط إلى جواره مباشرة؟

كانت فكرة مغرية، لكنه أزاحها جانبًا بشدة. لم يجرؤ. فبعد كل شيء، ربما يخاف الطائر منه ـ وشيء ما ربما يفسد، وهو ما لا يجب أن يفسد بسبب أي شيء في العالم.

كانت هناك تحية هنا الآن. هذا ما ينبغي أن يعمل على أساسه.

غدًا، سيعود ويرى كيف فهم وودكوك من قراءتها. مضى إلى البيت يصفر لنفسه، لكنه لم يقل شيئًا ـ لا تستطيع هيج أن تفهم أشياء مثل هذه.

١٥

في اليوم التالي، خرج مشحونًا بالإثارة، ولم يكن محبطًا. وفي مكان ليس ببعيد عن كتابته، وجد المنقار قد ثَقَّب رسالة جديدة.

توقع ماتيس هذا، لكن تأثيرها كان قويًّا إلى حد أنه اضطر أن يجلس على حجر.

شيء ما بالفعل قد بدأ بينهما.

وماذا قال الطائر بلغته الرائعة؟

لم يكن ماتيس يشك. إنها كانت عن الصداقة العظيمة. بريك، بريك، بريك. الصداقة الأبدية، هذا ما تعنيه.

أتى بفرع الغصن وثَقَّب بشكل مهيب ما شعر به بالمثل.

كان من السهل أن يعبر المرء عن نفسه بلغة الطائر. هناك الكثير جدًّا مما سيخبران به بعضهما البعض. يوجد المزيد من آثار الأقدام هنا الآن. بدت بالنسبة إلى ماتيس، مثل الرقص.

لكن لا يجب أن أبقى هنا أتجسس.

نظر ماتيس حوله وقال بصوت عالٍ: «أشياء عظيمة».

استخدم الكلام البشري العادي. شعر به أجشَّ مبتذلًا. فضل أن يبدأ باستخدام لغة الطائر من أجل الخير ـ ليعود إلى البيت إلى هيج ولا يتحدث بأي طريقة أخرى. ربما تبدأ حينئذ في فهم بعض الأشياء التي كانت خافية

عليها في الوقت الحاضر.

لكنه لا يجرؤ، لديه فكرة مقروءة لما سيحدث. الأكثر احتمالًا أنهم سيحتجزونني. سوف يرفضون التعامل مع اللغة الأجمل من كل اللغات، سيسخرون منها.

لكن مع الفرحة التي مازالت تتقافز بداخله، انحنى ليوقع بضعة ثقوب أخرى. استطاع أن يملأ البقعة كلها في هذه اللحظة. لكن لا ينبغي أن يفعل ذلك ـ يجب أن يترك مكانًا بالمثل لطائر وودكوك. كل يوم، يأتون هنا مرفرفين مع الضوء، ليوقعوا بإيقاعات راقصة كل الذي كان في قلوبهم.

كان اليوم الثالث بعد الاكتشاف هو نفسه، واليوم الرابع أيضًا. سألت هيج عما كان يفعله طوال الوقت في الغابة.

قال: «همم!»

لم تتابع الموضوع.

شعر بإغراء متزايد بأن يرقد انتظارًا للطائر، لكنه عمل على مقاومة ذلك. انتظر بفارغ الصبر لكل نهار جديد أن يبدأ.

في اليوم الخامس، لم تكن هناك تحية جديدة له. ما الذي حدث؟ وألم تكن الغابة أهدأ من المعتاد أيضًا؟

بداخله، كانت الكلمات تتشكل بصورة مؤلمة: مات طائر وودكوك.

لا! لا!

بعد أربعة أيام من تبادل الرسائل المكتوبة، أصبح منهمكًا فيها لدرجة أنه تخيل كوارث مفزعة بمجرد أنه لم تصله رسالة جديدة في المستنقع.

رغم ذلك، قام بتثقيب شيء ما من تلقاء نفسه قبل أن يعود إلى البيت. في المساء، جلس خارج البيت ينتظر وودكوك أن يصل. كانت هيج نائمة.

هواء ممطر، خفيف، مناسب تمامًا. ومضت بداخله لقطة إدراك مفاجئ: في يوم من الأيام لن يحلق وودكوك عبر المكان بعد ذلك. وفي يوم ما لن يكون هناك وودكوك بعده.

«من الذي يئنّ أنين الكارثة؟» هكذا قال بثقة مفاجئة في الهواء الممطر، لأنه قد أتى طائره المفقود، حميمًا ورائعًا، يتبع المسار نفسه، مطلقًا الصيحات نفسها. استطاع ماتيس فقط أن يوقف نفسه عن إيقاظه هيج من نومها.

وحينما مضى إلى مكان الاجتماع في اليوم التالي، كانت هناك رسالة جديدة من أجله أيضًا.

فكر، هذه هي الطريقة فيما بيننا.

ومازالت هناك بقعة فارغة تنتظر تغطيتها بالثقوب وأصابع السيقان الراقصة.

١٦

لكن بعد يومين بدأ ماتيس يشعر بالمرض. فجأة. ظل يطوف داخل المنزل وخارجه. وحينما بدأت هيج تلقي بالأسئلة، أجاب: «إنها معدتي، نوعها. لكن فقط نوعها».

«هل شيء أكلته، أم هو الطقس؟»

قال وهو يتلوَّى خارجًا مرة أخرى: «ليس هذا ولا ذاك».

«وودكوك في خطر مميت، هذا هو ما كان».

قابل هذا الصباح شابًّا على الطريق، سأله ما إذا كان يمكن حقيقة أن يحلق طائر وودكوك مباشرة عبر منزله. نعم، نعم حدث، لقد أجاب ماتيس وهو سعيد لأن أحدًا يسأل. حتى الآن كان يتعين عليه أن يدفع بأخباره إلى الناس.

شعر حينئذ فجأة برعشة برودة تسري إليه مباشرة، وشعر بالأسف المرير على كل كلمة قالها. ومن البريق المفاجئ الذي انبعث من عيني الشاب، أدرك أنه كان يتحدث مع صائد طيور.

«لكنه توقف الآن! إنه وقت متأخر من الصيف. لم أره منذ وقت طويل».

فقط، ضحك الشاب ـ كان يعرف أفضل: «هل تظن أنني لا أعرف متى يتوقف هذا النوع من الطيران؟»

تبعثرت كذبة ماتيس الصغيرة على الأرض. أراد ماتيس أن يسأله ألا يؤذي الطائر، لكنه كان بطيئًا كما يحدث غالبًا حينما يتعلق الأمر بالأشياء المهمة.

قال الشاب: «إلى اللقاء»، وابتعد بخطوات سريعة طويلة. كان أحمر اللون قوي البنيان، أيضًا من الواضح أنه أحد هؤلاء العاملين الهائلين الذين يرغب كل شخص في التعاقد معهم بأعلى أجر ـ وأحد هؤلاء الذين تحب البنات أن يلتفن حوله.

لكن ماتيس لم يستطع أن ينسى البريق في عيني الشاب. كان صائدًا للطيور، وربما عاد ببندقية ورقد في انتظار الوودكوك على حافة الغابة وأطلق النار عليه ببساطة.

ربما في هذه الليلة بالفعل. فهل هناك عجب في أنه شعر بشيء غريب في معدته؟

لم يرد أن يناقش هذا مع هيج لأنها ستتأكد حينئذ أنه هو نفسه من أخبر صائد الطيور بالأنباء. حاول أن يطمئن نفسه بالقول إن كل فرد قد عرف عن ذلك الآن، لكن لا فائدة. لقد أخبر اليوم صائد الطيور الذي جاء لغرض واحد وهو سؤاله. أدرك ماتيس متأخرًا.

شعر بأمعائه تسوء حينما ذهب. بالخارج تحول الجو إلى ليلة دافئة لطيفة. العتمة والرائحة المباشرة للمطر في الهواء أيضًا. سار ماتيس حول المنزل، تحول وجهه تجاه الدغل طوال الوقت كما لو أنه لمنع شخص ما من أن يرقد هناك ببندقية.

بدا الأمر كله لا أمل فيه. فالغابة من حوله ربما تخفي مائة شاب بالبنادق، حتى لو أنه لا يستطيع أن يرى أحدًا. ومع ذلك شعر بأنه ينبغي عليه أن يهرول حول المنزل، يحدق في الأكمات، في البقع المظلمة التي بدأت تتجمع هناك. خاف أكثر وأكثر من البنادق غير المرئية. ربما يكون هناك الكثير منها.

لا، لا، لا.

لف حول المنزل. ماذا يجدي هذا بالفعل؟ حلقت الطيور عاليًا في الهواء، ولم يستطع أن يحذرها حتى صارت فوق السطح مباشرة ـ ولا

حتى حينئذ.

شرع في البداية فجأة: كان الطيران قد بدأ. توقف قلبه عن الخفقان. الطائر أتى.

واحد، واثنان، وثلاثة وبعيدًا! مثل خط براق من خلال ماتيس. وسُمِح للطائر أن يواصل تحليقه، لم تنطلق بندقية.

هل ربما كان مجرد تخيل بعد كل شيء؟ لا، لم تتبدد مخاوفه. لابد أن البندقية هنا في مكان ما، إنها فقط لم تعمل في المرة الأولى.

استمر ماتيس في رحلته الحمقاء، لفة تلو أخرى. حينئذ أطلق تحذير «هاي!» في الدغل. لم يكن هناك رد.

قال بصوت أعلى «هاي!»

لا رد. لكن بعد لحظة، جاء صوت شيء يفرقع. صوت ناعم، خطر.

أين أنت؟ لم يسمع من أين أتى. صاح بصوت أعلى. كان متأكدًا من أن شخصًا ما هناك.

جاءت صيحته التالية في أعقابها: «لا تفعل!»

صاح: «لا ينبغي لأحد أن يحدث ضررًا هنا!»

صمت مميت خيم على الغابة.

لم يتبق من الوقت الكثير الآن، أيضًا، قبل أن تحين عودة الوودكوك مرة ثانية.

صاح: «لا!». بدت صرخة ضعيفة لاهثة. لم يكن متأكدًا ما إذا كانت تحذيرًا للرامي المختفي ألا يرتكب جريمة ـ أو تحذيرًا للطائر المحلق ألا

يعود من ذلك الطريق. ربما كانت مسحة من كليهما.

الليلة، تغيرت الغابة فيما يتجاوز الإدراك. الغابة حيث شعر بها آمنة بشكل طبيعي ـ بدا كل شيء الليلة مشؤومًا وغريبًا. كانت سماء الليل تغمر البقعة الجرداء بضوئها، لكن من مكان ما فيما بين الشجيرات، ربما تبرز فوهة بندقية. كان لهذا تأثير يشل ويحطم كل شيء.

كان ماتيس على وشك أن يصيح للمرة الثالثة، حينما سمع رفرفة جناحي طائر. ظل فمه مفتوحًا.

لا ـ هكذا قال صوت داخله صامت، مثل نوع من النّواح العاجز.

فرقعة! جاء انفجار مدوٍّ من أعماق الغابة. من بعيد حتى أن ماتيس لم يرصد المكان. وعاليًا في الهواء أطلق طائر صرخة ضعيفة.

فرقعة! جاء صداها مكتومًا من جانب التل.

وقف ماتيس متسمرًا في مكانه. أولًا، مضت الضوضاء الرعدية تلتف حوله مثل سحابة سوداء، ثم هوى طائر وودكوك المهيض من حالق من سماء الليل مرتطمًا بالأرض على بعد خطوات حيث كان يقف.

مازال ماتيس عاجزًا عن الحراك. حاول أن يسترجع ترتيب أفكاره ـ كانت في اضطراب تام. لكن من هناك أتى شاب مندفعًا من الدغل ـ وفي اللحظة ذاتها فعلًا، سيطر ماتيس على جسده، قفز إلى الأمام، والتقط الطائر الدافئ المليء بالرصاص، مسد ريشه المتموج، ونظر إلى عينه السوداء.

كان الطائر ينظر إليه.

لا، لا، لا تفكر هكذا. لا ينبغي. هذا الطائر مات. مات، لماذا مات؟

هو نظر إليَّ أولًا.

وفي الوقت نفسه وصل الرامي البقعة الجرداء، كان يركض جزئيًّا، متوهجًا بالفرحة لمقتله. كان هو الشاب الذي تحدث معه سابقًا في النهار بالفعل، قويًّا وسعيدًا.

كان ماتيس مازال واقفًا والطائر في يده.

قال الشاب، وهو يؤرجح البندقية اللامعة في يده: «يا لها من تصويبة! استطعت بالكاد مجرد رؤية الطائر، كان يطير وهو يمرق كالسهم، وأنا أطلقت مجرد طلقة».

لم يرد ماتيس.

قال الشاب: «لا أفترض أنك تعرف هذا النوع من الأشياء، لكنها كانت طلقة جيدة عليها اللعنة. وأرى أنه مات قبل أن يرتطم بالأرض».

وقف ماتيس هناك بالطائر، ينظر في يأس. صمت. تدلت اليد القابضة على الطائر إلى جانبه ـ بدا كما لو أنه قد نسى ما كان يمسك به.

سأل الشاب مندهشًا: «هل تظن أنه لك؟»

لم يقل ماتيس شيئًا.

«أعطه لي. أريد أن أذهب إلى البيت وأريهم كيف أنا رام ماهر»، قال هذا وهو يغمز ويومئ إلى ماتيس بطريقة ودية، في الوقت الَّذي ألقى فيه البندقية فوق كتفه، واستعد للمغادرة.

لم يسلم ماتيس الطائر، لم يبد أي حركة للطاعة، نظر عاجزًا إلى الشاب. أخذ الشاب خطوة مفاجئة إلى الخلف.

بدأ ثانية: «لماذا لم تقل شيئًا»، لم يعد مبتهجًا كما كان حين أتى مندفعًا.

جذب ماتيس نفسه، أراد أن يقول شيئًا عن العينين السوداوين اللتين نظرتا إليه ـ لكن حينئذ لاحظ أنهما ذهبتا. أُغلِقتا. لا يمكن قول المزيد عنهما. لم يدع الطائر يفلت من يده.

وقف الشاب هناك، يشعر بالخداع بعد تصويبته الرائعة. ماتيس قد قطف فرحته. لم يكن هو في النهاية أعمى بالكامل. وقف هناك مملوءًا بالشباب والقوة والحيوية، لكن هذا المغفل الصامت قد أخافه.

سأله بلهجة مختلفة: «ما المسألة يا ماتيس؟»

لا إجابة.

سأل الشاب يائسًا تقريبًا:

«هل أنت غاضب مني بشأن ذلك؟»

مرة أخرى، لا إجابة.

هز ماتيس رأسه في يأس. ينبغي أن يقول شيئًا ما. لا، أو شيء ما. نظر إلى الأرض، كانت هناك بقعة دم على العشب حيث سقط الطائر. مازالت دماء قليلة تقطر من منقاره. رفع ماتيس رأسه ونظر إلى الشاب بدون كلمة واحدة. لم يقم الشاب بمحاولة إضافية للنقاش أيضًا. ولم يأخذ الطائر القوة من ماتيس أيضًا، على الرغم من قوته. عَدَّل بندقيته ومشى ببطء خارج المشهد، بدا أنه دخل عبر شيء ما لا يفهمه، ولن يستطيع أن ينساه بسهولة.

ظل ماتيس واقفًا مع الوودكوك. سالت الدماء بطيئة على العشب من منقاره الطويل.

بمفرده ثانية استعاد ماتيس قدرته على الكلام؛ تمتم بصوت منخفض:

«العينان أُغلِقتا».

«لا أكثر».

«الرصاص في جناحه».

هو لم يلاحظ الشاب بالفعل، أو ما الذي كان يفعله. لم يكن لديه شعور بأنه قد ارتكب خطأ ما بعدم تسليم الطائر. مشى صوب الدرج، سحب نفسه ببطء من خلال المدخل وإلى غرفة المعيشة. هناك وضع الطائر على المنضدة.

لم يكن هذا كابوسًا مُحاصرًا فيه حينئذ. كان واقعًا.

رقد وودكوك، وعيناه مغلقتان، مليء بالرصاص الكثيف المخفي.

نظر إليه حينما التقطه، ليس هناك شك في هذا.

دوى صوته على باب الغرفة الصغيرة، ناسيًا كيف يتلقى غالبًا إجابة لاذعة حينما يصل في اللحظة الخطأ. لابد أن هيج استغرقت في النوم منذ فترة طويلة.

قال بصوت غير مفصل: «يجب أن تستيقظي يا هيج. لابد من ذلك!»

كانت هيج مستيقظة، ردت في الحال مترددة وغاضبة، لا.

«لكن لابد أن تأتي هيج. حدث شيء بشع».

«لمن؟»

لم يتحمل أن يقولها: «سوف ترين».

نغمة صوته جعلتها تقول في الحال: «أنا قادمة، ما الأمر إذًا؟»

غادرت الفراش مباشرة مشعثة غارقة في أفكارها، ومرتعبة مما انزعج منه ماتيس إلى هذه الدرجة. لم تلاحظ أي شيء، لكن ماتيس أشار حينئذ إلى المنضدة حيث كان الطائر يرقد.

«أترين هذا؟»

«أوغ! ما الذي يفعله هذا على المنضدة ويسبب مثل هذه الفوضى»، قالت هذا بلهجتها العنيدة المألوفة، حينما شاهدت قطرات الدماء على سطح المنضدة. لكنها أوقفت نفسها سريعًا حينما لاحظت التعبير على وجه ماتيس. اقتربت أكثر. لم تكن لتجهل ما يتعلق بالحياة البرية في الغابة، أو لا تعرف نوع هذا الطائر.

«أهذا وودكوك الذي تقول عنه؟»

أومأ ماتيس بصلابة.

قالت هيج: «نعم، سمعت صوت طلقة فقط الآن، وأعطاك صائد الطيور الوودكوك حينئذ، ألم يفعل؟»

قال ماتيس: «لا، لم يكن الأمر كذلك، لم يكن طائره، هل هو كذلك لمجرد أنه أطلق عليه النار!»

هل أخذته؟»

«هو تركني أفعل. لم يكن طائره، أليس كذلك؟ لكن هل تفهمين الأمر هيج؟»

عن هذا لم تجب هيج، لم يكن هناك ما تستطيع قوله. تحولا كلاهما ناحية الطائر على المنضدة. بدت المشكلة كبيرة جدًّا على ماتيس. كان يغدو مذهولًا أكثر وأكثر.

«ألا تستطيعين فهم ذلك؟»

قالت هيج: «لا».

قال ماتيس بمرارة: «حسنًا، إذًا الأمر هو نفسه معك، حينما تصبح الأمور خطيرة بالفعل، هي دائمًا مثل هذا».

كان في حالة رهيبة، وتعين على هيج أن تفكر في شيء ما: «أنت تعرف الطيور، سرعان ما تسقط من تلقاء نفسها أيضًا. أقصد، سواء أطلقت عليها النيران أم لا».

هز ماتيس رأسه.

«تستطيع الطيور أن تحيا لسنوات، قيل لي ذلك. وهو قد نظر إليّ».

«من؟»

«الطائر بالطبع. في اللحظة التي كنت ألتقطه فيها تمامًا».

«هل كان حيًّا؟»

«لا أعرف، لكنه قد نظر إليّ بالفعل».

قالت هيج: «حسنًا، لن نتحدث عن هذا مرة أخرى، إذا لم يكن حيًّا حينئذ، ما نظر إليك أيضًا. كان لا شيء».

كل ما قاله ماتيس: «بعد ذلك أغمض عينيه». قالت هيج بحسم لكي تضع حدًّا: «توقف عن القلق بشأن هذا الآن. خذ الطائر إلى الخارج، لن أتركه هنا على المنضدة. ونحن لن نستخدمه».

ارتجف ماتيس.

«نستخدمه؟ لا».

«أخرج وضَعه تحت حجر كبير، ماتيس».

«تحت حجر كبير؟ لماذا؟»

«حتى لا يهرب به أحد بالطبع».

قال شاكرًا: «إنها فكرة جيدة».

«ثم ارجع بأسرع ما تستطيع، واذهب إلى النوم. فأنت تعرف أن مثل هذه الأشياء لا تفيد. عليك فقط أن تتقبلها».

«نعم، لكن...»

«ليس هناك، لكن ماتيس، هذه هي الطريقة التي تكون عليها الأشياء».

قال ماتيس: «يمكن أن أقول هذا لنفسي، فما الذي أطلبه منك؟»

ذهبت هيج إلى حجرتها، ترتعش من البرد في ثياب النوم الخفيفة. مضى ماتيس إلى الخارج مع الوودكوك، وفعل كل شيء، تمامًا مثلما أخبرته هيج.

١٧

مع الوقت تم إنجاز المهمة الصعبة. كان ماتيس متعبًا ويتصبب عرقًا. لتشريف الطائر وحمايته، غطاه بحجر أثقل بكثير من أن يحمله. شعر به مثل لوح ضخم واستنفد كل جهده. كان الوقت منتصف الليل بالفعل.

وحينما انتهى، جلس على الحجر يستريح. وفكر فجأة: إذا كانت هي هيج...

اجتاحته مثل انفجار جليدي في ليل يونيو الساكن. بدأت أفكاره

ترعبه، رأى نفسه هناك وحيدًا، حيث ترقد هيج والطائر كلاهما تحت حجر ثقيل.

والعينان مغلقتان.

وتوقفت الأنهار عن الجريان.

تمتم لنفسه بهذه الكلمات، لكنها لم تفلح في أن تسترجع له الشعور بالفرح. طافت نظرته بقلق فوق المرج العشبي حيث بدت الحياة كلها نائمة. شعر بالبرودة. تعالى قد لا ينبغي عليه العودة إلى هيج. لا يجب أن يستثار من جانبها الليلة بعد ذلك.

مرة أخرى طرق على بابها.

قال من خلال الفتحة الضيقة: «يجب أن تتركيني أدخل وأبقى معك الليلة هيج». ألقى نظرة خاطفة على أخته إلى جوار الحائط تحت المرآة.

قالت راغبة بدهشة: «تعال إذًا».

لذلك هي لم تكن نائمة الآن أيضًا. سألت بلهجة ودودة بينما هو يقترب: «هل فعلت ما أخبرتك به؟»

«نعم، لكن...»

سألت بسرعة: «هل حدث شيء آخر؟»

جعل ودها الأمور أسوأ تقريبًا. كان ينبغي لها أن تخبره بأنه يزعجها.

«نعم، حدث، لكني لا أستطيع أن أخبرك. لكن هذا هو ما يدعوك إلى أن تسمحي لي أن أبقى هنا معك الليلة».

قالت هيج فجأة بدون سبب خاص: «لا يوجد شيء لتخاف منه».

«أخاف؟ ما الذي أخاف منه؟»

«لا أعرف، فقط فهمت أنك خائف. يجب أن تحاول أن تنسى الطائر».

صاح: «لا! لكني أتكلم عن أشياء أخرى كذلك».

«حسنًا تعال وارقد إذًا. أنا متأكدة أنك ستنال قسطًا من النوم».

أتى. رقد بجانب هيج. رائحتها مثل امرأة، على الرغم من أنها كانت أخته. طافت أفكاره قريبًا وبعيدًا.

سألت: «هل خلعت حذاءك؟»

«نعم».

بدأ ثانية: «كان أمر الطائر مخيفًا».

قالت أخته تعزيه: «إنه يرقد تحت الحجر الآن في سلام».

شيء غريب أن تقول ذلك.

«لماذا تقولين هذا؟»

مست يدها وجنته برقة مرة أو مرتين، في إجابة عن سؤاله. جميل. فعلت كل شيء يبدو أكثر بعدًا، بكيفية ما.

«اذهب إلى النوم الآن، ماتيس».

قال مشيرًا إلى يدها العابرة: «كانت هذه مثل جناح الطائر».

أجابت هيج بهدوء: «نعم، ها نحن هنا... كما كنا دائمًا. لا تكن خائفًا الآن».

كان على وشك أن يقول لها عن السبب في أنه يرقد هناك ـ فكر، لكن

إذا فعلت، سيكون هذا نهاية نومك الليلة، يا هيج.

سألت تعرفه بالطريقة التي تفعل بها: «ما الذي تحاول أن تقوله؟»

شرع في البداية.

«لا شيء!»

قالت هيج: «حسنًا، في هذه الحالة، ينبغي أن تخبرني في وقت ما في المستقبل البعيد، لأننا بسبيلنا إلى أن نتوقف عن الحديث الآن، ونخلد إلى بعض النوم».

اشتاق إلى أن يشعر بيدها، لكنه اشتاق دون جدوى.

لكن العين السوداء.

مغلقة الآن.

وفوقها حجر كبير.

لا غطاء، ولا حجر يمكن أن يخفي عينًا مثل تلك العين ـ بمجرد أنها نظرت إليك.

«هيج».

قالها برفق. لم ترد، يبدو بالفعل أنها نامت ـ حضوره جلب لها السلام.

الجزء الثاني

١٨

كانت حقول البرسيم قريبة جدًّا، حتى أن رائحتها تأتي محملة من خلال الأشجار عندما تكون في الاتجاه الصحيح. علامة مؤكدة على أنه منتصف الصيف.

وبطريقة غير مريحة أصبح ماتيس شخصًا مهما في المنزل. هل من المؤكد أنه سيعاون في تجميع القش؟ شعر بالحاجة إلى التعلق به من الصباح حتى المساء. شاب راشد لا وظيفة له في منتصف موسم تجميع القش ـ أليس بالتأكيد أنه لن يستطيع أن يتسكع بدون أن يعمل شيئًا؟

في المنزل لم تكن لتقال كلمة حول تجميع القش، لكنهما توقعا دعوة في هذا الوقت من السنة، دعوة من شخص ما يطلب من ماتيس أن يأتي ويساعد في العمل. هذا هو السبب في أنه كان الشخص الأهم فيما بينهما الآن. حينما تكون لست متأكدًا من نفسك، مثل ماتيس، يمكن أن يكون هذا كلا الأمرين، سارًّا ومؤلمًا.

استطاعا أن يسمعا آلات حصد التبن تبدأ في القرقعة عند الفجر، أو القعقعة والصلصلة في الأوقات المتأخرة من الليل. تنحنح ماتيس، كانت تلك هي أفضليته الآن، لأنه في مركز الأحداث.

واستمرا يجلسان في صمت.

بالطبع كانت هيج تعمل بسرعة فائقة كالمعتاد.

كانت السويترات تتشكل.

لكن لم تأت دعوة اليوم. من وقت إلى آخر، يتنحنح ماتيس ليقول إنه مازال مستعدًّا. ولم تأت دعوة في اليوم التالي أيضًا.

آه حسنًا، لم يزد الأمر عما توقعاه بالفعل. لقد عرف كل شخص تمامًا كيف كان سيمون العبيط ساذجًا. عرفت هيج وماتيس، لكن حينما تخشخش الآلات المتحركة ويتصبب كل فرد عرقًا هناك عند أكوام تجميع القش، لم يكن بمقدور المرء أن يتوقف عن انتظار الدعوة.

قال ماتيس بنوع من التبرير: «إنهم يفعلون كل شيء سريعًا هذه الأيام، إنهم يستخدمون الآلات».

وعلى الرغم من أن ماتيس حاول أن يتكلم بهدوء، فقد تصاعدت النغمة. كان هناك جموح قوي لأن يكون مثل هذا الشخص المهم. قال، قبل أن يذهبا إلى الفراش مباشرة: «لكن الوودكوك تحت الحجر».

توقفت هيج مترددة.

«حسنا؟»

«هذا كل شيء. الوودكوك تحت الحجر، مهما فعلت».

قالت هيج بحدة، وهي تتركه: «إنك تقول كلامًا فارغًا». عند باب حجرتها، بدأت بالفعل تندم على كلماتها القاسية.

قالت: «لم أقصد هذا».

كان مندهشًا. لم تكن هي هيج التي تتراجع عن شيء قالته مثل هذا. لكنها منحته الفرصة ليقول بنغمة لطيفة هادئة: «لا، إنه أنت التي لا تفهمين».

تركته عند هذا.

هو لم يجرؤ أن يقول أي شيء لها مثل هذا في الربيع الماضي. شعر بإحساس مؤكد أنها اندهشت، لكنها تركت الأمر يمضي بدون تعليق.

في الصباح التالي تمشَّى ماتيس مارًّا بالمروج حيث كان يجري تجميع قش التبن. لم يكن يتحدى أو يتباهى. كانت أسبابه غامضة قليلًا ـ ربما اجتذبه صوت العمل أكثر من أي شيء آخر. الماكينات المزمجرة. كانت الحشائش تتكوم، ينبثق العلف الجاف، الصغار والكبار مشغولون. بدا كل فرد قويًّا وبارعًا. في كل مرة رأى شيئًا جميلًا، توقف بشكل تلقائي.

قابل حينئذ رجلًا آتيًا عبر الطريق يحمل فوق كتفه حزمة من العصي. لم يكن هناك مفر.

اضطر أن يقول إلى ماتيس: «تعال نتمشى».

نظر ماتيس إلى الرجل مترقبًا؛ تعين على الرجل أن يقول: «إذا ذهبنا إلى تكديس التبن في حزم قريبًا يومًا ما، هل يمكن أن تأتي وتعاوننا حينما نفردها مرة أخرى. يوم ما حينما يكون الطقس جافًّا بما يكفي؟».

قال ماتيس بفرح: «نعم، أنا عملت من قبل في نشر أكوام التبن».

مشى الرجل مبتعدًا كما لو أنه قام بفعل جيد لهذا اليوم.

قال ماتيس في طريقه للبيت: إن هذا لا يعادل أي شيء. لكن ماتيس شعر بأنه حرر نفسه من المطالبة التي تظل تحدق في الوجه لمدة أسبوعين تقريبًا. الآن جاء دور هيج لأن تكون الشخص الأهم في البيت.

الآن هو المساء.

ما الذي تستطيع أن تفعله حينما يكون كل شخص حولك قويًّا وبارعًا؟

لن يعرف أبدًا.

لكن حينئذ ما الذي تستطيع أن تفعله؟ ينبغي عليك أن تفعل شيئًا حتى حينئذ. طوال الوقت.

يوجد شعاع عبر هذا المنزل. الطائر قد أُطلقت عليه النار وأغلق عينيه وغطاه الحجر، لكن الشعاع يظل قائمًا.

لكن ما الذي يمكن أن تفعله؟

ما الذي تفعله مع هيج؟ هناك شيء ما، الموضوع معها.

لن يعرف أبدًا.

لكن هناك همسة رقيقة بالخارج الآن على أية حال.

١٩

في أحد الأيام قرب نهاية يوليو، كان ماتيس بالخارج يصيد السمك. على الأقل، كان بالخارج يجدف في قاربه. لم تكن تلك الأسابيع القليلة الأخيرة سعيدة على الإطلاق. حسنًا، غير منفصلة عن اليوم الذي قضاه ينشر التبن. جاء هذا اليوم بالفعل، لكنه كان فقط يومًا واحدًا منها.

اليوم، بعثت به هيج إلى البحيرة.

كان جالسًا في القارب يرنو إلى بعيد شارد العينين. كانت البحيرة

ناعمة ممتدة دافئة. جدف ماتيس بطريقة جيدة مبتعدًا عن الشاطئ، اقترب تمامًا من الجزيرة الصغيرة الصخرية. وعلى مسافة بعيدة كان أحد الزوارق أو اثنان من الزوارق ذات المحرك يهمهمان، لكن بعيدًا عنهما كان المكان كله مهجورًا. وعلى الأرض، استطاع أن يرصد المزارع التي عرفها، والكثير من المزارع الأخرى التي لم يعرفها.

كانت معالجته للصيد بدائية، لكن أسوأ شيء في الأشياء كلها هو القارب الذي تسربت إليه المياه. جلس ماتيس مستغرقًا في التفكير، حتى بدأ الماء يقطر من حذائه، فاستيقظ حينئذ وشرع في النزح. وبعد لحظة أخرى استغرق مرة أخرى في تفكير عميق. كانت صنارته للصيد مثبتة في المؤخرة، تدلى الخيط مرتخيًا عديم الفائدة. ارتفعت شمس يوليو ساطعة من العمق، بدت كما لو أنها محتجزة بين شمسين، وهو جالس هنا في القارب. لا أحد غير ماتيس خرج للصيد في يوم مثل هذا. بحيرة هادئة مثل مستنقع راكد.

لكن طالما أن الأمور تسير...

فكر ماتيس، أنت تصطاد السمك حينما يكون توقعك في حده الأدنى. لذلك لست أنا الغبي في هذه المرة.

رجع تفكيره إلى المحادثة التي أجراها مع هيج، قبل أن يصعد إلى القارب: «أنت تظن أنهم يضحكون عليك حينما لا يكونون يفعلون أي شيء من هذا القبيل».

نعم هذا ما قالته هيج. تذكره الآن وهو جالس ينظر إلى المزارع.

حاول أن يفكر في شخص ما أراد بالفعل أن يؤذيه ممن سخروا منه. لكن بعيدًا عن الأطفال الذين كانوا دائمًا مزعجين، لم يستطع أن يحدد شخصًا واحدًا. نادوه بالأسماء من وراء ظهره، لكن هكذا كان الناس. لقد وجد الأمر برمته مربكًا أيضًا.

هناك صوت بقبقة، وبدأت المياه تتسرب إلى حذائه. تعين عليه أن يبدأ في نزح الماء سريعًا.

قال، لا ينبغي أن أستغرق كثيرًا في التفكير في أنني أغوص إلى القاع، أخذ ينزح بعنف حتى أن المياه اندفعت إلى الجانب في سيل متدفق. إذا فكرت فقط في أنه سرعان ما سيمتلئ القارب وسوف أغرق. من الأفضل أن أركز تفكيري على الأرض الجافة.

لكن سرعان ما استغرق في التفكير مرة أخرى، لم يكن هناك ما يوقفه. لم تكن الأسماك أيضًا تقضم الطعم. لديه فسحة من الوقت.

عادت أفكاره إلى الخلف تطوف في أيام ماضٍ بعيد وأحداثه. كان يكفن معظمها نوع من الضباب. كان أبوه هو الذي يعوله عندما كان طفلًا. كان أبوه مثل هيج، نحيلًا لا يعرف الكلل. بارع أيضًا. كل شخص بارع فيما عداه. وعلى قدر ما يتذكر، كانت هناك مشكلة في كل مرة حاول فيها أن يقوم بأي عمل. أدرك اليأس أباه. تفرست أمه فيه، كما لو أنها لن تتوقف عن الأمل في تغيير ما. بعد ذلك، ماتت قبل أن يكبر بالكامل. وبعد سنوات قليلة فقط، قُتِل أبوه في حادث في العمل. امتلأ ماتيس بالرعب في كل مرة فكر فيها في هذا الأمر.

بعد ذلك بقيت فقط هيج وهو. وجرت الأمور على النحو نفسه الذي تسير عليه الآن لسنوات طويلة. لم تكن لديه فكرة متى كانت المرة الأولى التي سُمّي فيها سيمون العبيط ـ لكنه رآها نقطة تحول قاتمة في حياته.

نظر عبر الشاطئ، يقول لنفسه، إنه لا أحد أراد أن يؤذيه. شكر هيج لما قالته، ولما حاولت أن تزرعه فيه.

عاد بعد ذلك ينزح المياه ثانية. كان هناك إصرار تام من المياه التي تحاول أن تغرقه.

أريد أن أعيش، لا أريد أن أغرق!

لو أستطيع فقط أن أصيد سمكة كبيرة بالفعل. أعود إلى البيت إلى هيج بسمكة كبيرة حقًّا.

تتمدد الأسماك مثل الظلال الخافتة الرقيقة على رمال المياه الضحلة، حيث كان قاربه يهتز وينجرف. كانت ترقد هناك خاملة، لا تفعل شيئًا، تمامًا مثل ماتيس نفسه. لكنها متنبهة بشكل مفزع. فإذا حرك ماتيس يده، تنحرف الأسماك إلى أحد الأعماق السفلية المظلمة. لم تكن تقضم الطعم. كانت الأسماك بارعة ذكية. براعة تفوق أية طريقة تنتهجها.

فكر فجأة، وحينئذ توجد هيج.

شيء ما يتعلق بـ «هيج».

اعتزم ألا يدع هذا يقلقه هنا في البحيرة، لكن لم يكن هناك مفر من ذلك: كانت الليلة الماضية ليلة سيئة بقدر ما كانت هيج مهمومة. وهذا هو السبب في أنها لم ترسله إلى البحيرة أول شيء في الصباح.

استيقظ في منتصف الليل، وسمع شيئًا لا يحب صوته. صوت قادم من حجرة هيج، ومشى على أطراف أصابعه، واختلس النظر. استطاع فقط أن يرى هيج ترقد ووجهها باتجاه الجدار. أضاء النور، لكنها لم تتحرك.

اجتاحه شعور بالذنب ـ لو كانت هيج معتلة، فهذا حتمًا بسببه.

سأل برفق من على الباب: «هل أنا مرة أخرى؟»

أجابت بدون أن تستدير: «لا، لست أنت».

«من هو إذًا؟»

قالت: «لا أحد، أنا فقط لا أعرف لماذا أعيش».

استدارت حينما تكلمت وهي ترمقه بنظرة متفرسة. كان هذا أسوأ مما تخيل، كان وجها لوجه مع المشاكل التي تتجاوز بالكامل فهمه. استمرت هيج: «أنا لم أنل شيئًا منها! اذهب إلى حجرتك الآن ماتيس».

وكالعادة، كما لو أنه توقف من خلال حاجز لا قبل له على اختراقه. كانت هيج تعيسة. شيء ما حدث له فجأة: إنها هي التي تحافظ عليه؛ في كل يوم على حدة يأكل طعامًا اشترته من النقود التي اكتسبتها من الحياكة.

هزها من كتفها، وقال: «أنت لديك حياكتك، أنت تعرفين!»

جفلت.

«الحياكة؟ أوه! اتركني بمفردي، أنت لا تعرف ما تتحدث عنه».

وهكذا كان عليه أن يستحضر هذه المسألة الأخرى. كان يأمل أن يتجنبها في البداية، شعر بالخجل من ذلك.

قال: «أنت تراعيني هيج، لا تنسي. أنت دائمًا تفعلين».

قال: «إنه أنت من تحافظين على حياتي، كما تعرفين، أليس هذا بشيء؟ بالتأكيد هذا مهم».

هو لم يقصد مثل هذا المعنى، فهو قد نطق فقط الكلمات الأولى التي خطرت على باله.

حاولت أن تومئ بموافقتها، فضربت رأسها بالجدار فأحدثت صوتًا مكتومًا.

قال مغلوبًا على أمره: «أظن هذا مهم على أية حال، إنه من أجلي».

«بالطبع. إنه من أجلي أيضًا، ماتيس».

لكنها لم تكن راضية. تمددت هناك باتجاه الجدار، رافضة أن تُظهر وجهها.

«لا تقلق بشأن هذا ثانية، ماتيس. هذا عملي. سأتجاوز الأمر، أنا متأكدة».

سألها: «ألن تستديري؟»

أجابت بحدة: «لا». فما كانت لتدعه يرى وجهها هذه المرة.

وقف هناك، ذراعاه متدليان. ما الذي يستطيع قوله لها؟ إنها لا تعرف لماذا هي تحيا. وهي التي كانت بارعة جدًّا. جر قدميه راجعًا إلى حجرته، مدركًا أنه لن يستطيع أن يفرحها. أصبحت على هذه الحالة في الأشهر القليلة الماضية. ما الذي يجري؟

عادت إلى الحالة الطبيعية مرة أخرى على الإفطار في الصباح التالي، لكنها سألته إذا ما كان يستطيع أن يأخذ القارب ويقوم بصيد بعض السمك.

وافق بدون اعتراض وأصبح جاهزًا.

ما الذي تفعله في البيت الآن؟

ألا ينبغي أن يراها أحد؟

جلس في القارب مستغرقًا في التفكير.

٢٠

جاء صوت بقبقة من قاع القارب. عاليًا تمامًا في هذه المرة. استيقظ ماتيس في البداية. وصلت المياه إلى منتصف الطريق إلى ركبتيه! لابد وأن القارب البغيض قد تلف في مكان ما آخر اليوم تحت وطأة أقدامه ـ أدرك فجأة أن الماء يندفع فجأة بسرعة أكبر من ذي قبل.

كان يفكر لفترة طويلة حتى كانت المشكلة. ألم يلاحظ المياه وهي تعلو قدميه. كانت المياه دافئة جدًّا في الصيف لدرجة أنك لا تلاحظها حينما تكون مشغولًا بالتفكير في أشياء أخرى.

لكن هذه المياه كانت خطرة مميتة مثل أي مياه أخرى إذا كنت لا تستطيع السباحة. كان قد بدأ يغرق، لم يكن لها طريقان.

«لا!»، هكذا صاح وعيناه مفتوحتان على اتساعهما تحدقان. بدأ ينزح الماء بكل ما أوتي من قوة، وقف يزيح الماء الذي وصل إلى ركبته جانبًا بمجرفة مكسورة.

فكر، أنا لم أصل حتى الأربعين، هذا مبكر جدًّا.

لكن هذا النزح لا يجدي، هذا ما تأكد منه وهو يتصبب عرقًا باردًا. بدا

أن الماء يرتفع بدلًا من أن ينحسر. نادى بصوت متلعثم: «النجدة! إنني أغرق!»

«ليأت أي شخص».

تعال سريعًا أي شخص!»

لكن دون جدوى، بعيدًا في بحيرة واسعة فارغة ـ ولا تذهب صيحاته إلى بعيد في الضباب أيضًا. كان القارب يمتلئ أكثر كلما نزح الماء.

تسير الأمور سريعًا: ظهرت عينان في المياه تحدقان مباشرة فيه.

صرخ: «لا».

عيناه تحملقان ذاهلتين، وعينان في الماء تحدقان فيه بإمعان. لا شيء سوى عينين.

لكنه لم يكن ليريد.

صرخ، وقد شحب وجهه: «لا، لا أريد!»

وفي غمرة ذعره لمح في النهاية جزيرة صخرية جرداء. لم تكن بعيدة. إذا استطاع فقط الوصول إليها، سيكون آمنًا.

كان عقله يعمل بالفعل بسرعة وسلاسة. ألقى بمجرفة نزح الماء، وقذف بنفسه على المقعد، وشرع يصارع بالمجاديف.

وعلى الرغم من أن القارب كان منخفضًا داخل الماء، لكنه بدأ يتحرك. جذب ماتيس المجدافين بكل ما أوتي من قوة استطاع أن يستجمعها وأكثر إلى جانبها. لم يتوقف عن التفكير في ما إذا كانت لديه القوة أم لا، كان عليه أن يبتعد عن العينين على سطح الماء.

صرخ بوحشية: «هيج!».

لم تكن هناك فرصة على الإطلاق لسماعه، لكنه مازال يصرخ باسمها. إنها هيج هي من يتحول إليها طلبًا للنجدة.

في الوقت نفسه، تحرك القارب ببطء تجاه الجزيرة. تتصاعد المياه، تتغلغل إلى أعلى من خلال التشققات. وتمايلت صنارة الصيد إلى أعلى وإلى أسفل وحيدة بائسة أكثر من أي وقت مضى.

حينئذ توقف عن الصياح. فكر، سوف أصنعها، سرعان ما سأكون هناك. جذب المجدافين ممتلئًا باليقين المتفائل. وفعلها ووصل هناك ـ قبل أن يتأكد من أنه قد وصل إلى الجزيرة الآمنة. كانت خلفه تمامًا.

زحف القارب على القاع واستقر بعد أن اصطدم بالأرض. تسلق ماتيس فوق الشاطئ. ليقذف مباشرة بنفسه على الأرض متقطع الأنفاس. رفع يده وبدأ يمسح العرق عن جبينه.

هناك سحجات طفيفة، لكنه كان آمنًا.

كان يملؤه شعور عميق بالامتنان.

لم تكن الجزيرة شيئًا أكثر من صخرة كبيرة، مع بضع بقع صغيرة من الأعشاب في التجاويف. سيكون هناك مكان ما يجلس فيه على أية حال. تذكر ماتيس أن يحاول إنقاذ القارب. حاول أن ينزح منه أولًا كل شيء، لكنه اضطر للاستسلام. لم يستطع أن يسحب الماء الذي يغمر هيكل القارب بعيدًا بما يكفي عن القارب على الأرض بنفسه ليفعل أي شيء. وامتلأ القارب حتى أكثر، وفسد جدًّا، وبدا كأنه يحفر لنفسه إلى أسفل. كانت المياه ضحلة لذلك لم يغرق، لكنه ظل ملتصقًا بشدة. جلس ماتيس

على الشاطئ ممسكًا بطرف الحبل بيده.

لا يوجد شيء يفعله سوى أن يجلس منتظرًا. كان ملتصقًا هنا حتى يظهر قارب آخر. قبض ماتيس على الحبل بقوة. لم يكن هناك ما يمكن أن يربط القارب به. بالفعل كان الأمان متوافرًا في هذا الطقس الساكن، لكن ماتيس لم يجرؤ أن يفلته من يده، فربما تهب ريح تحطمه وتجرفه ـ وهذا ما لا يجب السماح بحدوثه، فالقارب سوف يُستخدم مرة أخرى، هكذا مَنَّى ماتيس نفسه سعيدًا.

كان من المغري أن يسترخي ويبدأ في التفكير تدريجيًّا مرة أخرى. لم يكن في عجلة من أمره حول هذا حتى الآن. فالشمس تسطع من فوقه ـ ليس الأمر سيئًا حينما تكون ملابسك مشبعة بالبلل؛ شعر بسخونة شديدة، لم تكن لديه الطاقة لخلع ملابسه. حتى الآن هو لم يفكر في العودة إلى البيت؛ هو أنقذ حياته، الباقي سوف يتلاحق من تلقاء نفسه.

قال بصوت عالٍ واضح النبرات: «وسوف تتداعى الأشياء الفوضوية الجميلة، إذا لم أرتب لها!». فهنا تستطيع أن تتحدث إلى نفسك بمكنون قلبك.

شعر بالضعف والإرهاق، مستمتعًا بدفء الشمس، بعد كل هذا التوتر والإثارة. لن تكون العودة إلى الأرض ثانية مشكلة كبيرة. إن عاجلًا أو آجلًا، سيكون شخص ما ملزمًا بأن يأتي إلى البحيرة ويبحث عنه. هو لم يكن جائعًا أيضًا، فقط يشعر بالنعاس. يمكن أن يغفو قليلًا ريثما يظهر أحد.

لكنه كان يخشى أن يفلت الحبل من يده إذا استغرق في النوم. كان هو

الرابطة الوحيدة التي تربط بينه وأي شيء يحبه. لذلك حينما شعر بالنوم يغالبه بقوة، ربط القارب بالشيء الوحيد الموجود: نفسه. ربط الحبل حول أحد كاحلي قدمه وأحكم عقدته. وفي الحقيقة كان القارب مستقرًّا في أمان على الصخور في هذه اللحظة، لكن ليس بمقدور أحد أن يعرف إلى متى سيظل الأمر هكذا.

قال للقارب: «إذا كنت أعتني بك، إذًا سوف تعتني بي». سريعًا بعد ذلك، اكتسى كل شيء بالفراغ.

٢١

لم تنتب ماتيس أية أحلام هذه المرة. وحينما استيقظ، لم تكن لديه فكرة عن الفترة التي استغرقها في النوم، فهو لم يفكر حتى في ذلك، لأنه استيقظ على صيحات مثيرة: «هيلا هوب»!

أصوات فتيات: «هيلا هوب!»

في الوقت نفسه، كان الحبل مربوطًا حول كاحله، وكان يُجذب تجاه الحافة بهزات عنيفة.

ما الذي يحدث؟

«لا!» هكذا صاح خائفًا ومضطربًا، منتصبًا، ينفض النوم عن عينيه، واختفى النوم تمامًا.

جاءت صيحة: «تعال! مرة أخرى!»

«ناحية اليمين! هيلا هوب!»

هزة أخرى بالقرب من حافة الماء. بدأ يصارع.

«توقف!»

تأكد حينئذ أنها دعابة.

التفت حوله ضحكات مبتهجة. ذكرته بالبازلاء الصفراء الجميلة. قال صوت فتاة: «من الأفضل أن تتخذ لك رفيقة حميمة، وإلا سوف تنتهي في الماء».

قالت فتاة أخرى: «ألن تكون فكرة جيدة أن تنزع قاربك؟ إنه مغروس في القاع».

هز ماتيس رأسه ليحرر نفسه من الشك في أنه كان يرى أشياء. حينئذ ضرب بعنف يده اليسرى في الصخرة ـ كانت ضربة مؤلمة إلى حد أنه تأوَّه من الألم. كان قلبه يطرق بقوة من شدة الإثارة. لم يكن يحلم، لكنه كان هنا في صحبة فتيات مبتسمات لطيفات.

سألن مستغرقات في الضحك: «هل نفكك من القارب؟ تبدو مضحكًا جدًّا».

أجاب بدون تفكير وهو مازال يحاول أن يصفي ذهنه: «أنا متأكد أنه كذلك».

«وليس هذا بجديد أو غير معتاد أيضًا»، هكذا قال حتى وهو يستيقظ أكثر، حتى وهو يفتح عينيه أوسع.

لم ينصتن لما كان يقوله. لم يفهمن ما كان يتحدث عنه. انحنت إحداهن فوقه وفكت الحبل من حول قدمه. نظر ماتيس إليها بخجل، أحس بيديها تلمس قدمه العارية ـ الأمر كله لا يُصدق، أكثر من أن يكون

حقيقة. أخيرًا نجح في أن يحيط بالمشهد كله. فالقارب الذي وصلت به الفتيات يرسو رائعًا ومطليًّا حديثًا، مشدودًا بعد حطام قاربه الغارق ـ وهنا وقفت فتاتان صغيرتان سعيدتان، يتضح من مظهر جسديهما الذي لوحته الشمس أنهما تقضيان إجازة. كان هناك زوج من المعاطف المشمع ذات القبعة على الموضة أو ما شابه ذلك ملقيان في القارب، وكانت الفتاتان لا ترتديان شيئًا سوى لباس البحر، تستعدان للغطس برأسيهما في الماء.

نظر ماتيس إليهما بسرعة. لا ينبغي أن يفعل شيئًا غبيًّا الآن. إذا أفسد هذا سوف يستغرق الأمر منه وقتًا طويلًا لتجاوزه.

قال ليبدأ وهو ينظر عبر الشواطئ البعيدة: «يبدو كما لو أن أحلامي وأمنياتي تصبح حقيقة». لا يجب أن يحدق فيهما.

وخلص إلى نتيجة غير متوقعة: «لقد حلمت بأشياء قليلة تمامًا في واقع الأمر».

نظرت الفتاتان إليه مندهشتين.

«فعلًا؟»

قال: «نعم، لكن لا تسألاني عن أكثر من هذا، فأنا لم أخبر أحدًا».

قالت إحدى الفتاتين: «لا، وهو كذلك، فنحن لدينا أحلامنا، لذلك فنحن نعرف ما الذي تشبهه».

ونظرتا عليه نظرة حانية.

قال مرة أخرى بصورة غير متوقعة: «لكني لم أر الكثيرات مثلكما». عليه أن يكون صارمًا. قال: هناك مجموعات كثيرة منهن هنا على الطريق في الصيف! على الشاطئ وفي كل مكان. لا ينبغي أن تشغل تفكيرك...

توقف. نظر إليهما فقط بتحدٍّ. شعر أنه كان على حق أن ينظر إليهما، طالما كانت نظرة غاضبة متحدية.

استمرتا مبتسمتين بحنان كما كانتا.

قالتا: «أوه، نحن نعرف هذا بالفعل، لم نفكر للحظة واحدة أنك مجرد أي شخص».

نظر ماتيس إليهما سريعًا، ممتنًّا من أعماقه لأنهما لم يعرفا شيئًا عنه. مندهشًا أيضًا من الطريقة التي تكلم بها. بدون تردد، سوف يدعهما تدركانها، ونظر في عينيهما مباشرة.

لكنه ابتعد مرة ثانية، وسأل بهدوء بنغمة مختلفة: «من أي مكان على الأرض أتيتما؟»

أشارتا غير مباليتين إلى أسفل عبر الشواطئ الزرقاء الضبابية، حيث كان ماتيس غريبًا.

«مكثنا هنا لمدة أسبوعين».

قالت إحداهما: «ولأن الطقس جميل جدًّا اليوم، فكرنا في رحلة طويلة قليلًا في قارب التجديف».

قالت الأخرى وهي تغمز له: «ومن ثَمَّ قصدنا هذه الجزيرة الصغيرة لنستحم، لكن حينما اقتربنا، رأينا شيئًا ما غريبًا أيضًا».

في كل مرة أراد فيها أن يستدير وينظر إليهما، يقول صوت بداخله، لا ينبغي أن تفعل. فمازال يحدق بثبات إلى أسفل باتجاه شواطئ غير معروفة. وفي هذه الأثناء، استمرتا في قصتهما.

«ظننا في البداية أنه ثمة حادثة، لكن حينما اقتربنا، رأينا أنه لا يوجد ما

نقلق بشأنه».

قال ماتيس مقاطعًا حكايتها: «نعم، كانت حادثة من نوع غريب». شعر بسعادة غامرة لأنهما قد تألمتا. قالت إحدى الفتاتين: «حسنًا، لابد وأن هناك حادثة من نوع ما، يبدو أنك نجحت فقط مجرد أن تصل إلى الجزيرة سالمًا».

استنشق ماتيس الهواء.

أضاف بشعور حقيقي: «لا شيء لتقلقا بشأنه. ليس الآن فأنتما هنا».

قالتا: «يا لك من إنسان لطيف جدًّا».

كانت هذه الكلمات التي سيعتز بها. ظنتا أنه أجاد التصرف. ربما ببراعة.

«هل رأيتماني من قبل؟» سأل وهو يرتجف من الداخل، لكن الأمر يستدعي المواجهة. «أنا أقصد على الطريق، أو في المتجر، أو في أي مكان آخر؟»

هزتا رأسيهما. مشهد باعث على السعادة.

«نحن نعيش بعيدًا عن هنا كما ترى، ولذلك لا نعرف بالفعل أي فرد هنا».

«ولم تسمعا عني أيضًا؟»

«كيف نستطيع أن نخبرك، إذا كنا لا نعرف من أنت؟»

فكر، نصل حاد. هذا نوع الإجابة التي يمكن أن يعطيها بعض الناس. وعلى الرغم من أنه كان ينظر عبر الشواطئ البعيدة، مازال يختطف

نظرة جانبية على الفتيات. رآهما تهزان رأسيهما. إنهما لا تعرفان شيئًا. رائع.

قال: «أنا سعيد لسماع ذلك» ـ لكن كان عاجزًا تمامًا عن القول كيف كانت سعادته غامرة.

حولت الفتاتان الأمر إلى مزحة: «كيف اكتسبت هذه السمعة السيئة إذًا؟»

بوو! ماذا يعني له إذا كانتا تمزحان في هذا. ما كان يسأل عنه بدا من ناحية أخرى مثل قضية حياة أو موت في هذه اللحظة.

سألتاه: «ما الذي تنظر إليه هناك على البحيرة طوال الوقت؟»

أجاب سريعًا: «لا أحد. لا شيء على الإطلاق».

«لابد أن هناك شيئًا ما».

قال بجدية: «ليس الأمر هكذا، لكنني مفتون بشكل خطير».

بدا أن كل الابتسامات قد تلاشت، كل الغمزات، أيضًا، أطبق الصمت تمامًا على الفتاتين. إنها الطريقة التي نظر بها ماتيس. قالت إحداهما برقة: «هل أنت خائف أن تنظر إلينا؟»

أجاب بصوت خافت بدون أن يتحرك: «إنني مفتون جدًّا».

هي لم تكمل. انكشف قلب ماتيس ووحدته. نظرت الصديقتان إلى بعضهما البعض مرتبكتين. أدى بهما صوته، وجهه، عيناه إلى أي شيء يشبه القهقهة في ذهنهما. كانتا مرتبكتين، وكانتا منزعجتين.

قالت إحداهما محرجة: «نستطيع أن نذهب ثانية إذا أحببت، نجدف إلى الشاطئ ونجلب لك بعض الناس ليأتوا لمساعدتك مع قاربك».

صاح متمسكًا بهما: «لا، لا!»

وجدت الفتاة الأخرى حلًّا: «تعالي يا آنا، دعينا نذهب ونسبح كما قلنا. إنها مناسبة تمامًا هنا الآن».

أجابت الفتاة المسماة آنا: «نعم، دعينا نفعل». بدا أنها وجدت مخرجًا. «سيكون هذا رائعًا».

صاحتا من فوق كتفيهما إلى ماتيس: «وداعًا الآن!»

وغاصتا حينئذ في مياه الصيف الدافئة. واندفعتا إلى الأمام في حركة حرة سلسة لسمكتين تنسابان بعيدًا. راقبهما ماتيس قانعًا.

فكر وهو يرتعش من الفرحة، وسيتعين على كلتيهما أن تعودا. عليهما أن تعودا لقاربهما. ستعودان إلى الجزيرة.

قال بصوت منخفض وهو يراقبهما تسبحان بعيدًا عنه: «لا أجرؤ على التفكير». كانتا هناك منهمكتين في الثرثرة. وبعد مسافة قريبة، توقفتا ولوحتا له.

«أهلًا!»

لم يتحرك ماتيس. لكنه رفع حينئذ يده بحركة متيبسة متشنجة، وخفضها ثانية بخجل. كانتا عائدتين الآن باتجاهه في دوامة من المياه، مبتهجتين وواثقتين مرة أخرى.

«يجب أن تسمح لنا بإرجاعك إلى البر وإنقاذ حياتك!» هكذا صاحتا به ـ وهما تطآن الماء وترشانه وتدفعانه حولهما بأصابع قدميهما في الهواء.

عاد ليصرخ في الحال مرعوبًا: «إنه طريق طويل!» وفي الوقت نفسه بعثت كلماتهما شعورًا بالإثارة والمتعة تسري من خلاله مرة ثانية.

أجابتا وهما تبقبقان بالفقاعات وتبصقان الماء من بين شفاههما الحمراء: «أنت قضيت اليوم بطوله قبلنا، إذا أخبرتنا اسمك، سوف نعود بك إلى البر، سوف نجدف بك عائدين إلى البر، وسوف نضعك على الشاطئ برفق كما لو أنك مصنوع من زجاج».

هز رأسه. لكنهما ما كانتا لتستسلما. كانتا تمرحان مرحًا شديدًا، تسبحان حول الجزيرة، تناديان عليه، وتتحدثان عن نفسيهما.

«اسمي آنا، وهي إنجر. إن الأمر بهذه البساطة. والآن هو دورك».

هز رأسه.

«لا! قلت لا».

«وهو كذلك إذًا، يمكنك أن تظل هنا مستمتعًا حتى تغير رأيك، أنت أيها الحمار العنيد»، هكذا قالتا ومضيتا يرشرشان حولهما.

صاح فيهما: «أنتما لا تعرفان أي شيء! اصمتا! هل تسمعان! لا حاجة لقول أشياء مثل هذا».

لم تفهماه وابتعدتا ترشرشان وتغوصان وتلهوان.

فكر، لا ينبغي أن يتركاني. لا يجب! إنها فقط مجرد هذه المرة. لكنه أحنى رأسه واستعاد الأمر كله: ربما من الأفضل إذا ذهبتا بالأشياء كما هما الآن. إنهما لا تعرفان شيئًا عني إلى الآن.

لقد خرجتا من الماء تلقفان أنفاسهما، وطرحتا شعرهما إلى الوراء، وأخذتا بعض المناشف من القارب، وجففتا أنفسهما، واستلقيتا في حمام شمس مباشرة بعد المكان الذي كان ماتيس يجلس فيه ـ كانت الجزيرة أصغر من أن تختارا.

قالت إنجر: سوف تعذرنا، لكن لا يوجد مكان للاختباء فيه على هذه الجزيرة، وتوجد صخور حادة في كل مكان فيما عدا هنا. ستضطر للإقامة معنا».

وبعد ذلك، نعست كلتا الفتاتين. وسطعت الشمس عليهما. وتنسم ماتيس الرائحة الطيبة التي انبعثت.

بداخل ماتيس كانت الرياح مستثارة. لم يستطع أن يتحرك. لم يستطع القفز إلى القارب، لأنه رقد في القاع ممتلئًا بالماء. وفتش يائسًا عن قارب آخر يمكن أن يلوح له.

قال الصوت بداخله، شكرًا يارب.

عرف وهو حائر كما كان، أنه لن يفقد هذا من أجل أي شيء. لم تتحققا من معرفته، فهو يستطيع أن يجلس هنا ويصبح شخصًا آخر. وبتأثير ذلك استسلم للإغراء ونظر إليهما طويلًا وهما راقدتان في نعاسهما.

ماذا كان ذلك؟

كان الأمر كله غريبًا. غير معقول.

لا يمكن أن يستمر أيضًا.

تنسم الأريج الفواح، عرفت عنه دائمًا.

بالفعل يرى ذلك.

وسرعان ما بدأ بعد ذلك: رأى آنا تنظر إليه من زاوية عينها ـ كانت العين القريبة منه تختلس النظر من خلال ركن شبه مغلق. ارتد كما لو أنه قد لُسِع.

لم أكن مفتونًا إلى هذا الحد من قبل. ما الذي ستقوله هيج الآن؟

ثارت فيه الرياح بلا هوادة. لم تتحرك واحدة. الجسدان العاريان يبعثان بعبيرهما الجذاب.

بعد حين، تحدث ماتيس، وسرت قشعريرة في عموده الفقري: قال: «بير». لم يكن موجهًا إلى واحدة على وجه الخصوص.

فتحت «آنا» عينيها على اتساعهما، ونهضت قليلًا، إلى جواره.

«ماذا قلت؟»

«بير».

كانت مروعة، لكنه فعلها، لم يستطع أن يقاومها أكثر من ذلك.

بدا أن إنجر أسرع من آنا. جلست قليلًا. عرفت مباشرة ما الذي يتحدث عنه ماتيس.

«لذلك اسمه بير. فهو أخبرنا إذًا على أية حال، مثلما ألححنا في سؤاله عن اسمه».

امتدت ابتسامة عبر وجه آنا.

«بالطبع! أهلًا ها هو بير. لطيف أن تخبرنا أخيرًا».

أومأ ماتيس مرعوبًا على نفسه.

قالت آنا: «الآن نحن سنجدف بك إلى الشاطئ. الوعد هو الوعد. لكن دعنا نمكث هنا ونستمتع بأنفسنا أطول قليلًا أولًا، أليس كذلك بير؟»

أجابت عنه إنجر: «نعم، بالطبع». كانت طريقة مرعبة التي رأت بها إنجر ما يدور في عقله واستطاعت أن تخمن رغباته. شعر ماتيس كما لو أنه يسير في الهواء.

بدأ يقول: أفكر فقط، إذًا هيج...»، وتوقف منهيًا.

قال: «لا شيء!»

لكنهما سمعتا بالفعل.

«من هي هيج؟ رفيقتك؟»

«رفيقتي؟ لا، أختي. لكنها ليست مثل...»، ومرة ثانية توقف قاطعًا الكلام.

«لا شيء على الإطلاق، اسمع! تسير الأمور على نحو تام بالبيت بالفعل، طالما أنت متوقد الذهن وهيج كذلك».

قالت إنجر: «أنا واثقة أنها كذلك».

قالت آنا: «نعم، بحق السماء! إذا كان المرء فقط متوقد الذهن فطن حقيقة طوال الوقت، سوف تسير الأمور بسلاسة حينئذ».

قال ماتيس وهو يلعب بالكلمات الخطرة: «نعم، لذا تشعران مثل سكين مشحوذ حديثًا».

أجابت كلتاهما معًا: «أوغ، نعم!»

كن حذرًا الآن ماتيس، بدا أن الصوت المنذر في الخلفية يهمس له أيضًا ـ لكن هذا لن يحدث ثانية. لا ينبغي أن أتصرف مثل هذا، وأخدع الناس. أنا أعرف أنه لا ينبغي. لكن هي فقط هذه المرة.

قال بصوت عالٍ وجاد: «ما تم لا يمكن ألا يتم».

قالت إنجر بأناة: «نعم، أيضًا هذه ملحوظة حادة الذكاء».

هل كانت تلك هي السعادة؟ السعادة أتت إليه على جزيرة جرداء صخرية، بدون أي إنذار. لم يبذل أي شيء لاستحضارها. بمقدوره حتى أن يبدي ملحوظات حادة الذكاء.

هناك، استلقت الفتاتان، غير شاعرتين بأي قدر من الخوف منه. كانتا قريبتين منه، يمكنه أن يضع يده ويلمسهما. كانت الشمس تلونهما بالبني الذهبي من أجله، كانت تسطع عليهما لمدة أربعة عشر يومًا. وهذا أمر غير معتاد.

قال بصوت ناعم: «آنا وإنجر». قال اسميهما للمرة الأولى.

رفعتا نفسيهما على مرفقيهما، تحت تأثير الجدية التي كست صوته والبريق الذي لمع في عينيه.

قالتا بترقب: «نعم؟ نحن نستمع».

لو أن أحدًا قد نطق أبدًا اسميهما بهذا التأثر، فهو الآن. أجابتا مباشرة بتواضع: نعم، نحن ننصت. هذه لم تكن لحظة عادية.

وكان ماتيس هو سيد الموقف بالكامل. جلس ينظر إلى الفتاتين. تكلم برقة ليتجنب أن يخل بأي شيء.

«هذا كل ما هناك».

مع هذه الكلمات بدا أن كل شيء قد قيل. بدا أيضًا أن الفتاتين قد شعرتا أنه قال الشيء الذي كانتا تتشوقان أكثر شيء لسماعه. صاغه في الشكل الذي قبلتا به.

قالتا بدورهما: «بير». نظرتا إلى وجهه البائس الذي أصبح فجأة متحولًا. وعلى الرغم من الهيئة التعيسة الصعبة، كان هناك شيء ما فيه

جميل فيما يتعدى الوصف. لم تتأثر أي منهما.

لا يمكن أن يستمر الأمر. عرف ماتيس أنه لا يمكن. فالرياح التي كانت تتوعد في الخلفية بدأت تلحق به. ينبغي أن يكون قويًّا ويغادر سريعًا.

«آنا وإنجر»، هكذا قال بنغمة صوت جديدة جعلتهما تشعران بالاضطراب.

سألت آنا بقليل من الخوف: «ما هذا؟»

قالت إنجر: «ألا نستطيع أن نواصل كما كنا مستلقيتين هنا بشكل مريح جدًّا؟»

نظرت آنا حولها: البحيرة، الشواطئ، الضباب الأزرق، قمم التلال ـ جسمها المعطر كان دون شك من ضمن كل الأشياء. فجأة تحولت إلى ماتيس، ممتلئة بكل هذا: قالت بعصبية تحت تأثير نظرته المتفرسة: «إذا لم تكن هذه جنة تعيش فيها، إذًا أنا لا أعرف ما هي».

اندفع ماتيس قائلًا: «ليس من السهل الحياة هنا».

«ما الذي تعنيه؟»

قال: «أنتما لا تعرفان أي شيء! فأنتما جالستان هنا تفكران في شيء ما مختلف عما أفكر فيه».

اكتسى وجهاهما بمسحة من العبوس.

«عن ماذا؟»

سأل: «هل لاحظتما شيئًا غريبًا بالنسبة لي؟» لم يستطع أن يترك

الموضوع بمفرده.

قالت آنا بحزم قاطع: «نحن لا نريد أن نعرف أي شيء أكثر مما نعرفه بالفعل، بير، لذلك توقف عن هذا!»

وقالت إنجر: «نعم، توقف عن هذا!»

جعله هذا يصمت، وليس هو فقط: وضع حدًّا للهمس في الخلفية بالمثل. لم يكن بحاجة إلى أن يكون قاسيًا مع نفسه أكثر من ذلك. كم كانتا فتاتين رائعتين.

أجاب: «حسنًا، وهو كذلك إذًا، فإذا لم تقولا شيئًا، فلا شيء يُقال».

أعتقد أن هذه ملحوظة لابد وأنها حادة، أيضًا.

أومأتا، أيضًا.

بعد ذلك حدقتا ضاحكتين ـ متحررتين من شيء ما كان محرجًا لكنه مثير بالكيفية نفسها. وغمرتا أصابع قدميهما في الماء.

قالت إنجر: «نحن سعيدتان بأنك كنت هنا على الجزيرة اليوم».

نظر ماتيس إلى آنا، بترقب.

قالت آنا سريعًا: «وأنا أيضًا».

قال ماتيس، غير مبالٍ: «وأنا أيضًا».

قالتا له، تُعمِّيانه تقريبًا مرة أخرى: «والآن سوف نجدف عائدات مثل بنات لطيفات كما نحن».

٢٢

دفعت آنا وإنجر قاربهما إلى الماء. تمدد هناك يتمايل إلى أعلى وأسفل قويًّا متينًا، فقط يلامس السطح، فهو خفيف حينما يكون فارغًا.

«هيا، بير».

قال ماتيس مشيرًا إلى الحطام الذي تغمره المياه: «لكن ماذا عن ذلك؟ ينبغي أن آخذه معي، وإلا فلن أخرج للبحيرة مرة أخرى».

«لكن كيف يمكنك أن تفعل هذا؟»

عرف ماتيس كيف. ففي مثل هذه الأحوال يكون واثقًا تمامًا.

قال: «سأتولى القيادة، لكن يجب أن تنفذا على وجه الدقة ما أقوله».

وقف مشبعًا بالامتنان لما قد حدث. أخبر الفتاتين أن تنزلا إلى الماء، ثم يهزون كلهم القارب إلى الخلف وإلى الأمام بحيث تتدفق المياه من الجانب. نجحوا في أن يفعلوا ذلك بالطريقة التي أرادها تمامًا، وأخرجوا بعضًا من الماء، ومن ثَمَّ بدأ القارب الصغير يطفو. جعلهما بعد ذلك يهزان القارب بنفسيهما بينما يسحب هو حبل المرسى.

جاهدتا وهزتا وجذبتا ـ وفي النهاية أخرجتا القارب إلى منتصف الطريق إلى الماء.

أحبت الفتاتان هذا العمل الضخم، ضحكتا وضحكتا، ومضتيا تبحثان عن غرافة مناسبة لتنزحا القارب بشكل صحيح. ظل هناك ثقب باقيًا

على أحد الجانبين، لكن ماتيس فكر في شيء ما في الحال، وجذب أحد جوربيه، ووقف يحشره في الفتحة بسكينه.

قال: «هذا سيعمل طالما أن لا أحد به، فهذا المكان سيظل فوق الماء حينئذ».

شعر بدوار هادئ، وأخذ يشغل نفسه بكل هذا تمامًا تحت أعينهما، وينجح كذلك.

وقالت آنا أيضًا: «نرى أنك تعرف الكثير عن القوارب».

ضحك ماتيس بافتخار.

قال: «فقط انتظرا قليلًا».

كان لديه سر عظيم سيبوح لهما به سريعًا: كان خبيرًا في التجديف، أيضًا. وكان بسبيله إلى أن يصر على أخذ المجاديف.

كان قاربه مربوطًا إلى قارب الفتاتين بحبل المرساة. وجلست إنجر بالفعل ممسكة بالمجاديف بطريقتها المعتادة.

قال ماتيس: «أوه لا لست أنت، أنا من سيجدف بالطبع».

«بالفعل؟»

يا لها من لحظة!

«نعم، ربما أنا أعرف أكثر عن التجديف!»

«حسنًا، بالطبع، إذًا من الواضح أنك أفضل في التجديف. إلى جانب أنك رجل».

قال: «هذا حقيقي».

أضاف: «وأنا أعرف الكثير عن سد الثقوب». قالت آنا: «نعم، لا شك في أنه يجب أن تفسحي له الطريق، إنجر».

جلست إنجر إلى جانب آنا في خلف القارب. وأخذ ماتيس باعتباره السيد المجدافين.

قال للفتاتين: «لم أرد أن أخبركما عن ذلك في الحقيقة». شعر بأنه واثق من نفسه في هذه اللحظة، فكذبة جديدة لا تهم بالفعل.

«حول ماذا؟»

«التجديف بالطبع».

كان ماتيس يتشدق بثقة. لم يكن أبدًا سعيدًا من قبل بقدرته على التجديف. لقد شعر حتى أنه يُعد نفسه من غير الأكفاء عند اللزوم. بدأ بضربات طويلة ثابتة.

قال: «نوع لطيف من الشغل».

«قاربنا؟»

«نعم، بالطبع».

سأل حينما توافر الوقت له ليفكر في الأمر: «أي شيء آخر؟»

ضحكتا وهدأتا وشعرتا بالبهجة.

«لا، لاشيء آخر، بالطبع لا».

قالت إنجر: «حسنًا، تستطيع أن تنزل في أي مكان تحب، نحن لسنا في عجلة على وجه الخصوص، كل ما نريده هو أن نرجع البيت على موعد العشاء، ونحن هنا نلهو بتكاسل على أية حال».

رد ماتيس باقتضاب: «لقد حددت مساري».

هذا هو ما يجب أن يكون. هذا هو ما ينبغي أن يكون قادرًا على أن يقوله عن أشياء كثيرة ..أنا أعرف عن كل هذا. و..أنا حددت مساري. وأكثر من ذلك. تثاقلت ضرباته وأصبحت غير منتظمة.

صاحتا به: «مهلًا، استيقظ!»

بدأ في الانطلاق. نظرت الفتاتان بميل إلى مداعبته.

«أنت يغلبك النوم دائمًا، بير».

قال وهو يكبت حلمه: «أوه انفجار».

يتمايل القارب مسحوبًا خلفهما يتقافز، تمامًا وراءهم طالما لم يكن فيه أحد.

نظر ماتيس إلى الفتاتين. لم تكن لديهما فكرة عما فعلتاه به اليوم.

قال من أعماق قلبه: «آنا وإنجر».

نظرتا إليه بترقب. كانت هي نغمة صوته. لكنه لم يقل أكثر من ذلك.

«الآن تأكد أنك تجدف على خط مستقيم على التوالي بعد كل هذا التفاخر»، هكذا قالتا وهما تلعبان بأصابع قدميهما في قاع القارب. شعرتا أن هذا الشخص الغريب يعمل على امتداحهما لشيء ما، وانصرف شعورهما بالبهجة وانخفض مباشرة إلى أصابع قدميهما.

«أنا دائمًا أجدف بالتوالي مباشرة، إنه الشيء الوحيد الذي أستطيع أن أفعله»، هكذا اندفع ماتيس، وانطلق ـ لكن لحسن الحظ لا يبدو أنهما قد سمعتا هذه الملحوظة المتهورة الأخيرة.

قالتا: «إذًا إلى اليمين».

في البداية ولى ماتيس وجهه صوب البيت مباشرة. فكر بعد ذلك في خطة أفضل: سوف يجدف حيث يوجد ناس. أراد أن يشاهدوه مع الفتاتين، هذه فرصة لا ينبغي تفويتها. سوف يرسو عند الرصيف القديم إلى جوار المتجر، حيث يوجد حوله الكثير من البيوت. يفترض أن يكون هناك أشخاص يسيرون قريبًا، ويشاهدون هذا الرسو غير المعتاد.

فكر، سوف أصل مثل أمير. قد يأتي كل من يرغب ويشاهد.

أعلن: «سوف نجدف إلى الرصيف إلى جوار المتجر، حيث أقوم بالتسوق أولًا، من المفترض أن يكون هناك أناس سوف يروننا».

سألتا معًا: «أناس سوف يروننا؟ وما الذي يعنيه ذلك؟»

لم يفهم.

سألت إنجر وهي تغمس طرف أصبع سبابتها في الماء بتكاسل وهم على القارب: لا تقل لي، أنت خيالي بير؟»

قال مندهشًا: «خيالي؟»

رأى آنا تعطي إشارة إلى إنجر. قالت إنجر سريعًا: «سوف نرسو بالطبع في المكان الذي يناسبك، لا جدال في هذا».

وخلف ماتيس يتمدد القارب مستقيمًا مثل ميت. الآن تأرجح مستديرًا حينما غير الاتجاه إلى المرسى والناس. ومن فوقه ارتفع النهار مثل قوس هائل.

لن تصدق هيج كلمة واحدة من هذا حينما أعود إلى البيت. كان ينبغي أن أجدف بهما إلى هناك كذلك بالفعل. لكن الوصول إلى رصيف مثل

هذا هو على قائمة الأولويات كذلك بالمثل.

«على قمة الأولويات»، هكذا قال بصوت مرتفع، عامدًا أن يجعله صوتًا لا معنى له.

«ماذا تقصد بير؟»

«اليوم هو بالطبع يوم كل الأيام».

الأشياء تجري بشكل صحيح داخل رأسه.

قالتا: «قول لطيف جدًّا». واستمرتا تمتدحانه على الأشياء التي قالها.

قالت إنجر: «سوف نتذكر أيضًا هذا اليوم بير».

لكن كلماتها ألقت بالظلال على ماتيس. نتذكر. كانتا بسبيلهما أن تذهبان، ستتذكران هذه المقابلة في مكان آخر، في مكان غريب، بدونه. هذا ما لا يجب أن يكون!

بدأت الفتاتان تبديان اهتمامًا وثيقًا به الآن، وسألت آنا في الحال: «هل من شيء خطأ؟»

جذب المجدافين بقوة كبيرة، ثم مرة أخرى. تأكدت إنجر في الحال ما ينبغي أن تقوله.

«بالتأكيد أنت ترين أنه لا يوجد شيء يهمه، آنا».

فكر ماتيس في أنها فتاة بارعة بالفعل، وتفرس مبتهجًا في إنجر.

نعم، هو كان ينظر مباشرة إليهما الآن ـ حتى على الرغم من أنهما كانتا عاريتين تقريبًا. تلاشى الخجل الذي شعر به على الجزيرة، كانتا مثل صديقتين قديمتين الآن.

قال من حيث يجلس: «آنا وإنجر».

انتظرتا.

لا شيء أكثر. هذا يكفي.

كان الرصيف والمنازل تقترب سريعًا. زاد ماتيس من السرعة، فمازال المزيد. كان اختيارًا صعبًا: إذا هو جدف ببطء، ستدوم ربما هذه اللحظة الرائعة أكثر ـ إذا هو جدف بسرعة عالية، ستذهب الفتاتان سريعًا، لكن ستتذكران السرعة العظيمة التي جدف بها. اختار الأخيرة، لكل شيء حساباته.

سألت الفتاتان في بهجة: «يا إلهي! نحن نمضي حتى أسرع، بير؟»

هو أخذ بالاختيار الصحيح.

قال ماتيس: «نحن لا يمكننا أن نذهب سريعًا، لكنكما لن تفهما هذا. الآن انظرا وأنتما تواجهان هذا الطريق، وانظرا إذا ما أمكنكما أن تركزا على أي شخص على الرصيف، أو على الطريق المجاور له».

«لا نرى أي أحد، لكن نحن بعيدون جدًّا».

رأت آنا شيئًا: «هناك سيارة تمضي».

قال ماتيس: «السيارات لا تحصى، إنها فقط تندفع بدون أن ترى أي شيء».

بعد فترة قصيرة، قالت آنا من موقعها الكاشف: «يوجد رجل واقف على الرصيف الآن ـ لكنني لا أستطيع أن أرى أي طريق يواجهه».

أضافت إنجر: «خرج شخص ما للتو من المتجر، بير. يبدو كما لو أنه سيكون هناك استقبال».

«الآن ذهب كلاهما، بير».

كان ماتيس يُرش بالمعلومات. جاهد وبذل جهدًا مع المجدافين، بأكثر مما هو في صالحه. لكن كان عليه أن يجعل هذا الرسو يبدو مثيرًا للإعجاب، مهما كانت التكلفة. لن يحدث أبدًا في الحياة كلها أن تُتاح له هذه الفرصة للوصول بمثل هذا الأسلوب، مع فتاتين متألقتين تجلسان في القارب.

قالت آنا: «رآنا الناس الآن، هناك فتيان يقفان يحدقان بنا. نستطيع أن نرى الأشياء أفضل الآن، كم هي كبيرة، وأي طريقة يواجه بها الناس بعضهم البعض، وكل شيء».

قال ماتيس: «آه، فتيان، نحن لا نريد الكثير جدًّا منهم».

«شخص ما على دراجة قد توقف حالًا».

«لا، إنه ذاهب إلى المتجر».

قال ماتيس بجدية: «أوه حسنًا. مازالت هناك أشياء بدأت تحدث». كان قد بدأ يشعر بالإجهاد الشديد، ذراعاه مخدرتان. فالتجديف السريع بمثل هذه الصورة لم يكن مكمن قوته، لكنه لم يكن ليستسلم الآن. نظر نظرة سريعة من فوق كتفه، فرأى عددًا من الناس على مرسى الرصيف. وحول حينئذ كل اهتمامه أن يحتفظ بالميت الممدد في خط مستقيم حتى النهاية.

توقف مزيد من الناس وبدأوا يتجمعون على الرصيف الآن ـ حينما رأوا أنه سيمون العبيط، لكن سيمون العبيط هذا غير الشخص الذي عرفوه. كان رسوًّا يستحق التوقف من أجله: مثل نصر مظفر من الشواطئ البعيدة،

أتى القارب الساطع تحت الشمس المتوهجة، وفي الخلف جلست فتاتان لوَّحتهما الشمس، تلوِّحان بتكاسل في اتجاه مرسى الرصيف. وكان ماتيس في الصدارة، يعرف كل شيء عن التجديف، يقود بأمان وأمن، أي شيء سوى العبط.

كل شيء كان يمضي على وجه صحيح، حتى إلى آخر تفصيل.

مازال قارب ماتيس مشدودًا، لكن وصله بعض الماء، مما جعل المضي أصعب. رغم ذلك نجح ماتيس في المحافظة على سرعته حتى أصبح مضطرًا للدوران ليتجنب المؤيدين تحت الرصيف. لم يتأكد أحد من المشاهدين كيف شارف على الإنهاك ـ لكن على أية حال، كان يستعيد قوته الآن، في الإثارة المطلقة والمتعة من كل هذا.

كان هناك تجمع صغير تمامًا ينتظر على الرصيف لاستقباله. خمسة أو ستة على الأقل. وكم عدد من يمكن أن يحكي لهم هؤلاء الستة القصة فيما بعد! هنا مربط الفرس. ستة مضروبة في ستة في ستة في ستة، على الأقل.

كان ماتيس لديه الوقت ليفكر في الكيفية التي سيطوق بها الأمر كله، والآن وصلت اللحظة. وحينما انزلق القارب تجاه حافة الرصيف، نهض السيد بوقار من مقعده وألقى المجدافين إلى جانبيه.

قال بهدوء: «حسنًا، سوف تتوليان أمركما الآن يا فتيات»، لكنه قال بصوت عالٍ بما يكفي أن يسمعه كل فرد: «وصلنا البر».

جاء رد عفوي من أحد الصبيان: «أظن أنهما يريان هذا بنفسيهما». لكنه صمت في الحال عن طريق صوت من الجمع.

«أوه، اخرس!»

استمر ماتيس ملتفتا إلى الفتاتين: «الآن، أريد فقط أن أستعيد قاربي».

كانت هناك ابتسامة مشرقة على وجهي الفتاتين.

وقف الجمع الصغير على البر مبهورين، لا يجرأون على التحرك. كان السبب الأول هو الفتاتان الواثقتان من نفسيهما، لكن لم يكن مجرد هذا ـ سيمون العبيط قد دبر بنفسه كل شيء بدون عقبة واحدة، وبهذه السهولة التي كان من الصعب عليهم معها أن يتعرفوا عليه. ومع ذلك حاول الصبي مرة أخرى بصوته الرنان، ووقف ينظر إلى حطام قارب ماتيس: «هل غاص في القاع، ماتيس؟»

لم يبد أن ماتيس قد سمعه. وبهدوء حل قاربه من القارب الجديد. حينئذ التفت إلى الفتاتين مرة أخرى، وقال اسميهما بالطريقة الخاصة التي يُنطق بهما: «آنا وإنجر».

نظرتا إليه، واقفًا حيث كان على حافة الرصيف، يحاول أن يسيطر على انفعالاته.

قال في وسط كل الناس: «شكرًا على الرحلة». لقد كانت بالنسبة له خبرة جديدة تمامًا أن يقف هكذا ويقول أشياء مثل تلك لأناس مثل هؤلاء.

قالت الفتاتان الذهبيتان، آنا وإنجر: «شكرًا لك بير، لن ننسى هذا أبدًا».

فكر، أعتقد أنني أُفضِّل أن أموت الآن. لكنه راجع نفسه. لا، مع الأفكار ثانية لن أقدر حينئذ على الاستمتاع بها أكثر من ذلك.

صاح الصبي بقوة: «بير؟ ليس اسمه بير على الإطلاق. هذا هو

ماتيس».

شعر كأنه تلقى طعنة في الظهر ـ لكن ليت الأمر توقف عند هذا الحد. لو لم يفش الولد الحقيقة الكاملة: إنه سيمون العبيط. هذا هو اسمه الذي نناديه به. يا إلهي لا يجب أن يقولوا هذا.

عد الثواني.

وتم انتشاله. فكر، لابد أنها آنا وإنجر هما من فعلتا ذلك. كانتا واقفتين في القارب الآن، شابتين متألقتين، ومنحازتين تمامًا إلى صفه، تنظران ببرود إلى الصبي في كل مرة يفتح فيها فمه.

قالتا بفخر لتوقفا الشاب البائس في مكانه وتخرسانه: «ماتيس أو بير، الأمر سيان عندنا».

لفتا ذراعيهما بحركات متمايلة: «وداعًا إذًا، بير، وشكرًا. سنعود إلى البيت الآن أيضًا. ربما سنتقابل ثانية يومًا ما».

ابتعدت الفتاتان. وقف ماتيس يزدرد. لكنه رفع رأسه إلى أعلى. كان عليه أن يذهب بعد ذلك ويربط الهيكل المتهالك بخطاف من حديد.

لم يسأل الأفراد الخمسة أو الستة الذين كانوا يقفون أية أسئلة، شيء ما ألم بهم. كانوا محرجين نوعًا ما. حتى أن أحدهم قال لماتيس: «إنهما تلوحان لك».

اعتدل ماتيس سريعًا وأخذ يلوح. سرعان ما صار القارب أصغر. كانت الفتاتان بارعتين أيضًا في التجديف، لكن بالطبع كان الأمر أسهل الآن.

بعد ذلك، أقدم شخص ما من التجمع بشجاعة: «حسنًا، لقد شاركت

بنفسك في شيء صحيح، ماتيس».

لم يجفل ماتيس.

قال: «نعم، فعلت».

عاد الصبي إلى الحياة ثانية: «هل ستذهب لتأخذهم في أية رحلات أخرى إذًا؟»

أجاب ماتيس بهدوء: «ربما».

صدق هذا. فبمجرد أن قالها أصبحت حقيقة. لماذا لا يحدث هذا ثانية؟

أضاف وهو ينظر مباشرة إلى الصبي: «لقد فعلنا كل أنواع الأشياء اليوم».

ضحك شخص ما، لكنها لم تكن ضحكة كريهة. على الأقل لم تبد كذلك لدى ماتيس. لقد انتهى من هنا، ويستطيع أن يذهب. كان الناس على الرصيف أصدقاءه، كانوا ودودين ولم يكشفوه. ولم يستطع أن يمشي مع ذلك، كان الأمر أكثر، كما لو كان قد وُلِد في منزل هيج على جناحين. في الطريق داوم النظر على البحيرة: القارب نفسه أصبح أصغر وأصغر.

٢٣

هدأت الإثارة قليلًا مع الوقت الذي وصل فيه البيت. وبعد قليل، كان قادرًا أن يحكي القصة كلها بطريقة منظمة. اختفى القارب السعيد خلف ألسنة الأرض الزرقاء ـ تأكد ماتيس أنه ذهب من أجل أمر طيب. ستغادر

الفتاتان، ولم يكن من المحتمل أن يقابلهما أبدًا مرة أخرى.

لكن في الوقت نفسه، كان الحدث حقيقيًّا وعظيمًا لا سبيل إلى إنكاره. لم يكن الأمر بحاجة إلى إضافة كذبة صغيرة إلى ما كان سيخبر به أخته، الحقيقة نفسها كانت أكثر من كافية. بدت هيج مشغولة أكثر من المعتاد في حياكتها حينما أنصتت إليه، ترد فقط بالهمهمات المعتادة.

سأل: «أنت تنصتين، أليس كذلك؟ لأن مثل هذه الأشياء لا تحدث إلا مرة واحدة في حياة المرء كما تعرفين».

أجابت: «بالطبع، سمعت كل كلمة، يمكنني أن أكررها لك كلها».

في هذه اللحظة، كان يفتقد المعنى الحزين للمرة الواحدة وعدم تكرارها. مازال يستعمله ليضفي بريقًا ذهبيًّا على الحدث.

مضى في القصة. حدث له وللفتاتين عدد لا يُصدق من الأشياء. أنصتت هيج بتعبير من الرضا كسى وجهها. شعر ماتيس بقليل من التوتر من حقيقة أنها استمرت في الحياكة كما كانت تفعل من قبل. إنها لا تقوم بالحياكة أبدًا في أيام الآحاد ـ وبالتأكيد أنه كان أمرًا مهمًّا مثل أهمية يوم الأحد. قال في النهاية: «ألا يمكنك أن تتركي هذا السويتر قليلًا؟»

«من أجل ماذا؟»

«إنه نوع يشبه يوم الأحد بالنسبة لي».

تركت السويتر يسقط على حجرها، وركزت على الإنصات. لقد وصل إلى نقطة حاسمة. أخبرها، وهو مشبع بالامتنان، عن كلمات آنا وإنجر فيما يخص الوداع.

قالتا: «لن ننسى هذا». قالتا: «بير أو ماتيس، الأمر سيان عندنا».

لا، لن تأتي آنا وإنجر إليه في طرف البحيرة ثانية. لكن ماتيس يعيش بالأحرى في عالم مختلف عن ذي قبل. شعر أنه واثق أكثر، مشى على الطريق بثقة أكبر، دخل إلى المتجر بطريقة مختلفة. عرف كل فرد ما حدث، يمكن قول ذلك من النظر إليهم. فالستة الأوائل قاموا بعملهم بالصورة الصحيحة، وكل شيء آخر يتبع وفقًا للاتفاق.

كانت هذه هي الطريقة التي مضت بها الأشياء في المتجر الآن: قام البائع بوزن الكيس الصغير للقهوة، وسأل عرضًا، وعينه على الميزان: «خرجت للتجديف مرة أخرى؟»

كانت إجابة ماتيس مختصرة وعفوية أيضًا، لكنه كان يضحك بداخله. كانت هذه هي الطريقة التي يتحدث بها عن الأحداث العظيمة. لا يمكن إنكار أن هذا هو البائع نفسه الذي كان يقول التعليقات من خلف ظهره مؤخرًا، لكن عليك أن تتجاهل ذلك. فهو قد حرص حرصًا شديدًا أيضًا على ألا يشتري أية حلوى من هذه في الزيارات الأولى ـ فما أخبار حبات حلوى الكافور الآن؟ مشى من خلال الباب مع قهوته والسكر مثل حطاب من الغابات البرية.

سمع بعد ذلك أن آنا وإنجر قد رحلتا بالفعل ـ قابل أناسًا من المكان الذي كانتا تقيمان به، واستجمع شجاعته وسأل. انتهت إجازتهما.

٢٤

في مكان الفتاتين جاءت الرياح التي كانت حتى الآن لطيفة لا تعوق الطريق. سوف تأتي عاجلًا أو آجلًا. جاءت في اليوم الرابع بعد المغامرة في البحيرة.

لاحظها ماتيس في اللحظة التي خرج فيها من المنزل: فالجو الثقيل الغاشم لا يمكن أن يخطئه ولو قليلًا. كانت السماء مظلمة ساكنة. يمكن بالطبع ألا تعني سحبًا مثل هذه أكثر من أمطار، ومع ذلك... كان لدى ماتيس الشعور نفسه بالظلمة في جسده، وحينما حدث ذلك عرف ما كان مخبئًا. بدا أن كل الطاقة تتسرب منه. وفي الوقت نفسه لاحظ التعبير المرتسم على وجه هيج.

مضت هيج، كما لو أنه لا شيء يحدث.

أخيرًا صاح: «ألا ترين!»

«لا أستطيع أن أرى أي شيء غير عادي»، هكذا أجابت، ومضت ترتب المنزل. «ما هذا الذي تراه إذًا؟»

«العاصفة الرعدية».

قالت: «آه، أهذا كل شيء».

مضى ماتيس إلى خارج البيت وداخله. خلال كل السنين التي كان خائفًا فيها من العواصف الرعدية، تعلم أن يتعرف على الكثير من

العلامات الغريبة التي اعتاد اليوم أن يُقيّم بها الموقف. كان أكثرها صدقًا الشعور بالظلمة بالخارج وبداخله.

قالت هيج تطمئنه: «لن يأتي أي شيء، أنت تعرف. سرعان ما ستصفو ثانية تلك العاصفة من داخلك».

قال: «لا يمكن أن تسفهيني مثل ذلك اليوم. فأنا لم أر الجو يبدو مجللًا بالسواد هكذا من قبل».

وبمجرد أن تكلم، كانت هناك دمدمة خافتة للرعد. مازال الرعد مستغرقًا في نومه، لكن فقط مجرد تهديد. شعر ماتيس بالحرارة من جميع الاتجاهات.

«هل تسمعين هذا؟»

قالت هيج: «نعم، أسمعه، لكن ذلك قد يكون نهايتها. حاول واهدأ الآن. ابق هنا قليلًا هذه المرة، إنه آمن تمامًا، سوف ترى لو لم يكن كذلك».

«أنا متأكد أنها قادمة مثلما أنا متأكد أنك تقفين هناك تغسلين الأكواب. أنصتي!»

دمدم البرق مرة أخرى، أعلى قليلًا هذه المرة... بالطريقة التي يكون دائمًا عليها.

قالت هيج: «اهدأ، انتظر قليلًا مع ذلك».

قال ماتيس مرة تلو أخرى بعصبية: «لماذا لا تأتي معي بدلًا من ذلك؟»

«بالتأكيد لا. انتظر الآن».

في هذا الموقف يكون ماتيس أصمَّ إزاء كل المناشدات وكل نصيحة مفيدة. تحول وجهه إلى اللون الرمادي، وآوى بالفعل إلى ملجئه الذي يستعمله دائمًا أثناء العواصف الرعدية. كان المرحاض هو أكثر الأماكن أمانًا. على مر السنين، جمع ماتيس عددًا كبيرًا من القصص عن البرق وما فعله ـ لكنه أبدًا لم يضرب مرحاضًا. أمر غريب، لكنه حقيقي.

جاءت القرقعة الثالثة قبل أن يتمكن من الدخول ـ أكثر قربًا في هذه المرة. بعيدًا عن ذلك، كان هناك صمت غريب. لم يغرد طائر واحد. فالصوت الوحيد الذي استطاع أن يسمعه هو أزيز الذبابة الزرقاء التي ومضت مارة به في شكل ضباب أزرق خلال الهواء المكهرب.

أغلق الباب بأمان.

ليس أمامه أن ينتظر طويلًا قبل أن تهب العاصفة بصورة انتقامية. وفي الخارج ومض البرق بهسهسة ناعمة وخطرة، وجلس ماتيس يستجمع نفسه، وعيناه مغلقتان يعد واحد، اثنين، ثلاثة، حتى جاء الدوي الهائل. ضغط بأصابعه على أذنيه يلويهما ويحولهما مصدرًا ضجيجًا مخيفًا، لكنه لم يكن ليساعده كثيرًا حينما يأتي الرعد بالفعل.

«يا للسماء! أنصتي إلى هذا...»

جامحًا مازال.

وهيج في وسط ذلك كله.

ما الذي تفعله الآن؟ جالسة تحيك السويترات، أيضًا في طقس مثل هذا؟ مع البرق يهسهس في كل الأنحاء؟ لا، هي لا تستطيع. لابد وأن لديها مثل هذا الشعور.

كانت العاصفة تزمجر. حتى الآن الأمطار متوقفة. كان ماتيس في أول وأسوأ جزء من العاصفة الرعدية. ومن يعرف، فربما تكون القواعد القديمة قد تغيرت اليوم ـ ربما لم يعد هذا المكان آمنًا بعد.

لأنني أفترض أن هذا اليوم لابد أن يأتي عاجلًا أو آجلًا. كل شيء يأتي عاجلًا أو آجلًا في الواقع.

لا يوجد أمان هنا أيضًا.

تلوت أصابعه بغضب حول أذنيه. كان قصف الرعد وومیضه يأتيان معًا الآن. قال لنفسه وهو مخدر من الخوف، حسنًا، دعه يأتي إذًا. واحد، اثنان، ثلاثة. لم تكن هي الفترة الفاصلة بين البرق والرعد التي كان يعدها، كان هو الوقت الذي تبقى ليعيش. بدا أن الأرض تمنحه مرة على الأقل. أعتقد أنني أصير أكثر رعبًا في كل مرة، لكنها تصبح حينئذ أكثر وأكثر خطورة في كل مرة.

تجلس هيج في المطبخ غير خائفة ألبتة. غير خائفة من أي شيء.

تحول الأمر إلى أن يكون صراعًا طويلًا. انهمرت الأمطار على السطح. كانت المياه تتسرب وترشح في قطرات كذلك ـ كان السطح في حالة سيئة، مثل أي شيء آخر هنا.

لكن كان لابد من نهاية. على الأقل، انتهى الجزء الأسوأ من العاصفة الآن، وكان هذا مبعث ارتياح هائل.

لذا لم يكن اليوم استثناءً من القاعدة أيضًا.

ثبت الدليل على أمن الملجأ. بدأ جسمه يسترخي، شعر الآن بذهنه

أكثر هدوءًا. مازال يتبقى سماع دمدمتين خافتتين غير ضارتين، وكانت الأمطار تنهمر. من الرائع أن تجعل العاصفة خلفك. سريعًا سوف يندفع في نهايتها متوجهًا إلى هيج.

الآن!

اندفع بتهور فاتحًا الباب مخترقًا الأمطار. كانت هناك رائحة قوية للأوراق والأعشاب المبللة. رائحة لا تشمها قط إلا في لحظات مثل هذه.

ومن خلال وميض النار، فكر عندما وقف على عتبة الباب ينفض الماء عن نفسه. لم يشك للحظة في أن هيج ستكون جالسة بهدوء في المطبخ. لم تجعل العاصفة الرعدية هيج تهرب أبدًا.

ومتأكدًا بما يكفي، كانت أخته هناك منهمكة في عملها. على الأقل كانت موجودة الآن.

«هل كنت جالسة هكذا طوال الوقت؟»

قالت بدون أن تجيب عن سؤاله: «آه، هذا هو أنت».

قال: «من خلال وميض النار»، وفجأة طرأ على وجهه المبلل بالمطر ابتسامة فخورة واثقة بالنفس.

٢٥

بعد ذلك، مضى ماتيس يستكشف كما كان دائمًا يفعل بعد عاصفة. شعر بجسده منتعشًا متجددًا. كانت الجداول تنساب على منحدرات

التلال. لكن ماتيس لم يذهب بعيدًا هذه المرة، توقف فجأة، تنبه إلى اكتشاف النقطة: ما الذي يعنيه هذا!

كانت هي شجرتي الحور الرجراج، ماتيس وهيج، فقط واحدة منهما ارتفعت إلى أعلى قامتها. الأخرى أتلفها البرق، كل ما يمكن أن يُرى هو جزء من جذع أبيض على مستوى منخفض. لم تكن هناك نيران، لابد وأن الأمطار أخمدتها في الحال.

كان الموت يعمل هناك.

وقف ماتيس هناك بدون حركة لفترة طويلة. كان هذا ـ حسنًا كان هذا نوعًا من النبوءة! لكن أي منهما هي المقصودة؟ أيهما كانت ماتيس وأيهما كانت هيج؟

في البداية أراد أن ينادي على هيج، لكنه أوقف نفسه. ربما عرفت أيهما كانت من ـ وفي هذه الحالة لا يجرؤ أن يحدثها عن ذلك بصراحة. لكن كان عليه أن يكتشف أيهما كانت تعني من، ينبغي أن يحاول ويكون بارعًا.

عاد بهدوء إلى هيج: «هل جلست بالفعل تحيكين؟»

ردت: «نعم». كان هذا بوضوح ما يشير إليه.

«ربما سارت الأمور على نحو سيئ بالفعل».

«وي؟»

قال بلهجة جافة كما لو أنه ينطق حكمًا: «ضربت الصاعقة فقط الجانب الآخر من السياج». قالت هيج: «فعلًا. كانت هناك صفعة من الرعد أسوأ بكثير من الأخريات».

«لقد حطمت قمة شجرة».

قالت هيج وهي تحصي الغرز: «هاه».

«واحدة من شجرتي الحور الرجراج الذابلتين!»

لم يجفل لها جفن.

قالت: «آه، بالفعل؟»

قال بغضب: «إذا لم يكن هذا مهمًّا أيضًا، إذًا أستطيع أن أخبرك أنه لا شيء يهم».

قالت هيج: «الصاعقة تنجذب إلى قمم الأشجار الذابلة».

قالتها بدون تفكير. على الفور.

مضت تقول: «اذهب وانظر إذا كنت تستطيع أن تكتشف أي شيء آخر ضربته، ماتيس».

أجاب بصوت متلهف: «أوه صحيح» ـ لأن هذه كانت المهمة المباشرة التي يمكن أن يتماشى معها.

حينما خرج، بدأ يدقق النظر في قمم الأشجار. تأكد بعد فترة أن هيج قد خدعته. لم تكن تريد أن تسمع عن شجرة الحور المضروبة، لذلك فكرت في هذه الفكرة عن إحصاء قمم الأشجار. لكن لماذا فعلت؟

عاد إلى الداخل، وأعلن: «لا مزيد».

قالت هيج: «جيد». فقط شيء كهذا.

لكن حقيقة أن الصاعقة قد ضربت شجرة الحور قد أشعرته بالاضطراب. جال حائرًا داخل البيت وخارجه، يذهب إلى الطريق ويرجع عنه. لكنه لم يجد حلًّا للمشكلة.

فكر على حين غرة في أنها قضية الحياة والموت.

لم يستطع أن يستخلص أي شيء آخر من هيج، رفضت أن تفصح عما عرفته. لم يكن لديه اختيار سوى أن يتحول إلى الغرباء ـ لكن مجرد التفكير في ذلك ملأه بالفزع. سيتعين عليه أن يكون حاد الذهن بالمثل. لكنها قضية حياة أو موت. إذا لم تكن هيج، فهو أنا.

قال صوت بداخله، وأيهما تفضل؟

قال لنفسه: لا تفكر بهذه الطريقة! مجبرًا أفكاره على التوقف بصورة فجائية. لقد توقفت عن التفكير في هذا.

من الممكن أن يدعي أنه يريد أن يقوم بنزهة إلى المتجر، إنه يقوم برحلات كثيرة إلى هناك الآن. منذ اللحظة العظيمة مؤخرًا على رصيف الميناء، يمشي إلى المتجر أمام كل شخص بطريقة لم يكن يفعلها من قبل. لأن الجميع يعلمون الآن أنه رجل محترم ـ فالتجديف بالفتاتين بمثل هذه الكيفية كان فعلًا نجاحًا رائعًا.

لذلك سأل ذات مرة بعد الظهر: «هل تريدين أن أمضي لتسوق أي شيء اليوم؟» كان حتى قد حلق ذقنه.

قالت هيج: «أنت شخص متغير هذه الأيام. دائمًا ما تردد وتكثر الحديث عن الذهاب إلى المتجر».

لم يعترض. فهي لم تكن لديها أدنى فكرة عن السبب الحقيقي لهذه الرحلة، هذه مسألة حياة أو موت.

قال وهو يشعر بالأحرى بالصغار: «لكن ماذا عن النقود؟»

وجدت بعض النقود للتسوق، وأقل القليل الإضافي من أجل ماتيس.

«هذا من أجل...»

قال سريعًا: «لا أريد أية حلوى هذه المرة، إذا كان هذا ما تفكرين به».

«لماذا لا؟ نحن لسنا أسوأ حالًا مما كنا عليه من قبل».

قال ماتيس: «لكن كيف تفكرين في الحلوى حينما تحطم الصاعقة قمم الأشجار»، وهكذا نجح في أن يلمس بصورة مقتضبة موضوع السر. لكن هذا لم يكن له تأثير على هيج.

قالت هيج وهي تخيفه بعبثها: «أنا لا أفهم لماذا لا».

«أليست بالتأكيد توجد أشياء أكثر أهمية للتفكير فيها الآن؟ ظننت أنك ستفهمين هذا أيضًا».

قالت هيج غير مبالية: «خذ النقود، ماتيس، اشترِ لنفسك بعض الحلوى، كما كنت تفعل الشيء نفسه دائمًا».

قال ماتيس بانفعال عظيم: «كوني حذرة!» وترك النقود الإضافية على المائدة خلفه، وأخذ مجرد ما يكفي لدفع ثمن الأصناف المهمة. كان عليه أن يبتعد قبل أن تخيفه أكثر.

ما أراده كان عذرًا جيدًا ليتمشى عبر الطريق الرئيس، وربما يقابل بعضًا من أقرب جيرانه ـ هم بالتأكيد يعرفون المزيد عن قمتي الشجرتين أكثر من أي شخص آخر. أما بائع المتجر فيعيش أبعد قليلًا، بحيث لا يعرف

أيهما تمثل من. ينبغي على ماتيس أن يجد من منهما الذي ضُرِب.

لم يكن هناك أناس من الجيران على الطريق في مثل هذا الوقت من اليوم، كان كل شخص في العمل. نسى ماتيس ما يتعلق بهذا الأمر. مضت السيارات لها حفيف عن بُعد. ذهب إلى المتجر وقام بالشراء بهدوء وإقناع. وكالمعتاد، كان هناك زوج من الغرباء الذين يقضون إجازتهم يشتريان البسكويت والليمونادة.

عندما كان ماتيس على وشك أن يمشي، حدث شيء مربك. نظرًا إلى أنه لم يشتر كيس الحلوى الصغير، لابد وأن البائع ظن أنه لم يكن لديه نقود كافية ـ لذا فهو التقط بضع حبات من حلوى الكافور وصنع قرطاسًا ورقيًّا. وضع القرطاس بعد الأشياء الأخرى التي اشتراها ماتيس، وهو يغمز له غمزة صغيرة.

تورد وجه ماتيس خجلًا. فقد رأى البائع يفعل الشيء نفسه مع الأطفال. وانتزع بسرعة الكيسين أو الثلاثة الذين اشتراهم، وترك الحلوى على المنضدة.

قال البائع: «خذ هذا كذلك، تستطيع أن تدفع في وقت آخر».

وضعت هذه الكلمات ماتيس في موقف محرج. أُعطي الحلوى مثل طفل ـ على الرغم من أنه يعرف عن أشياء عظيمة مثل الأشجار المحطمة والصاعقة ونبوءات الموت. أخذ الهبة وهو يتمتم شكرًا لك، ودفع بواحدة من الحلوى إلى فمه. شعر بأنه صغير. وأسوأ ما في الأمر هو أن البائع كان يحاول فقط أن يكون لطيفًا. كان على ماتيس أن يحاول ويحفظ ماء وجهه.

قال للبائع بصوت عالٍ: «حسنًا، أعتقد أنك لا تستطيع أن تساعد في هذا الشأن».

كان هذا أفضل. حدق فيه البائع قليلًا: ما الذي لا أستطيع المساعدة فيه؟»

أجاب ماتيس وهو يشعر أنه قد نجح بالأحرى في الموضوع كله بشكل جيد: «لكونك مثلما هو أنت بالطبع!»

ضحك الرجل الآخر راضيًا، شعر أنه على أرض آمنة مرة أخرى.

«حسنًا لا، آمل ألا أكون هكذا».

غادر ماتيس.

وبمجرد أن أصبح بالخارج، لم يستطع أن يقاوم وتناول حبة أخرى من الحلوى. وضع واحدة على كل جانب من فمه، وترك النكهة الحلوة القوية تتسرب إلى لسانه ـ يبدو أنه قد مر وقت طويل منذ أن فعل هذا آخر مرة.

لم يصادف طوال الوقت إلا الغرباء على الطريق. طاف يحدق في الفراغ تجاه السيارات المارة، ويقترب من قمم الأشجار الذابلة بحيث تكون مرئية من الطريق. لكن سريعًا ما وصل إلى النهاية أخيرًا، وبدأ الناس يتركون الحقول ويعودون إلى البيت. ووصل العديد من هؤلاء الذين يعملون لدى مزارعين آخرين على الطريق. كان هناك رجل آتيًا بمفرده الآن، وتوجه ماتيس له مباشرة بسؤال استكشافي: «حسنًا، ما الذي كنت تفعله اليوم؟»

كان اختيارًا سيئًا. كان الرجل مجهدًا، ونظر إلى ماتيس نظرة ساخطة.

«ما الذي كنت أفعله اليوم؟» هكذا أجاب وأراد أن يمضي في طريقه.

أخذ ماتيس المبادرة. لكن لا ينبغي أن يدع نفسه فريسة للخوف الآن.

قال بحسم: «إنه شيء مهم، أنا سألت هذا السؤال الآخر لأن الناس يفعلون مثل هذا النوع من الأشياء».

لابد وأن الرجل تحقق الآن ممن كان يتكلم معه؛ فحينما تحدث جاءت لهجته أكثر لطفًا.

قال: «كنت أذرو التبن هناك، مازال عدد قليل لم ينتهوا بعد». وألقى بنفسه جالسًا على أحد المصدات الحجرية غير المستوية على جانب الطريق.

«الآن، أخبرني يا ماتيس عن كل شيء سريعًا. أنا متعب وجائع».

قال ماتيس مذعورًا: «لا أعرف كيف أقولها، فأنا لا أستطيع أن أقولها بسرعة!»

«إذًا ربما نستطيع أن نترك الأمر الآن، ونتحدث عنه في وقت آخر؟»

لم يستطع ماتيس الرد، بدلًا من ذلك أومأ في اتجاه شجرتي الحور الرجراج اللتين ظهرت قمتاهما بالكاد، إحداهما حطمتها الصاعقة.

أراد الرجل أن يمضي في حال سبيله.

«حسنًا، إذا لم تكن قادرًا على أن تخبرني بالأمر، فأنا أخشى...»

شرح ماتيس مفسرًا له: «أنا أومئ، حسنا؟»

«هل ترى ما أومئ إليه؟»

«الغابة».

قال ماتيس وهو ينظر مباشرة على شجرتي الحور: «ليست الغابة كلها».

قال عامل التبن وقد شعر بالحرج على حين غرة: «آه، إذًا أظن أنني أعرف ما هذا». تحقق ماتيس من أنه بوضوح زميل بارع.

قال لعامل التبن: «إذًا أنت حاد الذكاء بالفعل، هذا يسهل الأمر بالنسبة لي».

لم يستطع الرجل أن يُكوِّن فكرة عن سبب الإشادة المفرطة التي يتلقاها من ماتيس. لكن الشيء المهم بالنسبة إلى ماتيس الآن هو أن يختار كلماته بعناية.

سأل – سعيدًا تمامًا بنفسه: «هل ترى واحدة وهل ترى الأخرى؟»

«نعم».

«لكن هل ترى فعل الصاعقة في إحديهما؟»

قال الزميل البارع: «آه كلمتي نعم!»

الآن كان الطريق مفتوحًا.

«لكن من هي؟»

تم طرح السؤال، لكن هذه كانت نهايته، أيضًا. اعترى الرجل تغيير ما.

أجاب بعنف غير راغب في الاستمرار في الحديث: «لا أعرف ما الذي

تتحدث عنه الآن».

تأوَّه ماتيس. من الواضح أن الرجل فقط عرف بشكل تام ما الذي يقصده. هذا هو السبب في أنه لم يكن راغبًا في الاستمرار.

«إنه الشخص الذي يجلس في البيت الآن، أليس كذلك؟» هكذا سأل ماتيس مذعورًا من الخطيئة التي يرتكبها. كان يعرف أنه يفعل شيئًا ما شريرًا ومروعًا.

قال عامل التبن وهو ينظر حائرًا: «الذي ماذا؟»

كانت تلك البداية ليفقد ماتيس ثقته. الذي ماذا؟ نعم الذي ماذا! لم يجرؤ أن يفكر فيها.

قال مرعوبًا: «لا، لا شيء! لم أقصد بالطريقة التي تظنها! إنها جالسة تُعد القهوة، لا شيء خطأ. هي جالسة تُعد القهوة مثل كل الآخرين!»

نهض عامل التبن من على المصد الحجري، غير راغب بوضوح في أن يستمع.

«حسنًا، لابد لي من أن أعود إلى البيت. غدًا يوم آخر كما تعرف».

لكن مرة أخرى غلب الإغراء على ماتيس ـ فقد اقترب من حل. كان عليه أن يحاول أن يسأل بطريقة ملتفة.

«هل يوجد اسم لإحدايهما واسم للأخرى؟»

«لا أعرف».

قال عامل التبن هذا بتوتر انفعالي قدر ما استطاع، واضعًا حدًا لمزيد من الأسئلة.

تخلف ماتيس غير متأكد على الإطلاق كما كان من قبل، ومرعوبًا من كلماته. لم يجرؤ أن يسأل أي شخص آخر عن ذلك.

٢٦

كان ماتيس في أعماقه الدفينة لا يشك في أنها هيج. شجرة الحور هيج التي تركت عليها الصاعقة علامتها. هيج الأكبر بينهما. لكنه لن يعترف أن هذه أفكاره ـ شخص ما شرير كان يفكر له في لحظات مثل هذه.

قال إلى هيج: «الحياة غير مضمونة الآن، غير مضمونة لكلينا أنت وأنا».

سألت هيج: «ماذا تقصد؟» حياتها مع ماتيس جعلتها تعتاد أن تسأل أسئلة من هذه النوعية.

أجاب: «أستطيع أن أخبرك، لكن الأمر مخيف. حينما قلت غير مضمونة أقصد أنها شيء مخيف».

قالت هيج: «آه، أتوقع أن نحذو حذونا السابق نفسه كما فعلنا من قبل. لديَّ طلبات شغل مطلوبة مني أكثر مما أستطيع إنجازها».

تأكد من أن أفكارها قد ذهبت في الحال إلى النقود والطعام.

«هل تتحدثين عن الطعام؟»

«يتعين عليّ بشكل مرح جيد».

كان ماتيس مذهولًا. يستطيع أن يرى ظلالًا تقترب من هيج. عليه أن يحذرها.

«هل تتذكرين الطائر الذي أُطلقت النار عليه؟»

«نعم».

قال: «لكن ليس الأمر هذا أيضًا».

ظلت هيج صامتة تنتظر.

قال بجدية: «لكن الأمر يتعلق فقط بأحدنا، الشيء الذي أقصده!»

قالت هيج بشكل عارض: «حسنًا، أتوقع أننا سننجح نوعًا ما، مهما كان». ثم قالت وهي تهز رأسها: «لكن، حقيقةً ماتيس، أنت تفكر في أشياء غريبة كثيرة جدًّا هذه الأيام، حتى أنه يصعب عليَّ أن أتعرف عليك».

جعلته هذه الشهادة يطير من الفرح. عرفت هيج كيف تجعلك سعيدًا حينما تريد. ذهب وجلس مع نفسه ليكون وحيدًا مع فرحته.

بجلوسه وحيدًا مع شأنه، شرع في بداية مفاجئة: قال: لم أفكر في هذا! لأضعها بشكل آخر، إذا كانت هي الطائر، فماذا سيصير معي؟

لم أفكر في هذا

يبدو سيئًا مهما كانت الطريقة التي أفكر بها عنه.

دفع بالفكرة خارج ذهنه بأسرع ما يستطيع، ورجع إلى هيج، وقال: «دعينا ننسى المسألة بأكملها».

قالت هيج: «أوافق تمامًا».

٢٧

قام ماتيس بسد الثقوب وأصلح قاربه وجعله صالحًا للاستخدام مرة أخرى. خرج للتجديف مرات كثيرة هذا الصيف، واصطاد بضع سمكات صغيرات هزيلات ـ لكن في معظم الوقت كان فقط يجدف هنا وهناك في البحيرة الكبيرة، وباتجاه شواطئ غير مألوفة. مضى التجديف دائمًا بشكل جيد: اتجهت أفكاره مباشرة إلى المجدافين في خطوط منظمة، فهي لا تضطرب كما يحدث حينما يعمل على الأرض.

كان هناك شيء جديد ينبعث من البحيرة هذا الصيف. فروح آنا وروح إنجر تسكنان المياه المفتوحة. لم يكن هناك أمل في مقابلتهما ـ ومع ذلك من يعرف؟ لماذا لا يمكن أن تخرجا من أحد المداخل كبيرتين مثل الحياة وتقابلانه. تظهران حول لسان شاطئ، جميلتين وحقيقيتين. هو لا يطلب أكثر من ذلك.

جدف في البحيرة متفتحًا ومستعدًا لأن يستقبلهما.

لم تظهرا.

عاد إلى البيت، مشى إلى هيج: «ألاتجدين أشياء مختلفة الآن أيضًا؟»

لم ترد. لكنه لم يستطع أن يرى أن كلماته قد أزعجتها هذه المرة.

«هل ينبغي لي؟»

وقف يحدق فيها.

أجاب: «ربما، لا أحد يعرف. دعيني أنظر إلى عينيك هيج».

لا، هي لن تدعه يفعل. ما هو الأمر الذي تخاف من أن يراه؟ فجأة خاف هو أيضًا. ما هو الشيء الذي يمكن أن تفعله معه؟

صرخ: «لا يجب أن تتركيني!»

الآن حدقت متفرسة.

«لن أتركك ماتيس. لقد فعلت ذلك من قبل في هذه الحالة».

في الأحوال الطبيعية، قد يكون ذلك كافيًا ليطمئنه، لكن اليوم كانت الأشياء مختلفة. لقد فقد راحة البال. ثم أن هناك هذه الحياكة المستمرة!

قال وهو ينتزع السويتر ويلقي به على الدكة: «اتركي هذا قليلًا!» ثم أمسك هيج من رسغها.

وقفزت نظرة فزع من عينيه.

«ما الذي حدث لك بحق السماء؟»

كان كل ما قاله: «لا يجب أن ترحلي!»

اجتاحته موجات من الأفكار المضطربة: لقد كانت الشجرة هيج هي التي ضربتها الصاعقة، هو نفسه قرر ذلك لينقذ حياته. من الممكن أن يعني هذا أن هيج في خطر مميت. أمسك هيج وجذبها إلى أعلى على قدميها. لم تبد أية مقاومة، كما لو أنها تعرف أن هذا الانفجار سيأتي حتما يومًا ما.

«تعالي إلى الخارج».

مضت إلى الخارج معه.

قال مرعوبًا ومضطربًا: «لا نستطيع أن نبقى هنا أيضًا. يجب أن نرحل بعيدًا. إلى أبعد ما يمكن!»

قالت هيج بهدوء: «في هذه الحالة لا نستطيع أن نرحل في الحال، ينبغي أن نأخذ طعامًا وأشياء معنا».

«ماذا؟»

أعاده هدوء صوتها إلى توازنه بالكامل.

«إذا كنا سنرحل، أنت تعرف أنه يجب أن نستعد أولًا». تحدثت كما لو أن أكثر شيء طبيعي في العالم هو أن يرحلا. وفي حالته العقلية الصاخبة، لم يسأل عن ذلك. ثم على حين غرة تحقق من أنه هو الذي كان يتحدث بكلام لا معنى له.

توسل إليها: «تعالي تمشي معي إذن، إذا لم يكن شيء آخر! طريق قصير إلى الغابة، إذا لم يكن شيء آخر!»

وافقت على هذا على الفور.

«تعال إذًا ماتيس».

كان ضمير ماتيس يعذبه.

قال: «أنت لا تعرفين ما الذي فعلته لك هيج، لكنه شيء خطر. ينبغي أن تأخذي حذرك، حتى تقدرين على البقاء على قيد الحياة».

لم تقدر هيج على البداية.

«هلا توقفت الآن ماتيس. لا أعرف ما الأمر معك اليوم. لا يوجد سبب

يبرر لماذا لا يجب أن نمضي كلانا في الحياة لزمن طويل حتى الآن».

قال ماتيس بصعوبة بالغة: «حدث شيء بشأن ذلك، لا أستطيع أن أخبرك به».

نادرًا ما رأته هيج مثل هذا من قبل، لذا شعرت بالبؤس. الآن، كانت هي من تمسك بيده.

«تعالى، دعنا نذهب. أنا قادمة للتمشية معك اليوم. لا تقف هناك هكذا».

بدون أية فكرة نهائيًا، إلى أين كانا ذاهبين، سارا في اتجاه تجمع من أشجار الصنوبر فيما بين البحيرة والطريق؛ حيث كان هناك ممر صغير.

لكن يتعين على ماتيس أن يذهب من حيث توقف، عليه أن يعترف بالشيء الذي يعذب ضميره.

قال: «وأنا من فعلتها، لكنني لا أستطيع أن أخبرك عن ذلك. إنه ببساطة مثلما أقول».

قالت هيج محاولة أن تهدئه: «نعم، نعم، أنا أعرف. لا أريد أن أسمع عن ذلك. لذلك لا بأس، هل تفهم؟ إذًا، وهو كذلك، دعنا لا نتناوله مرة أخرى».

قال وهو يفيض بالعرفان: «هل تعنين ذلك حقًّا؟»

مشيا سريعًا، كما لو كانا في عجلة من أمرهما للحاق بشخص ما. الندم يقود ماتيس، وعلى هيج أن تتبعه. عبر المستنقع حيث تحدث ماتيس وطائر وودكوك لغة الطيور. لم يذكر ماتيس ذلك على الإطلاق؛ فأي تعبير للتشكيك من هيج كان سيفسده. تركا المستنقع خلفهما ودخلا إلى

غابة أكثر كثافة. يمشيان الآن فوق أرض أحراش بالفعل، لا أعشاب على الأرض. فقط أوراق إبرية بنية وبقع من الطحالب الخضراء.

قالت هيج، وقد شعرت بصمت الغابة: «دعنا نتوقف قليلًا!» لم يتوقف، وبعد فترة طويلة، وفي الحال شعر بالصمت الرقيق أيضًا.

سأل مضطربًا: «أين نحن؟»

قالت بأناة: «ليس بعيدًا عن البيت، مجرد طريق قصير داخل الغابة. ألا تتعرف على المكان؟»

لم يعر الأمر اهتمامًا.

قال بدلًا من ذلك: «أشعر بشيء مروع. أنا حزين بصورة مفجعة على شيء قد فعلته».

«ماتيس، ألم تسمع ما قلته: توقف عن هذا!»

«نعم، لكن...»

«ولا كلمة أخرى عن ذلك. سمعتني أقول إن كل شيء على ما يرام، ألم تسمعني؟»

قال ماتيس بعناد: «ليس الأمر كذلك».

انفجرت هيج في يأس مطلق: «اجلس على هذه الرابية هناك». كانت هناك رابية ناعمة مستديرة مكسوة بالطحالب تمامًا حيث تصادف وأن وقفا.

جلس ماتيس على غير رغبته. هيج هي التي أرادت، هي إحدى قوتي إرادته وقدرته.

قالت وهي تقف إلى جواره، تلقف جرعات كبيرة من الهواء: «أنت تقريبًا مزقتني».

استلقى ماتيس هادئًا، ولم يجب. مضيا يجلسان على الرابية الصغيرة. لم يكن يُسمع صوت من الغابة حولهما، واستعاد وجيب قلبيهما ضرباته الهادئة. جلس ماتيس بالقرب من هيج في الغابة صامتًا، ذلك لأنه بدأ التفكير في شيء جديد تمامًا، شيء ممتع أكثر من الأشياء التي كانت تقلقه منذ لحظة مضت.

اندفع بدون تفكير: «إذا كنت الآن فتاة...»، لكنه أوقف نفسه سريعًا. قال: «يا له من هراء! بالطبع أنت فتاة! أقصد نوعًا آخر من الفتيات».

قالت هيج: «اجلس هادئًا الآن. بالفعل الطريقة التي تتصرف بها اليوم. يجب أن توقفها الآن».

وحيث يبدو أن ماتيس تحسن الآن بالفعل، كان من الطبيعي تمامًا أن تستخدم هذه اللهجة المعتادة من الصوت، تؤنبه وتوبخه قليلًا. لكن ماتيس وضع حدًّا لذلك:

«قال وهو يُبعد صورة الفتاة: «أنت لم تجرُئي أن تنظري إليَّ، فأنت كنت مفزوعة جدًّا».

«خائفة منك؟ أنا لا أخاف منك أكثر مما أخاف من قطة. أنت تعرف ذلك. الآن، دعنا نجلس هنا قليلًا، ونتوقف عن الندم على أشياء لم نفعلها».

كانت صارمة. منحته القوة.

أضافت: «أنت لم تقترف أي شيء حتى تندم عليه ماتيس. هناك آخرون

يمكنهم أن يفعلوا بالرغم من ذلك».

شعر ماتيس بالراحة. كانت ماتيس بارعة. عليك أن تعترف بهذا. لم يكن هناك شخص هادئًا مثلها ليزيح العبء عن ذهنه.

قال وهو مفعم بالعرفان: «أنت لا تعرفين كم هذا لطيف منك هيج».

أضاف: «جميل هنا على الرابية».

بدت هيج كما لو أن الأمر لطيف بالفعل، أيضًا.

قال ماتيس: «سوف نأتي إلى هنا كثيرًا».

لكن وقتهما على الرابية انتهى. قالت هيج بحزم:

«يجب أن نذهب الآن».

في الوقت نفسه، فعلت هيج شيئًا ما لم يتوقعه ماتيس، لم تندفع عائدة مباشرة إلى سويتراتها، وقالت بدلًا من ذلك: «سنأخذ قليلًا من الراحة بعد كل هذا. فهو لم يكن سهلًا على أي منا».

قال ماتيس: «لا، لم يكن كذلك، لكنك نجحت في كل شيء كما ينبغي. هل نتمشى قليلًا إذًا؟»

أضاء وجهه بالفرح بهذا الاقتراح غير المتوقع منها.

كانت أرضية الغابة تشبه بساطًا مفروشًا. مشيا بهدوء بدون أن يقولا كلمة واحدة. لكنها لم تكن غابة فسيحة، فجأة وجدا نفسيهما عند حافة البحيرة. البحيرة الكبيرة حيث كانت آنا وإنجر.

كان السطح مثل مرآة، وقال ماتيس: «كنا هناك نجدف طوال اليوم».

لم تسأل هيج متى، كانت هناك رحلة قارب واحدة في العالم كله.

بالصدفة لا أكثر ولا أقل، اتخذت هيج قرارًا مهمًّا بالنسبة لماتيس، عندما كانا يقفان هناك. اقترحت أنه ينبغي أن يمضي في عملية التجديف للعبور بالناس عبر البحيرة. ربما يكون الشيء المناسب له.

تلقف ماتيس الاقتراح في اللحظة التي طُرِح فيها كما يقبض بالأحرى على كرة في الهواء: «نعم، بالطبع! هذا شيء أستطيع أن أفعله حقيقة!»

قالت هيج: «تجدف بالفتيات».

نظر لها نظرة خاطفة.

«هل تعتقدين ذلك؟»

كان على هيج أن تبدد وهمه: «لا، أخشى ألا تفعل. لكن لا أحد يعيش هناك، إنها مجرد مستنقعات، لذلك ليست هناك حركة مرور عبرها. لكن إذا وُجِد أناس يعيشون هناك، يمكنك أن تعمل مراكبيًّا».

راقت له الفكرة بقوة. لم يكن ينصت إلى الأشياء التي تقولها عن أنه لا أحد يعيش هناك.

قال متحدثًا لنفسه: «نعم، بالطبع».

لم يفكر بنفسه في شيء مثل هذا من قبل. فإذا قالت هيج هذا لتسره، فهي قد التقطت الشيء الصحيح تمامًا. غاص في الصمت، مستغرقًا في التفكير، لم يكن ينظر أمامه فتعثر في أجمة. حاولت هيج أن تثرثر معه قليلًا، لكنها لم تظفر بتجاوب من ماتيس سوى همم...

قالت هيج: «دعنا نعود إلى البيت الآن، انتهت فترة الراحة بقدر ما أنا مهتمة».

سارا عبر الشاطئ في صمت. تقدم ماتيس إلى المكان الذي احتفظ فيه بالقارب.

«هل ستبقى هنا؟»

أجاب وهو مشغول: «نعم، اذهبي أنت. لديَّ الكثير لأفعله للقارب الآن».

تركته هيج. وعندما اقتربت من الطريق إلى المنحدر، نادى عليها ماتيس، يبدو أنه استعاد نفسه ثانية أخيرًا: «وهم لم تذكريه من قبل!»

كانت إجابة هيج الوحيدة تلويحة من يدها. وسرعان ما مضت. لكنه وهم لم يُذكر من قبل. هل كانت بارعة، أم لم تكن؟ لكن يا لها من نهاية رائعة لكل مخاوفه اليوم: بدأ يتطلع للحصول على عمل يستطيع أن يؤديه.

قال لنفسه: إنه لن يفكر في الصاعقة مرة أخرى. ولسنا نحن المقصودين بها أيضًا! وربما غدا أجد شخصًا أجدف به.

الآن هو سيجعل القارب لائقًا بقدر الإمكان، بدون أن ينفق نقودًا من أجله.

عمل ماتيس حتى حلول الظلام. التوقيت هو أواخر يوليو، والمساءات طويلة. لم يكن ماتيس يجيد النجارة كأي شيء آخر، لكنه عمل بحب في القارب بعد ظهيرة هذا اليوم ـ بالأدوات الفقيرة التي في حوزته. وحينما سألت هيج، علمت أنه سيبدأ اليوم التالي مباشرة. تبدأ ماذا؟ ما قلته بالطبع! نقل الناس عبر البحيرة.

وأنهى: «إنها أفضل فكرة لديك».

ينبغي على هيج أن تخبره بالحقيقة.

«أنت تعرف أنني لا أعني هذا جديًّا. ليس هناك أي أحد لتعبر به».

قال بغضب، لكن دون انسحاق: «أنت لن تصبحي مثل هذا، أليس كذلك؟ هل تحاولين أن تسفهيني؟»

«أنا قلت إنه لا يوجد أحد».

ثم فكرت وأضافت سريعًا: «بالفعل، أنا أفكر الآن في الأمر، أنت ينبغي أن تمضي. لا ضرر من المحاولة لفترة. سوف تجعلك مشغولًا أيضًا».

بدت كلماتها عند ماتيس، مثل همهمة آتية من بعيد، شيء ما لا يعنيه. إنها لا تعرف تمامًا ما قد بدأته. من جانبه، شعر أن نقطة التحول قد حانت. طريق يتفتح أمامه.

توقف فقط عن العمل بعد أن حولت ضربات المطرقة إبهام يده إلى اللون الأسود والأزرق. اكتسى بلون قاتم حينئذ إلى درجة أنه لم يعد يميز الفرق بين الإبهام والأظافر.

حين مشى إلى المنحدر، فكر في أنه كان صيفًا طيبًا، حتى لو كان الوودكوك يرقد تحت الحجر.

الجزء الثالث

٢٨

المراكبي منذ اليوم. بعث التفكير بتوهج دافئ داخل ماتيس.

سطح البحيرة مثل مرآة تمددت في انتظاره.

من الواضح أن هيج تضغط على فكرة المراكبي التي سقطت فجأة من بين شفتيها. وفهم ماتيس نصف فهم السبب: ستكون سعيدة بأنها لن تراه يتجول هنا طوال اليوم بدون شيء يفعله. سعيدة بأن تتخلص منه قليلًا في الحقيقة. لكن ماتيس ممتن لفكرتها التي كانت الدوافع خلفها تزعجه كثيرًا جدًّا في حقيقة الأمر.

أعدت بعض الساندويتشات وغلفتها.

«هل كلها من أجلي؟»

«حسنًا، من أجل اليوم بطوله، أليس كذلك؟ أم إنك تفكر في العودة مباشرة؟»

قال: «لا، لا بالطبع». بدا الأمر كأنما كان يعدها.

أخبرته هيج عن كل الأشياء التي ينبغي أن يقوم بها المراكبي حينما يؤدي خدمته أيضًا.

«وحتى إذا لم يحضر شخص مباشرة وينادي على المراكبي، على المراكبي فقط أن ينتظر وينتظر». نظر ماتيس إليها، وفجأة بدأ لونها يتورد. فهي قد وقعت في فخ شيء ما لم تكن تريد أن تعترف به.

سأل حينما كان جاهزًا للذهاب: «هل يُفترض أن أستمر في الأمر حتى حينما تضيق الفرصة؟»

«نعم، أظن أن هذا ما يفعلونه، هو ذا ما يفعلونه».

«لكن افترضي أنها لم تضيق على أية حال؟ ما الذي أستطيع أن أفعله؟»

«حسنًا، عليك حينئذ أن تنادي هنا وهناك»؛ هكذا قالت هيج، وكان هذا هو القرار الذي أسعده. كانت كلماته المنفصلة كما ينبغي أن تكون: «أراك هذا المساء».

أومأت له هيج.

كانت الأشياء تنساب بسلاسة.

جلس ماتيس في القارب، وضع المجدافين في مكانهما الصحيح ـ وحينئذ كان فقط هو سؤال ينتظر.

على هذا الجانب من البحيرة، لم تكن هناك علامة على أي شخص يريد أن يعبر. لكن كان عليه أن يستمر في مراقبة كلا الجانبين، لذلك جدف بعد فترة من الشاطئ. لم يكن لديه جدول زمني يلتزم به، وكان من المثير أن يجرب القارب بعد كل الإصلاح الذي قام به. وهناك مثل هذا الإحساس بالراحة الذي وجده في وظيفة دائمة بعد طول انتظار. ليس هناك مزيد من الانتظار حتى يشفق شخص ما عليه في المزارع، لا مزيد من هذه الأيام المروعة التي حاول فيها أن يعمل مع أناس أقوياء وبارعين. وفكر في أن وظيفة مثل هذه تدفعه إلى الأمام وتعطي سحبات طويلة للمجاديف.

وبمجرد أن اكتسب ما يكفي من النقود لشراء قارب جديد، سأتوقف عن استعمال هذا الهيكل العتيق. فكلما كان القارب أفضل سيرغب الناس في استخدامه. وربما حينئذ يأتي الناس الذين أريد أنا أن أجدف بهم أكثر من الجميع.

جدف على خط مستقيم مستوٍ تمامًا. لم تشرد أفكاره. قال لنفسه: لابد أنني وُلِدت من أجل أن أجدف في البحيرة. فالخيال يبدد الكثير من حياتي من كل أنواع الأشياء الأخرى.

ربما أجدف فقط مباشرة وأنتظر هناك لفترة.

لكن عندما اقترب من المنحدرات الزرقاء للشاطئ الغربي، لم ير أحدًا ينتظر هناك أيضًا. حسنًا هذا متوقع تمامًا أن يراه في يومه الأول. يحتاج الناس أن يعرفوا عن المراكبي الجديد قبل أن يبدأوا في الاصطفاف انتظارًا لخدماته.

جدف ببطء، مقتربًا من الشاطئ ليرى ما إذا كان هناك طريق يصل من الغابة. لا. سينتظر بدون وجود طريق ـ في مكان ما أو آخر حيث يمكن للقارب أن يناور مباشرة إلى الشاطئ. يجب على المراكبي أن ينتظر، هذه كلمات هيج.

كان ماتيس يشعر بأنه في حالة رائعة، يستلقي راضيًا في قاع القارب ويترك الشمس تسقط مباشرة على وجهه. رائحة القطران تعبق القارب، الرائحة اللطيفة التي تنبعث من خرق القماش المقطرن الذي حُشِر وثُبِّت في القارب الليلة الماضية. كان للشاطئ الذي ضربته الشمس رائحة خافتة جميلة في حد ذاتها.

تمدد ماتيس سعيدًا وقانعًا.

أنا في وظيفة دائمة بالمثل! أرقد هنا وأتجول متسكعًا.

لم يستطع أن يتوقف عن الضحك.

سيضطجع هناك على قدر استطاعته، لن يأتي أحد. دفع القارب مرة أخرى واتخذ مسارًا إلى شاطئه. ربما يكون هناك شخص ما يجلس منتظرًا الآن. فالأنباء سوف تنتشر بمرور الوقت وسيلاحظ الناس أنه يجدف ليعبر مباشرة في نوع من الخدمة المنتظمة.

هذا ما ينبغي أن يشبهه عمل المراكبي، ينبغي أن تكون في كل مكان في وقت واحد ـ لكن كيف ستقدر؟

أحب الهمهمة بكلمة مراكبي ـ هذا هو ما يكونه الآن، ولا تبدو سيئة على الإطلاق. أراهن أنه لا يوجد مراكبي يجدف على استقامته. أنت لا تستطيع أن تجدف بشكل مستقيم أكثر من الخط المستقيم. للأسف أن الأثر الذي يخلفه القارب في الماء يختفي سريعًا، ينبغي أن يبقى في الماء لأيام يغطيه بخطوط ممتدة.

لم يكن يوجد أحد على شاطئه أيضًا، حينما وصل هناك أخيرًا. من الأفضل أن يأخذ خمس دقائق راحة الآن، ويعرج سريعًا ليرى هيج، لكنه قاوم الإغراء. جلس مخلصًا على الشاطئ يأكل ساندويتشاته. لا ينبغي أن يكون هناك سبب تغضب هيج منه لأجله هذه المرة، لن يثقل عليها بعد ذلك؛ ها هو جالس يأكل سندويتشاته.

صَهه.

أنصت.

في الحقيقة هو ينصت طوال الوقت. وألم يكن أحد ما ينادي من فوق التلال في الغرب؟ توقف عن المضغ حتى يستطيع أن ينصت أفضل. أنصت لوقت طويل وفمه مملوء بالطعام. لا، لا يمكن أن يصيح أحد عبر بحيرة واسعة بهذا القدر. ومع ذلك كان هناك شخص ما ينادي!

بدأ ماتيس يجدف في الحال. كان هناك شيء مألوف في هذا النداء أيضًا. يمكن أن تكون هيج، لكن هذا مستحيل لسبب بسيط، وهو أن هيج كانت على هذا الجانب من البحيرة.

تمتم، نداء هيج يأتي من بعيد على الجانب الآخر، وفجأة توقف متجمدًا.

هل ينادي أحد؟

نداء مثل هذا في اليوم الأول لي. أي شخص يمكن أن ينادي عبر بحيرة بهذا الحجم، لماذا، أنا تقريبًا مرعوب منهم. لكنها هي هيج...

هراء.

شيء جميل أنه ليس المساء. لكنني أظن أنهم سيخرجون في منتصف الليل، أيضًا، مراكبي. الناس يصيحون عبر الماء في الظلام، وكذلك بالمثل في الضوء.

على الأقل، توقفت الصيحات الآن. جاهد ماتيس على المجدافين، وصل يغطيه العرق بعد المجهود الشاق تحت الشمس الساخنة. هذا لا يهم. فهو يسعى إلى التوافق مع دور المراكبي، هذا هو الشيء الأساسي.

احتفظت أفكاره بالمجدافين في مكانهما الصحيح.

لكن لم يكن هناك أحد. لا يرى أو يسمع أحدًا. كانت التلال على هذا الجانب طويلة، رقيقة، منحدرات تغطيها الأشجار التي تصل إلى ارتفاع عظيم. كلها أرض غابات، لا يوجد بها منزل واحد في أي مكان. لا أحد يقيم وراء القمة العليا أيضًا، لم يكن هناك شيء سوى مستنقعات مهجورة.

من الذي ينادي؟

قال بصوت صارم، لا أحد بالطبع، لا تستطيع أن تنادي مباشرة عبر البحيرة. لكن كان هناك شيء ما خطأ هنا. أخذ ماتيس وظيفته كمراكبي بمنتهى الجدية، مثل شخص يتعين عليه أن يأتي سريعًا من جانب التل. يجب على المراكبي أن يهرع لمقابلة الناس بهذه الطريقة. تمدد جانب التل مهجورًا. من الذي نادى بصوت عالٍ أزيد من الصوت العادي؟

ربما يتعين على المراكبي أن يعطي لنفسه إشارة؟ نهض من مقعده وصاح، هاي! بصوت عالٍ مذعورًا. لم يكن شيئًا من السهل عمله.

أجاب الصدى، لا أحد آخر.

«أنا هنا!»، هكذا صاح ماتيس باتجاه جانب التل الذي يخفي ألف سر.

لم يخرج أحد. لا أحد يحتاج أن يعبر من هذا الجانب من البحيرة.

ليس هذا ما يجب أن يكون.

نعم، لكن هيج لم تقل إنها مسألة انتظار وانتظار، حاول أن يطمئن نفسه.

لكن شخصًا ما كان يناديني!

أنصت باهتمام بالغ لكل شيء آخر أيضًا، بدت نوعًا ما تتلاشى إلى همسة منبهة.

جاء حينئذ نداء من الجانب الآخر من البحيرة. من جانب شاطئه. الصوت الذي لا يعني شيئًا مع طول المسافة. ومرة أخرى كان هو صوت هيج الوحيد ينادي على عَبارة، أو أيًّا ما كانت.

أجاب بنبرات مرتعشة في قاربه الصغير التعيس: «وهو كذلك!» لكنه طريق طويل!

فكر حائرًا، ربما لأنه يومي الأول.

مرة أخرى، هو في طريقه. لكن التقدم كان بطيئًا، بعد كل شيء، لم يستطع أن يجدف بالسرعة القصوى طوال الوقت. لكنه تعهد بأن كل فرد سوف يعبر بالشيء نفسه.

مازال محتفظًا بخط مستقيم مباشر. لا شيء خطأ في تجديفه. جذب المجدافين وسحبهما، وصل عائدًا إلى شاطئه، نظر في رعب، لم يكن على الشاطئ أحد ينتظر. لا شيء سوى الامتداد المألوف الخالي للشاطئ عند سفح المنحدر أسفل الكوخ. توقف مزدردًا. ملأه هذا بالخوف. فالشاطئ المألوف بث فيه الخوف والفزع. هناك شيء واحد ينبغي أن يفعله الآن: يرجع البيت إلى هيج. رفض أن يصدق أنها هي من كانت تناديه بالفعل.

أمن ماتيس القارب وأسرع إلى التل. لم يشعر بالرغبة في أن ينظر خلفه.

كانت هيج جالسة تحيك كما يمكن أن تكون. لم تظهر أية علامة من الغيظ لرؤية أخيها يعود سريعًا. قالت فقط: «عدت بالفعل؟»

قال: «ليس الأمر كما تظنين! هناك شيء غريب يحدث في البحيرة اليوم».

«غريب؟»

قال بصورة هيستيرية: «كنت تنادين هناك! فماذا تقولين في هذا؟»

«كُف عن الهراء ماتيس».

«بمجرد أن كنت على أحد الجانبين، كان هناك نداء من الجانب الآخر! وهو صوتك. مباشرة عبر البحيرة. أليس هذا غريبًا أم لا؟»

قالت سريعًا: «لا توجد نداءات مثل هذه». انزعجت، كان هذا واضحًا.

قال ماتيس: «لكنك تعرفين كيف أجيد سماع الأشياء».

«لا، أنت فقط متحمس لوظيفة النقل الخاصة بك هذه، وتتخيل أنك تسمع كل أنواع الأشياء. أنت تعرف أنك لا تحتاج أن تنصت إلى الأشياء غير الموجودة. فقط عد واستمر كما كنت من قبل. لا يوجد شيء غريب في البحيرة».

خففت كلماتها التأثير عليه.

«لم أكن أفكر في الاستسلام».

«أنا أعرف. انتهى معك الآن».

وهكذا عاد وهو مطمئن إلى البحيرة. لكن بمجرد أن وصل إلى

القارب بدأ ينصت. وسرعان ما سمع كل أنواع الأصوات الغريبة. وفوق هذه الأصوات كلها جاء الصوت الذي رغب في أن يسمعه: النداء على مراكبي، آمرًا مستفسرًا، وفي صوت هيج كما هو الحال من قبل.

لابد أنه بسبب أنني عملت في وظيفة دائمة للمرة الأولى في حياتي. هذا هو السبب في أنني لا أستطيع أن أسمع كل أنواع الأشياء. هذا ما قالته هيج أيضًا.

وأن النداء على المراكبي هو ما أراد أن يسمعه بعد كل شيء. لم يقدر بالفعل أن يفهم لماذا لا يظهر المنادون بأنفسهم، لكن كل هذا يجب أن يتغير حالًا.

كان توترًا فعليًّا. فكر، أرادوا أن يضعوني موضع الاختبار في أول يوم لي. ولا يجب أن أفشل!

تأرجح بالقارب وضبط المسار إلى التلال البعيدة في الغرب، عبر رحلة أخرى مجهدة.

لم تكن هناك نداءات ليسمعها.

وصل أخيرًا إلى الجانب الآخر، ذراعاه تؤلمانه. مستعد لأن يكتشف الشاطئ المهجور وكل نوع من الرعب ينتظره. بدأ اليوم بالمرح والضحك ـ الآن هو التوتر والإجهاد. لكن الاختبار هو الاختبار ـ استنفذه القارب من الأعماق، ووقف ماتيس منتصبًا يعالج الموقف غير المألوف.

تحول في اتجاه أساطير الشاطئ المهجور، في محاولة منه أن يجعلهم يكشفون عن أنفسهم.

صاح عند منحدر التل. كان مجهدًا ومهووسًا بالشك، أجبر نفسه على

الوقوف على أصابع قدميه، لذا وقف أطول قامة واستقامة من المعتاد، اتكأ على المجدافين مستعدًّا لأن يبحر في الحال إذا ما ظهر أي شيء كان يتأكد من أنه مرعب.

قال: «اخرج!».

لم يأت أحد. امتد جانب التل أمامه بآلاف المخابئ. صار شديد الاهتياج، تحول وجهه إلى اللون الأبيض، مرعوبًا لأنه لم يخرج أحد.

صرخ: «أنا هنا!». لا تستطيع رأسه الضعيفة أن تتحمل المزيد.

أخيرًا جاء الرد، «يا.. يمين!». أعلى جانب التل المغطى بالأشجار. كلمة رد واحدة.

قفز ماتيس كالملدوغ. لم تكن هذه هيج، هذا صوت ليس غامضًا ـ كان شخصًا حقيقيًّا مثله، نداء رجل.

من الذي أناديه؟

حسنًا، إنه شخص حقيقي على الأقل.

لم يكن هناك الآن تمامًا، لكن يوجد رجل في طريقه.

وقف ماتيس في نفس موقعه كما كان من قبل، مستعدًّا للهروب عند أول بادرة. لم يخبره أحد أن هذه لم تكن الطريقة التي يتصرف بها مراكبي. دفع بقاربه بعيدًا حيث وقف يتمايل إلى أعلى وأسفل بالقرب من الشاطئ بمجدافيه خارج الماء.

قال لنفسه ملتمسًا العذر: أراهن على أن المراكبي عليه أن يجلس غالبًا بهذا الشكل.

أوه لا!، فكر من وقت إلى آخر، أوه لا!

في الوقت نفسه، كان الشخص غير المعروف يهبط من منحدر التل، متخفيًا في الغابة. يبدو هذا غريبًا أيضًا بعد كل هذا الصياح، على الرغم من أنه كان طبيعيًّا بما يكفي. لكن هذا اختبار دون شك، وعزم ماتيس على ألا يفشل.

صاح ليحدد مكانه: «هنا!».

«وهو كذلك»، جاء الرد أقرب من ذي قبل.

صوت رجل.

كان هناك.

فجأة انبثق رجل من الشجيرات عند حافة الغابة ووقف كامل الهيئة على الشاطئ. وقع نظره على ماتيس، لوح له وتقدم.

جلس ماتيس لوهلة ليدع مخاوفه السخيفة تقطر برفق مثل قطرات المطر تتساقط من قبعة. ما الذي توقع أن يراه؟

الرجل الذي جاء نحوه كان عاديًا كما يُفترض أن يكون: رجل معه حقيبة ظهر. ترك ماتيس القارب يضرب الشاطئ، بحزم قبل كل شيء، ليُسهِّل على الرجل أن يصعد. كان رائعًا أن تكون مراكبيًا للمرة الأولى.

قال بشغف قبل أن ينطق الغريب كلمة واحدة: «أظن أنني المراكبي الذي تبحث عنه. هذه وظيفتي في هذه البحيرة».

نظر الغريب مسرورًا.

قال: «نعم، تطورت الأمور بشكل جيد جدًّا، كان الجو رائعًا اليوم حتى أنني جئت مباشرة من فوق الجبال، وما ظننته أنه سيتعين عليَّ أن أمشي

طويلًا على البحيرة لكي أصل إلى مكان مأهول. وقدرت حينئذ أنه يمكنني أن أحصل على شخص ما يجدف بي لأعبر، إذا دفعت لهم. لم أقدر أنه مكان مهجور على هذا الجانب، فأنا لم أحضر إلى هنا من قبل».

قال ماتيس: «توجد خدمة مناسبة للعبور منذ اليوم. إنه يومي الأول. وأنت أول راكب معي. هل تريد أن تذهب إلى الأمام مباشرة؟ بيتي إلى الأمام مباشرة من هنا. حسنًا، وهيج تعيش هناك أيضًا بالطبع».

كان ماتيس سعيدًا جدًّا، نسي أن يشرح ما كان يتكلم عنه. لم يبد أن الرجل يهتم كثيرًا، أيضًا.

أجاب بقليل من التهريج: «الأمر سيان عندي. لكن خذ الطريق الأقصر. هذا إذا كان القارب يسع اثنين؟ لست متأكدًا من ذلك. لذلك لن أقول بالفعل إنه قارب العبور المناسب».

وبينما كان يتحدث ويحط من قدر القارب، صعد إليه وخلع عنه حقيبة الظهر الثقيلة. برزت من أعلاها يد فأس ـ يحتمل أن الرجل كان حطابًا جاء يبحث عن عمل. حطاب رائع بالفعل ـ بعضلاته التي ربما مزقت كم قميصه؟ هذا ما كان يشبهه.

قال ماتيس: «أعطني فرصة، لا تتوقع أن لديَّ ما يكفي من النقود لشراء قارب جديد إذا كنت أنت الراكب الأول. إنني لم أكسب نقودًا بعد».

قال الرجل: «أين تعيش إذًا؟» من الواضح أن الإجابة لم تجذب اهتمامه، استدار نصف لفة من ماتيس وترك نفسه كمجرد راكب يعبر فقط. كان ماتيس قادرًا على أن يلقي عليه نظرة فاحصة. فالطريقة التي تحدث بها تظهر أنه جاء من طريق طويل. من عمر يناهز عمر ماتيس نفسه

أو ربما أكبر قليلًا. لم يكن وجهه وسيمًا أيضًا ولا أي شيء آخر، كان غير مميز. لم يكن متشردًا كما يُستشف من ملابسه. فكل شيء على ما ينبغي أن يكون عليه. كان الشيء الواضح هو أنه أحد الأقوياء البارعين ـ مثل كل فرد آخر. لكن على أية حال، كان ماتيس يجدف وكان سعيدًا.

سأل: «كم يبلغ عمرك؟»

«ثلاثة وأربعون، لماذا؟»

قال ماتيس: «لا شيء»، كان يود أن يقول كم يبلغ عمره، لكن لهجة الرجل الآخر أوقفته.

فجأة قال الغريب غاضبًا وهو يجذب حقيبته التي كانت ترقد حينئذ في بركة من المياه: «كان لابد أن أعرف!». لقد سُدت ثقوب القارب حديثًا، هذا صحيح، لكن بشكل يكفي فقط لشخص واحد على ما يبدو. مع اثنين على متنه، تهبط التشققات الجديدة إلى أسفل خط الماء في الوقت نفسه الذي يزداد فيه الثقل.

لم يجرؤ ماتيس على تقديم أية أعذار. تسربت المياه إلى القارب، ووصل الغريب البارع إلى ما يكفي من الحدة. سارع ماتيس إلى تغيير الموضوع، وسأل: «هل فقدت طريقك إذًا، رأيتك تأتي من مكان ليس به طرق؟»

لقد شرح الغريب كل هذا من قبل، لكنه الآن يجيب بسخرية: «أنا لا يمكن أن أكون قد فقدت طريقي، كيف يمكن ذلك وقد انتهى بي الأمر مع مراكبي مثل هذا؟»

كلمتي، هذا الرجل حاد الذهن بالفعل. مرة أخرى يقول: «هل لديك جاروف مع هذا، أو أي شيء من هذا النوع؟ لا يُفترض أننا سنسبح، أليس كذلك؟»

أحنى ماتيس رأسه. لم يكن القارب صالحًا بما يكفي. لقد اشترى جاروفًا، وبدأ الرجل ينزح الماء. بدا غاضبًا جدا. شعر ماتيس بالإجهاد وكان يجدف بطيئًا، لكنه حافظ على خط مستقيم.

استطاعا العبور. وفقط قبل أن يصلا، بدأ الرجل يتكلم ثانية؛ مضى وقت طويل منذ أن قال أي شيء.

«هل يمكن أن تساعدني في العثور على مكان ما للبقاء فيه الليلة؟ أنا متعب، لا أريد أن أذهب بعيدًا على وجه الخصوص».

بدت كلماته الأخيرة مثل شكوى ضد ماتيس، وخصوصًا أنه استغرق وقتًا طويلًا ليعبر البحيرة.

غمغم ماتيس بخجل: «يمكنك البقاء معنا، حيث إن القارب قد تسرب إليه الكثير جدًّا من الماء».

«أين تعيش إذًا؟»

قال ماتيس مشيرًا إلى الكوخ الصغير في الغور: «هنا بالطبع».

«حسنًا»، قالها الرجل بلهجة أكثر ودًّا بقليل، «هذا سيكون أفضل حل، إذا أنا استطعت».

كرر ماتيس: «أفضل حل؟». تغير موقفه تجاه الرجل فجأة.

قال الغريب: «جئت هنا للمحاولة والحصول على عمل كحطاب». الآن هو في مزاج حميمي أكثر، أيضًا.

وصلا. رأى الغريب البارع دون شك ما كان عليه هذا المنزل المتداعي. في الوقت نفسه ألقت عيناه نظرة سريعة على ماتيس. كانت هيج تجلس بالخارج منهمكة في عملها. حدقت فيهما بدهشة لطيفة.

قال ماتيس: «جدفت به عبر البحيرة في أول يوم لي! لكن، يا إلهي أنا متعب!».

قال الغريب: «مساء الخير، هل تظنين أنه من الممكن أن أمكث الليلة هنا؟»

قال ماتيس الذي أراد أن يشارك في هذا أيضًا: «أنا وعدته أنه يستطيع بالفعل. يستطيع أن ينام في الغرفة الخالية في السطح العلوي، أليس كذلك؟»

كانت هيج مرتبكة قليلًا. هذا شيء جديد. بدت سعيدة بذلك، فالنظرة التي منحتها إلى الغريب حميمة وفضولية.

قال ماتيس: «أنا وعدته بشيء يأكله أيضًا»، على الرغم من أنه لم يفعل شيئًا من هذا النوع.

سألت هيج أخاها: «هل تعرف واحدًا آخر إذًا؟»

قال الرجل: «لا».

قال ماتيس: «لا، هو لم يقل أي شيء حينما كنا نعبر البحيرة، لم يخبرني حتى اسمه. كان مشغولًا بنزح الماء».

تقدم الرجل إلى الأمام وقدم اسمه، جورجن.

قال: «لكن أنا لدي طعام هنا في حقيبتي، لستما في حاجة لأن تنشغلا بخصوص ذلك».

قال ماتيس بعناد: «أنا وعدته بشيء يأكله!».

حجرة، طعام، يبقى هنا ربما؟ كانت هيج في كلا الأمرين؛ مرتبكة ومنفعلة. بدأ ماتيس يشعر بالفخر من حقيقة أنه السبب في كل هذا، تبع هيج إلى المنزل، وأخبرها بالمزيد عن جورجن: قال لها: «إنه بارع أيضًا. أنت لست غاضبة مني بسبب هذا، أليس كذلك يا هيج؟»

كان ماتيس يمكر ببساطة، فهو يستطيع أن يرى جيدًا أن هيج لم تكن غاضبة على الإطلاق. شيء ما انتابها، كانت متوترة، عبرت المكان بطريقة مختلفة.

قال ماتيس: «ربما سيكون هناك شخص آخر ليجدف غدًا. إذا استطعت أن أحضر فقط شخصًا ما لك إلى البيت كل يوم! لكن أستطيع أن أقول لك إن هذا موتر تمامًا».

تسلقت هيج السُّلَّم لتجهز حجرة السطح. جلس ماتيس إلى جوار جورجن في الحجرة في أسفل. لم يقل أحدهما شيئًا. كان ماتيس مجهدًا حتى أنه لم يستطع أن يجلس مستقيمًا.

٢٩

بعد ذلك، لم يغادر جورجن في الحال. حصل على عمل فوري في الغابة القريبة ـ لذلك سأل إذا كان من الممكن فقط أن يبقى في حجرة السطوح. قال ماتيس وهيج نعم، مندهشين وسعيدين. أكثرهما هيج.

كانت هيج مختلفة بالفعل؛ لم يتمكن ماتيس من ملاحظة ذلك، ولاحظ

أنه كان مختلفًا هو أيضًا.

كان لجورجن طريقته الفظة الخاصة في السلوك. فحينما عاد من الغابة، أخذ يُقلِّب في المطبخ لفترة بينما هو يجهز عشاءه. بعدئذ، تسلق السُّلَّم إلى غرفته للراحة. لم يحاول أن يقيم صداقة مع الاثنين الآخرين. لكن الأخ والأخت لم يتوقفا عن الاندهاش. شخص ما أتى إلى منزلهما أراد أن يبقى.

بالإضافة إلى هذا، كان لماتيس وظيفته كمراكبي. يداوم عليها كل يوم. لكنه لم يحقق أبدًا نجاحه الأول ـ في الحقيقة لم يكن هناك أي أحد أبدًا يريد أن يعبر. أحيانًا، تأتي الزوارق ذات المحركات وهي تصخب متجهة إلى التلال الغربية، ثم تعود ثانية وتذهب إلى مكان آخر، لكن هذا شيء ما يجري خارج عالم ماتيس. فقد كان ماتيس هو المراكبي الحق مع قارب بمجدافين، وله وظيفته حتى لو لم يركب معه أحد ـ وهو قد توقف الآن ينصت إلى نداءات وصيحات تخيلية. سرعان ما تَعوَّد على الإغفاء بينما هو ينتظر بالقرب من أحد الشواطئ. يقوم برحلتي عبور كل يوم، شريطة ألا تكون هناك رياح؛ وعلى أية حال فالقارب يصلح لواحد فقط، فلا يتسرب له الكثير من المياه. من الرائع الحصول على وظيفة يستطيع أن يقوم بها وتوافق هيج عليها. لم يكن خطؤه أن لا أحد جاء ليستخدم المركب.

الشيء الوحيد الخطأ بالطبع هو أنه لا يكتسب أية نقود من أجل قاربه الجديد، لكن الأمور يمكن أن تتحسن بسهولة. فكل يوم جديد يمكن أن

يأتي معه حمولة كاملة من المسافرين.

وعلى قمة كل ذلك، أن جورجن قد استقر معهم، وبدا كما لو أنه عازم على البقاء.

يومًا ما، قال ماتيس: «الآن نحن مثل الأناس الآخرين». لم تكن هيج راضية.

«لا تكن غبيًّا هكذا! بالطبع نحن مثل الأناس الآخرين، وهكذا كنا دائمًا».

قال بخنوع: «نعم».

«لا أريد أن أسمع منك هذا النوع من الحديث ماتيس».

شعر ماتيس أن هيج مختلفة من عدة أوجه. لم تكن حنونة عليه كما اعتادت من قبل. تنظر إليه بين الحين والآخر بتعبير لم يستطع أن يفهمه.

تقول له في كثير من الأحيان: «أوه، لا أرغب في أن تتصرف بمثل هذا السلوك»، وذلك حينما يفعل شيئًا لم يكن لائقًا كما ينبغي.

سأل حزينًا: «ما الأمر معك في هذه الأيام؟ ما الذي تعترضين عليه؟ أنا على الحال نفسه كما كنت دائمًا، لكنك تعترضين».

هزت كتفيها.

«لا تتحدث كلامًا ليس له معنى»

قال ماتيس وهو يتفرس فيها بثبات: «توقعت شيئًا مختلف تمامًا، لم أتوقع أن تعترضي على كل شيء، لكنك مستمرة».

«ما الذي تقصده على وجه التحديد ماتيس؟ أنا لا أفهمك».

سأل مترددًا ومعارضًا: «أنت لا تريدينني أن أقولها الآن، أليس كذلك؟»

«وهو كذلك، إذًا أوقف هذا الهراء». انسحب كلاهما.

بالتأكيد لاحظ ماتيس قدر الاهتمام الذي توليه هيج إلى جورجن، الحطاب القوي البارع. أما جورجن من الناحية الأخرى يمشي مخلفًا رائحة الغابة ولا يقول شيئًا، أو على الأكثر يعلق على الطقس. ويعود في المساء حاملًا معه ثانية رائحة الغابة. سألت هيج إذا كان يمكنها أن تساعده في شيء أو اثنين في المطبخ؟ لا هو اعتاد أن يقوم بها بنفسه. وكان على هيج أن تغادر مرة أخرى. وهو لم يتكلم عن نفسه أيضًا. وإذا ذُكِر الموضوع، ادعى أنه لا يسمع. أو يقول: هل هذا مهم بالفعل؟ لكن لا داعي للقلق، فأنا لم أرتكب أي شيء خطأ.

رمقته هيج بنظرات عابرة. لاحظ ماتيس الطريقة التي يتغير بها أحيانًا وجه هيج إلى ما يتخطى الاهتمام والتقدير، اكتسب الحيوية وامتلأ بالتعبير ـ وأقل شيء يجعلها سريعة الغضب. أخبرها أنه قد توقع شيئًا مختلفًا تمامًا.

٣٠

واصل ماتيس التجديف بالطريقة نفسها، يومًا بعد يوم. لم يأت أحد لاستخدام المعدية، لكن يجب على المراكبية أن يظلوا في مواقعهم بالطريقة نفسها ينتظرون.

فهو لم يكره ذلك. ومن ناحية أخرى قل حبه لأخته أكثر وأكثر. إنها تصير أسوأ مع كل يوم يمر. كانت دائمًا تراقبه. فكل شيء تقريبًا يقوله أو يفعله خطأ. وبمجرد أن يكونا بمفرديهما تبدأ تذمرها منه.

حرصت أن تقول: «حقيقي، ليست هذه الطريقة لفعل الأشياء. من فضلك حاول وتذكر».

اعتنت بطريقة لبسها بأكثر من ذي قبل. لاحظ أنها تقف غالبًا لتتزين بدلًا من استغلال كل دقيقة متاحة في الزهرات ذات البتلات الثمانية.

لاحظ أن مظهرها الكلي أكثر أناقة ـ وهو أيضًا قد أحبه. الفتيات تظهرن أنيقات. ومع ذلك جعله هذا قلقًا.

«أذاهبة إلى مكان ما؟»

أعطت البداية، فقد كانت مستغرقة إلى الأعماق.

«لا».

«فما الذي تتزينين من أجله إذًا؟»

«لا يوجد سبب معين».

أضافت: «لكني، لا يمكنني أن أخطو خطوة بدون أن تتجسس حولي وخلفي».

شعر بالخجل، فما قالته كان حقيقيًّا.

لكنها أرادت أن تكون أكثر جمالًا من ذي قبل، الكثير كان واضحًا جدًّا. كانت تتجمل أكثر من أجل الحطاب. لماذا؟ قرر ألا يفكر في ذلك!

لم يظهر ما إذا كانت أثرت كثيرًا في جورجن، وهذا ما أسعد ماتيس

أن يراه. فجورجن يعمل في الغابة ويعتني بنفسه في البيت، ولم يخرج أبدًا من قوقعته.

لا يوجد خطر.

لن يفكر فيها.

أزاحها ماتيس جانبًا بكلتا يديه.

وفي مساء أحد أيام السبت، هبط جورجن مندفعًا على السُّلَّم وتوجه مباشرة إلى ماتيس. كان ماتيس قد قضى اليوم يجدف بقارب فارغ كالعادة. الآن هو بعد العشاء. ماتيس في الغرفة الرئيسة، هيج في فراشها. أراهن أنها واقفة أمام المرآة، هكذا فكر ماتيس بمرارة. كان القمر ساطعًا بالخارج. حينئذ جاء جورجن مجلجلًا من غرفته بسرعة غير عادية. حبس ماتيس أنفاسه.

توجه جورجن نحوه: «أعتقد أنك سوف تضطر إلى أن تخرج إلى البحيرة!»

قفز ماتيس: «هل هناك نداء؟»

فقط حينئذ جاءت هيج. أنيقة.

بدا جورجن مندهشًا نوعًا ما، متحيرًا من شيء ما قد سمعه.

«لست متأكدًا تمامًا ـ نعم أظن أنه لابد وكان ـ شخص ما ينادي، يريد أن يعبر البحيرة».

شعر ماتيس بالإثارة تخفق في عروقه.

قال بهدوء: «هكذا جاء أخيرًا».

وقف جورجن ينظر إليه في عجلة تامة.

هكذا جاءت الآن، الرحلة الليلية التي كان ماتيس يفزع منها وتصورها مرة تلو أخرى. النوع من الأشياء التي يتعين على المراكبي أن يكون مستعدًّا لها.

قال: «أنا متأكد أن هذا صحيح ما سمعته جورجن. أعرف أنه يجب أن أقوم بهذه الرحلة الليلية عاجلًا أم آجلًا. قالت هيج الشيء نفسه».

وكالمعتاد نظر على هيج. كانت تعطيه ظهرها، ذهبت سريعًا إلى النافذة ونظرت إلى الخارج على ضوء القمر.

قال جورجن: «نعم، أخشى أنه ينبغي عليكم أنتم المراكبية أن تكونوا دائمًا على استعداد، حينما يصيح شخص ما عليك فقط أن تمضي».

أومأ ماتيس. فهو قد استعد بكمية معينة من الطقوس، ارتدى سويترًا دافئًا وشيئًا أو شيئين آخرين. وقف بعد ذلك أمام جورجن وأمام ظهر هيج: «يجب أن تنتظراني حينما أعود، هذا كل ما أستطيع قوله. لكن سيستغرق ذلك بعض الوقت تمامًا، أنا متأكد».

قال جورجن: «نعم، سيكون عليك أن تقوم برحلة عبور، حتى لو لم يكن ينتظرك شخص على هذا الجانب».

خطا ماتيس إلى الخارج.

كان مرعوبًا. لكنه كان عازمًا ألا يهرب أمام جورجن. كان يمضي إلى البحيرة، سوف يريه.

وبالخارج أطل قمر الخريف المحتقن على العشب الأخضر. جماله يفوق الوصف. لاحظه ماتيس، لكنه لم يستطع أن يتوقف الآن، مضى مباشرة إلى القارب. لم يكن هناك أحد يقف هناك، وهناك لم يسمع أحدًا ـ كان ماضيًا كليًّا إلى ما قاله جورجن حينما خرج. لكن شخصًا ما بارعًا مثل جورجن يُفترض أن يكون على حق.

هبت نسمات رقيقة. بقبقت موجات صغيرة فيما بين الحصوات التي تتلألأ في ضوء القمر.

لكن هل يُفترض أن يسعفه القارب؟ لقد كان على وشك الانهيار حينما أتى جورجن. منذ ذلك الحين لم يركبه أحد معي.

فقط على الراكب معي أن ينزح الماء، أيًّا ما كان، وفكر في أنه لن يكون شخصًا عاديًا بالطبع.

أنت لا تعرف ما الذي يمكن أن تشبهه نوعية الناس الذين يطلبون مركبًا في الليل. لكن أيًّا من كان سوف أجدف به على الفور، سوف أريه. سوف أريهم جميعًا! قال ماتيس هذا بتحدٍّ، وبدأ يبتعد.

في الخارج على البحيرة، بدا القمر الأحمر أصغر. لكنه كان رائعًا هنا إلى درجة أنك تتمنى أن تكون مراكبيًّا ليليًّا لباقي حياتك، وتنام أثناء النهار.

استند ماتيس على مجدافيه، تاركًا شفرتيه اللامعتين تتأرجحان على صفحة الماء. أنصت باتجاه الشاطئ. ثم بدأ يجدف ثانية. جدف ببطء، كان ينتظر أن يسمع من أين أتت النداءات.

لم تكن هناك نداءات. قال لنفسه: لكن يفترض أنها من فوق التلال الغربية. بدأ يجدف في هذا الاتجاه. ومر الوقت. وقبل أن يتأكد، كان منحدر التل فوقه تقريبًا. جدف إليه مباشرة بدون أن يسمع صوتًا.

ومع وجود منحدر التل فوقه، انتابه شعور بالغرق، هو بالأحرى شعور ما قبل العاصفة. لكنه جدف مباشرة إلى الشاطئ، واحتك القارب بالقاع الرملي.

يجب أن أدعه يعرف أنني هنا الآن.

لا، لا أجرؤ. بالتأكيد أنا فعلت ما يكفي من تجديف في الظلام الملعون.

لكن صوت كل المراكبية قال: أخشى أنه ينبغي أن تفعل ماتيس. أخبره أنك أتيت. فأنت الآن هنا مراكبي.

«هوو-واي!» نطقها بصوت مرتعش، وبوقفة قصيرة غريبة في المنتصف. وكان قد بدأ ينضح بالعرق البارد، أيضًا. جلس منحنيًا في القارب، بدلًا من أن يقف قويًّا ومستقيمًا يطلق صيحته.

فكر، لا يوجد الكثيرون ممن سيغيرون أماكنهم معي الآن.

كان منحدر التل صامتًا.

أطلق صيحة أخرى ماتيس، أو...

قال بتعاسة: «هووي».

صرخ طائر من بين الأشجار.

هذا يكفي ماتيس فالمزاج يتراجع الآن. ضرب بمجدافيه إلى الماء وجدف مبتعدًا عن الشاطئ، مخلفًا في أثره الرغاوي. كان يرتعش من

الخوف، يجدف على غير هدى. لم يتوقف إلا حينما ابتعد، وانتظر أن يهدأ ذعره. جلس قليلًا يلهث متلقفًا أنفاسه.

حسنًا، لم يكن هناك أحد بالتأكيد يريد العبور. فكر، لقد خُدِع كلانا، جورجن وأنا. لكن من هو الذي يفعل هذا؟

في رحلة الرجوع جدف عابرًا ببطء وهدوء مذهولًا ومستغرقًا في التفكير. ومن حوله كان الليل جميلًا مثلما كان أبدًا.

في هذه الساعة المتأخرة، خرجت هيج خطوات لتقابله بمفردهما. ألم تذهب إلى النوم؟ ما الذي يحدث؟ هنا كانت ترتدي ملابسها بالكامل.

«هل حدث أي شيء هيج؟»

هزت رأسها. قالت: «أنا سعيدة أنك عدت أخيرًا».

لابد أنها جلست تنتظر قلقة عليه. انتابه شعور بالدفء.

تبعها إلى الحجرة الرئيسة حيث كانت مضاءة. وهناك وقف مندهشًا بالكامل: لم يلاحظها في ضوء القمر، لكنه يستطيع الآن أن يرى تعبير السعادة المكشوفة مرسومًا على وجه هيج.

«ماذا هناك؟»

قالت: «لا أعرف».

غمره شعور بالسلام والعرفان، فلديه أخت طيبة تجلس تنتظره حتى يعود في سلام من مغامرته في البحيرة.

قال: «لم تقدري على النوم، أنت تعرفين، لم تكن رحلة خطرة كما يبدو».

تلجلجت هيج: «ماذا؟»

سأل أيضًا: «ما الحال الآن إذًا؟». فجأة أصبحت غريبة تتجنب نظرته.

قال بامتنان: «أنا سعيد أنك جلست تنتظريني رغم ذلك».

أومأت له، لكن التعبير الغريب ظل مرتسمًا.

قال فجأة: «لا يجب أن تتركيني أبدًا!»

لم ترد. شعر أن هذا لم يكن ضروريًّا أيضًا.

٣١

في الصباح، لاحظ ماتيس الطريقة التي لاحقت بها هيج جورجن بعينيها أكثر قربًا من ذي قبل. فحينما يكون جورجن في الحجرة، لا ترى شيئًا غيره. لم يحب ماتيس هذا، وصعد إلى الحطاب بينما هو يستعد للمغادرة.

«لابد أنك ارتكبت غلطة الليلة الماضية، لما خرجت في مأمورية بلهاء».

قال جورجن: «يا».

وخرج إلى الغابة.

كانت تلك هي النهاية معه. لم يعد جورجن قريبًا منه نوعًا ما. جلست هيج في الخلفية. لقد توقفت عن الحياكة واستمرت ترقب الرجلين. لكن

في اللحظة التي غادر فيها جورجن، عادت أصابعها إلى لحظاتها المشغولة المعتادة.

كان كل شيء دقيقًا كما كان دائمًا، ومع ذلك لم يكن مجرد ما كان دائمًا. جلس ماتيس يفكر في الأمر، ووصل إلى هذه النتيجة.

فكر بعد قليل، أنا أحتاج إلى بعض الحلوى.

أراد أن يمضي مباشرة، فهو يحتاجها بالفعل بعد كل شيء مباشرة، لكنه حينما ذكر موضوع النقود والمتجر، قالت هيج لا.

«أقوم بالشراء بنفسي الآن. أنت تعرف أنني أفعل هذا منذ بعض الوقت».

نعم، كان هذا صحيحًا، هي تفعل. لقد كان مشغولًا بالتجديف كل يوم.

«أنت تعمل كمراكبي الآن»، مضت هيج تقول، «وهذا أكثر من كافٍ بالنسبة لك. كما أن الناس يسألونك كل أنواع الأسئلة حينما تذهب إلى المتجر».

«لا، إنهم لا يفعلون!»

«ألا يفعلون ذلك؟ حسنًا، ربما يفعلون ـ وهذا ليس شأنهم، هل تسمع؟»

كان هناك ما يشبه نغمة الحسم في صوتها، حتى أنه لم ينطق كلمة احتجاج واحدة. كانت سعيدة بصورة غريبة جدًّا حينما وصل عائدًا الليلة الماضية آمنًا معافيًا. عندما توصل إلى هذا، كانت هناك نظرة سعادة على وجهها اليوم أيضًا.

بعد فترة قصيرة أعدت حزمة من الساندويتشات.

قالت بلهفة: «نسى جورجن غداءه، من الأفضل أن آخذه له».

قال ماتيس: «سأفعل هذا، إنني أعرف تمامًا أين هو».

قالت هيج: «لا، يجب أن تمضي إلى قاربك، لا تستطيع أن تتركه فقط بهذا الشكل».

حينئذ أخرج ماتيس ما في ذهنه: «إنها مروعة الطريقة التي لا تنزلي بها عينيك عن جورجن ولا ليوم واحد».

وقفت هيج متجمدة للحظة.

قالت لتكتسب الوقت: «ماذا تعني؟»

استمر ماتيس: «لا أحب ذلك، ينبغي أن تنزلي عينيك عن جورجن».

ضحكت هيج.

قالت وهي تغمز بعينيها: «هل تركز بصرك على كل شيء إذًا ماتيس؟ ماذا عن آنا وإنجر؟»

كان على وشك أن يقول، «أوه، هذا مختلف»، لكن قال ذلك بطريقة أخرى بدلًا من ذلك: «حسنًا، في هذه الحالة يمكنك أن تنظري على جورجن في مكنون قلبك». كانت سعادته تعود. فكر، كم هي لماحة ذكية؛ لقد لاحظت ما يتعلق به وآنا وإنجر.

اتجهت هيج إلى الغابة بالساندويتشات، وذهب ماتيس بدوره ليقوم ببعض أعمال المراكبية.

متجهًا إلى الشاطئ، راودت ماتيس الكثير من الأفكار الجديدة ـ كانت عن العيون تحت الأحجار: هناك غطاء فوق غطاء، وحجر فوق حجر، لكن لا يمكن أن تختفي.

كان سطح البحيرة واسعًا. نظر عبره. فكر بصورة قاتمة: النجدة ماتيس.

لماذا!

هو شرع في البداية.

غمغم بكلام ليس له معنى، وأمسك بالمجدافين. فكر، البدء في الجناح، وهناك حجر فوق حجر فوق العينين.

٣٢

لم يرحل جورجن ـ وكان لهذا فوائده. فهو يكتسب نقودًا جيدة من العمل في الغابة، ويدفع إلى هيج جيدًا. كان ماتيس سعيدًا وغير سعيد في الوقت نفسه؛ وبداخله عميق ينخر الخوف. قام بكل من الأعمال الطيبة والأعمال الشريرة: لأنه هو من أحضر الحطاب إلى البيت في المقام الأول. تساءل ما إذا كان جورجن سيأتي ويجلس معهما يوم الأحد، لكن جورجن كان يمكث في حجرته في السطح، أو يجلس على الشاطئ في مكان ما بمفرده. لم تذهب هيج في إثره، راقبها بعناية ليرى ما إذا كانت ستفعل.

وصل الأحد التالي. كان جورجن في حجرته كالعادة.

كان ماتيس يتفجر رغبة في الحديث.

«هيج»، بدأ هكذا بصوت متلعثم. كان عليه أن يكتشف المزيد عنها وعن جورجن.

تركته بالفعل يعرف: انفجرت: «لقد ضقت ذرعًا من حملقتك في!». للحظة كان هناك غضب شديد في صوتها. قالت: «لا أخطو خطوة بدون أن تحدق!».

اخترقته كلماتها مثل نصل حاد. ضاقت ذرعًا به.

ندمت على ذلك بمجرد أن قالته ـ كالعادة حينما يحتد مزاجها. أصبحت أكثر رقة ثانية: «أرجوك حاول أن تنسى ذلك ماتيس. هذا ليس حقيقيًّا، أنا لست غاضبة منك».

رد ماتيس مرعوبًا: «كيف يمكن أن أنسى ما قلت؟»

جلست هيج إلى جواره خائفة: «أحيانًا تضطر رغم ذلك أن تطلب من الناس أن تنسى أشياء قلتها. ألم تشعر أبدًا بمثل هذا الشعور؟ أنا لا أريد أن...».

قال ماتيس فجأة: «أنا أعرف ما الأمر».

أجابت هيج سريعًا: «ما الذي تعرفه؟ كيف يمكنك أن تعرف أي شيء حينما لا يكون هناك شيء لتعرفه؟ أنا لست غاضبة منك».

فكر، ياإلهي! إنها عنيفة بالفعل، لكنه كان أكثر منها عنفًا هذه المرة، فقد كان يتحدث عن جورجن، وهي تعرفه جيدًا، لا تستطيع أن تخدعه. فهو قد قلب الأمر كله في ذهنه بينما هو يجدف بقاربه في الأيام القليلة

الماضية. إذا كانت هي قد ضاقت به ذرعًا، فذلك من أجل جورجن. والآن عليه أن يكتشف كل شيء عن ذلك، لم يكن هناك شيء غير ذلك!

«انزل يا جورجن!»، صرخ فجأة ناحية حجرة السطح بصوت كان عاليًا بشكل خطير.

صاحت هيج: «ماتيس! ماذا تظن أنك تفعله بالله عليك؟».

«أنزل يا جورجن!».

ظنت هيج أن أخاها فقد السيطرة على مشاعره، أمسكت به من ذراعه لتحاول أن تخرجه من الحجرة. في الوقت نفسه تلفظت بكلمات تهديد بصوت منخفض غاضب: «اسكت! لقد جُننت! ما الذي سيظنه بك؟ تعال، سنمضي إلى الخارج. ألا يمكنك أن تترك جورجن في سلام!».

«جورجن!»

صاحت هيج تجاه حجرة السطح: «لا شيء».

قال ماتيس، رافضًا أن يدع نفسه يُجذب للخارج: «يمكنني سماعه قادمًا، الآن».

نعم، كان جورجن على السُّلّم الآن.

تركت هيج ماتيس يذهب، اندفعت إلى غرفتها وأغلقت الباب خلفها.

جاء جورجن، وسأل: «ما الأمر ماتيس؟ ها هو أنا».

كان جورجن في يوم الأحد في أفضل حال، شاب حسن المظهر وحطاب رائع. لم يجب ماتيس عن أسئلته، تراجع إلى الخلف بالأحرى بسلوكه المتهور.

قال جورجن بصوت أكثر حدة على الأصح وهو يقترب: «أي نوع من الألعاب تلك؟».

لم يكن هناك شيء سوى أن يأخذ طريقًا آخر: قال ماتيس، وخداه يتوردان: «أخشى أنك لن تستطيع البقاء هنا بعد ذلك». خرجت الكلمات قبل أن يتأكد ما الذي كان يحدث ـ قد جرت في ذهنه مرات عديدة بالفعل.

قال جورجن: «بالفعل؟ ما الذي فعلته إذًا؟». لم يبد غاضبًا جدًّا أيضًا، بدا كما لو أنه تقريبًا متقبل للأمر.

اندفع ماتيس: «لا يجب أن تأخذ أختي بعيدًا!» وقف جورجن ساكنًا.

«لن آخذ أختك إلى أي مكان. ولا أنا سأغادر المنزل، خصوصا حينما أكون مقيمًا فيه».

ظل ماتيس تائهًا للحظات.

«هيج ليس كما اعتادت أن تكون، وهذه غلطتك».

«ما الذي تقصده؟ ما الذي أخبرتك به هيج؟»

بدأ ماتيس يقول: «هيج لم...»، لكنه توقف. كان في طريقه أن يقول: لم تعد حنونة، لكنه غيرها إلى: «لم تعد مثلما اعتادت أن تكون، هذا كل ما في الأمر!

نسى الحطاب أن يتمالك نفسه، وضحك ضحكة صغيرة.

كان لضحكته تأثير فوري على ماتيس. استشاط غضبًا، طاردت ذهنه كل أنواع الأفكار، قبل أن يتأكد مما كان يحدث، إنه يعطي رجلًا تافهًا قطعة من عقله: «لست بحاجة لأن تضحك! ماذا تعرف عن الأشياء التي

أعرفها؟ ماذا تعرف عن الطائر الذي حلق على الممر هنا ـ أكثر روعة مما ستعرفه للأبد! لكنه كان هناك. وكان من أجل هيج. أنا أعرف الكثير عن هيج، الكثير. ثم أتيت أنت!»

انهار ماتيس تقريبًا من قوة كلماته، ومن المحتمل أنهما انتويا أن يسحقا جورجن بالكامل بحيث لا يجرؤ أن يظهر هنا مرة ثانية.

لكن لا يبدو أن الأمر كذلك.

أجاب جورجن بهدوء: «نعم، ها أنا قد أتيت. بالمناسبة أين ذهبت هيج؟»

أشار ماتيس إلى الباب.

شعر بالانتهاك حينما رآه يأخذ طريقه مباشرة إلى غرفتها: «ما الذي تفعله؟»

«انتظر ثواني ماتيس، ربما يتعين فقط أن نتحدث عن هذا الشيء بشكل صحيح».

وبهذا مضى جورجن إلى غرفة هيج، وأسفر انفجار ماتيس كله عن لا شيء. داخل الحجرة، تم تبادل بضع كلمات متسرعة ـ ثم فُتح الباب، وأتى كل من جورجن وهيج معًا. من الواضح أن جورجن يتصرف كما لو أنه حامي هيج. نظرت هيج إلى أخيها، بخجل هذه المرة.

وضع جورجن ذراعه حول جسدها القصير البدين. وعبر بها بعد ذلك إلى حيث كان يقف ماتيس. لم يملك ماتيس إلا أن يفتح فمه. تورد لون هيج خجلًا.

قال جورجن: «نحن صديقان حميمان، هيج وأنا، تمامًا بالشكل الذي ينبغي أن تعرفه».

لم تعارض هيج، كانت راضية تمامًا أن تقف هناك مع جورجن بذراعه حولها ـ سعيدة من ناحية، ومرعوبة من ناحية أخرى.

سأل ماتيس بصعوبة بالغة: «هل أنتما بالفعل حبيبان؟»

نظرت هيج أخيرًا. إنها قدمت إلى ماتيس الكثير جدًّا من الوجبات على مر السنين التي شعرت فيها أنها قادرة على أن تفعل.

قالت له: «نعم، نحن كذلك». وسواء قصدت هي أم لم تقصد، فقد أضاء وجهها بابتسامة عريضة، أعرض مما استطاع ماتيس أن يتذكر.

ثم ابتسمت بطريقة أخرى، وقالت له: «وأنت كنت الشخص الذي أبحر به إلى هنا، تذكر».

كاد ماتيس ألا يسمع ما تقوله. سيطر عليه خوف مفاجئ. هيج ضاعت منه.

سأل بضعف، لكن بتصميم: «متى أصبحتما حبيبين إذًا؟»

«بينما كنت تجدف في البحيرة، أصبحنا حبيبين».

رأى ماتيس كم كانت هيج سعيدة، تقف هناك وذراع جورجن يحيط بها. من الصعب التعرف على وجهها، فلا أثر للإرهاق أو الغضب، لا قلق يشوبه. شعر بالهزيمة التامة إزاء كل ذلك، مال تقريبًا في البداية إلى الإحساس بالسرور، لكن حينئذ اجتاحه يقين تام: هيج ضاعت.

لا، لا.

بالتأكيد تستطيع أن ترى ذلك. لقد ضاعت.

انفجر أخيرًا: «لماذا لم تخبريني إذًا هذا من قبل هيج؟»

قالت هيج: «أردنا أن نكون متأكدين أولًا. لكنك اكتشفت هذا بنفسك الآن كذلك. أنت كنت ذكيًا».

بدأ من عند هذه الكلمة الإطراء التي استخدمته لتهدئته. إنها جعلته يتلوى. سأل السؤال الذي بدا أن كل شيء معلق عليه.

«هل سترحلين؟»

«لماذا تظن ذلك؟»

«حسنًا، لأنك لم تجرُئي أن تخبريني!»

قالت هيج بحزم: «لا، لن نرحل. هناك غرفة لجورجن هنا أيضًا. سيكون كل شيء على ما يرام كما كان من قبل».

لم يجرؤ ماتيس على أن يصدق. سوف يختفيان كثيرًا عنه. قال بحرارة: «أتمنى ألا أثبت إلى الأبد في عمل المراكبي».

قالت هيج: «الآن، الآن. أنت لديك وظيفة جديدة، تجدف في هذه البحيرة طوال اليوم».

«لكن الشخص الوحيد الذي عبرت به هو جورجن! أتمنى لو أنني لم أزاول هذا العمل أبدًا».

ظل جورجن صامتًا طوال الوقت. ها هو الآن أخيرًا يتكلم.

قال: «ربما يكون هناك آخرون».

فقط هز ماتيس رأسه. استمر جورجن: «أنت لا تعرف أبدًا ما الذي سيحدث ـ في البحيرة، أنت تعرف».

شعر ماتيس أن من حقه الآن أن يكون قاسيًا لا يرحم: «أتمنى لو أنني أبدًا...»

لم يواصل أكثر من ذلك، تدخلت هيج قبل أن يلعن كل شيء ويدمره. مشت مباشرة إلى أخيها، وفعلت شيئًا لم تفعله من قبل على قدر ما يتذكر: احتضنته، ضمته بقوة بين ذراعيها. اكتسى وجهه بتعبير غريب. قالت حينئذ: «مبارك أنت يا ماتيس لتصبح مراكبيًا».

تركته ثانية، سريعًا وبالأحرى بخجل، مشت إلى جورجن.

كان على ماتيس أن يسأل نفسه: إذًا لماذا هي غاضبة مني طالما أنها أصبحت هي وجورجن حبيبين؟ هل يسألها؟ لا.

قال، يستبعد الموضوع: «حسنًا إذًا، لابد أن هناك أنواعًا مختلفة من المحبين».

نظرا إليه، كان تحت مراقبتهما. تساءل، هل كان ذكيًا جدًّا معهما هذه المرة؟ سألت هيج: «ما الذي تعنيه بأنواع مختلفة؟»

قال ماتيس: «فقط لأنها ليست المرة الأولى التي أرى فيها حبيبين، أنت تعرفين. فالربيع الماضي كنت أعمل في فصل اللفت مع حبيبين، وقضيا الوقت كله يقرص أحدهما الآخر في فخذيه».

شعرت هيج وجورجن بالسعادة ثانية، بعيدًا عن حارسهما. قالت هيج: «كانا أصغر، هذا حينما يقرص أحدهما الآخر».

ظل جورجن صامتًا.

قال ماتيس: «كانا أيضًا حنونين طوال الوقت».

قالت هيج: «نعم، أنا متأكدة أنهما كانا كذلك».

«لكن لماذا كنت غاضبة هكذا؟»

عندها تراجع بعد كل شيء، بسبب ما قالته هيج. لم يستطع أن يرجعها. كان بالفعل سعيدًا تمامًا أنه قال ذلك.

طرفت عينا هيج، وأجفلت قليلًا. حاولت حينئذ أن تداري، بدون أن تنجح كثيرًا.

«غاضبة؟ لم أكن غاضبة».

لم تكن هذه إجابة ـ أربكها ماتيس، لاحظ هو ذلك. وبينما كان هو في هذا الموقف القوي، قال: «أنا ذاهب إلى قاربي، يتعين عليَّ أن أفكر كثيرًا في هذا!»

قالت هيج: «نعم».

مضى في الحال.

توقف عند منتصف الطريق إلى المنحدر، توقف يفكر، عاد قليلًا في الطريق، وحينئذ تحول فجأة، ورجع إلى أسفل ثانية.

أنت طائري الوودكوك ـ خطر له التعبير فجأة.

لم يدفع بالقارب، جلس على الشاطئ في مقابله، يستنشق رائحة القطران الممتعة. لكنه نظر إليه بنفور وهو غارق في التفكير: مَنِ الملوم أكثر على وصول جورجن، القارب أم هو نفسه؟ ليس أحدنا بمفرده من أحضر جورجن إلى البيت.

٣٣

بدأت هيج الآن تزور جورجن بشكل مفتوح تمامًا في المساء في وقت راحته. كان هذا أول تغيير يحدث بعد الإعلان المهم. واستطاع ماتيس أن يرى أن هيج مفعمة بالسعادة. إنه متأكد أنه يجب أن يكون هو أيضًا مفعم بالسعادة، لكنه لا يستطيع أن يظهر ذلك، فقد كان خائفًا.

استجمع شجاعته، وسأل: «ما الذي ستفعله؟ هل تنوي الإقامة هنا؟»

أجابت هيج: «لم نقرر أي شيء حول ذلك من مدة طويلة حتى الآن. سنترك الأشياء كما هي في الوقت الراهن».

«لكن متى ستعرفين!»

«سوف نرى. فقط توقف عن القلق».

ألم تدرك كم كان مرعوبًا؟ ما الذي سيحدث له في اليوم الذي سترحل فيه ولا تعود موجودة؟ كانت هيج في متناول يديه طوال حياته، هو لم يعرف أي شيء مختلف أبدًا.

«كما أنه هناك الطائر على الممر»، هكذا بدأ، لكنه توقف.

«الطائر الذي أُطلقت عليه النار؟ ماذا عنه؟»

«لا، هذا الطائر فقط مشبع بالرصاص».

«اسمع يا ماتيس، لا ينبغي أن تفكر كثيرًا في هذه الطيور، دع الطيور تصرف أمورها»، قالت هكذا بإخلاص كما لو أنها تستعد لتنطلق في

الغناء. ومع أنها لم تفعل، تجمد التعبير في وجه ماتيس تمامًا في الحال.

قال ماتيس بحزن: «أنا لا أفهمك».

ماتت كل الأغاني، قالت بحزم: «حاول أن تتصرف مثلما يتصرف الكبار».

«أي الآخرين؟» هكذا سأل بائسًا، مما ملأها رعبًا.

لم تجب.

خرج ليقوم بقليل من الأعمال الخاصة بالمركب. وفكر في أن هناك نداءً سريعًا آتيًا من البحيرة بالتأكيد. إن شيئًا أو آخر يحدث الآن.

هي قالت، كن كبيرًا. لم تستعمل كلمة مثل هذه في الأيام التي خلت.

كان يحكم سد الفتحات في القارب. فكل صباح، عليه أن يفحص الخرق المقطرنة ويستكمل الإصلاحات. كان القارب الجديد الآن أكثر من أي وقت مضى حلمًا يتلاشى عن بعد.

كن كبيرًا؟

أطال ماتيس التأمل في الطلب بدون أن يفهمه.

كانت هيج سكرى بالفرح، ولم تعرف بعد ما الذي تقوله، كانت تلك هي المشكلة.

لم يدفع بالقارب بعد إلى الماء ـ وفي هذه الحالة لن يفعل أبدًا، لأنه سمع قعقعة خافتة في الهواء.

رعد. كان ركام من السحاب يرتفع فوق التلال. وفي الوقت نفسه، هناك قرقعة تأتي من مكان ما.

قال، حسنًا، هناك شيء واحد ينبغي فعله الآن. لم أوافق أبدًا من قبل أن أنقل أي شخص في العاصفة الرعدية. شكرًا لله أنني وضعت هذا الاستثناء.

استخدم جزءًا إضافيًّا من حبل آخر ليربط القارب في حالة ما إذا هبت بالفعل رياح قوية، ووضع المجدافين تحت غطاء، ومضى إلى مخبئه المعتاد، بدون أفكار أخرى في عقله. لم يشعر بأنه ملتزم بالاتفاقات الطبيعية أثناء العواصف الرعدية. وفي منتصف الطريق إلى أعلى المنحدر، تذكر فجأة طلب هيج الذي ألحت عليه: كن كبيرًا! توقف يفكر في الأمر.

أعلى على القمة، رأى جورجن يدخل إلى المنزل. هل وقعت له حادثة في الغابة؟ لا يبدو كذلك. جورجن لم يذهب إلى الغابة بعد، هو في البيت مع هيج في الوقت الذي يُفترض فيه أن يكون في العمل.

كان صوت القرقعة يعلو، ومشى أسرع. افترض أنه ذهب إلى المنزل وبقي مع هيج وجورجن أثناء هبوب العاصفة الرعدية. ألن يكون هذا عملًا يفعله من أعمال الكبار؟

اعترف، لا، أنا لا أجرؤ. ومضى مباشرة إلى المكان المعتاد الآمن. ربما لن تكون العاصفة بالسوء الذي كانت عليه آخر مرة، لكنها تكفي لأن تستنزف كل قوته. اندفع إلى الداخل، أغلق الباب ووضع أصابعه على أذنيه.

لم يصاحب العاصفة أي ضوء أيضًا. وبعيدًا عن الهزيم والأصوات الخارقة، بدأ صوت همسات. جلس ماتيس يستجمع نفسه. لم يخطر في باله للحظة أن يتصرف مثل الكبار: فالوضع كان خطيرًا جدًّا.

لكن في هذه المرة، لم يوفر له مخبؤه الحماية الصحيحة. فلا العاصفة، ولا أصابعه في أذنيه استطاعا أن يغطيا على صيحة جورجن. لقد جاءت مباشرة من الجانب الآخر من الجدار. كان صوتًا صارمًا مدعمًا بالسلطة.

«ماتيس! اخرج تعال!»

فكر ماتيس، أخرج؟ هل هو مجنون؟ لم يتحرك، فقط نظر ليتأكد من أن الخُطاف على الباب.

بالخارج، تكرر الأمر.

«اخرج يا ماتيس!»

فجأة اكتشف ماتيس أن هذه هي تمامًا الطريقة التي نادى بها جورجن بنفسه من حجرة السطح في ذلك اليوم.

صاح جورجن: «هل ينبغي أن أدخل وأسحبك إلى الخارج الآن يا ماتيس!»

ما الذي يحدث؟ كان جورجن تقريبًا غير معقول. قال: أسحبك إلى الخارج، هذا يجعلني من المستحيل أن أبقى. بالخارج الرعد يصخب بعنف، حتى أن وجه ماتيس صار شاحبًا وشعر بالارتخاء في ساقيه، لكن كان يتعين عليه أن يخرج الآن في الوقت نفسه ـ أو إنه لن يتبقى له شيء. وكل هذا بسبب أنه هو جورجن الذي يقف هناك ينادي.

صاح من خلال الباب: «أنا قادم!»

حل الخطاف، وعندما فتح الباب، أعمت عينيه ومضة برق، بدت كأنها اخترقته من الداخل ـ لكنه مشى إلى العتبة خارجًا إلى العشب. هناك كان هزيم الرعد فوق رأسه. الأمطار متوقفة حتى الآن.

تعرف بصعوبة على المكان الذي فيه. كان ماتيس شبه أعمى، رأى جورجن من بين الضباب، ومن بعيد لمح هيج تقف في المدخل، تشير وتلوِّح إلى جورجن، تبدو كما لو أنها تحاول أن تجعله يتوقف ـ أرادت أن تجنب ماتيس هذه المحنة.

أعلن ماتيس ببساطة: «ها هو أنا»، وخطا إلى الأمام. تخلت كل الأحاسيس عن ساقيه. مشى مباشرة إلى جورجن الذي تراجع قليلًا. ومض البرق ثانية.

«ما الذي تريده يا جورجن؟»

وقف جورجن ينتظر صامتًا بلا حركة.

مشى ماتيس من خلال البرق والرعد. لم يقع منهارًا مثل كيس فارغ، لم يضع أصابعه على أذنيه، ترك عينيه مفتوحتين على اتساعهما، مشى متعمدًا إلى جورجن ـ لقد ظهر له!

هو قد جاء له، واستقبله جورجن بدون أن يتحرك كما من قبل.

كل ما قاله: «جميل».

قال جورجن هذا بتركيز ـ استطاع ماتيس أن يستشعر ذلك، قال هذا باحترام.

كان ماتيس يرتعش، لكن ساقيه حملتاه بدون أن تخذلاه. نظر إلى جورجن بشعور من الصداقة والخوف.

قال ماتيس في نوبة من الإثارة: «نعم، لكن ما هذا؟ أخبرني ماذا تريد مني؟»

قال جورجن: «تعال واجلس معنا، هذا كل شيء. ليس هذا بمكان تبقى فيه».

أحس ماتيس بالغضب يعتمل بين جوانحه، لكنه لم يكن يجرؤ على أن يكون غاضبًا في مثل هذا النوع من الطقس. تردد قليلًا، لكن في النهاية تَبِعَه إلى الداخل. كان قلبه يخفق بوحشية. انتهى الجزء الأسوأ من العاصفة، فقد كان هزيم الرعد يتلاشى بعيدًا.

مازالت هيج تقف في المدخل، كان من الواضح أنها هي القلقة على ماتيس.

قال جورجن لها: «أظن أنه من الأفضل أن تدعينا ندخل».

أومأت هيج، لم تعرف ماذا تقول. تبعتهما إلى الداخل، وبذلك دخلوا جميعًا إلى الداخل. حدق ماتيس على هذين الشخصين القويين والبارعين. لكنه لم يستطع أن يسمح لنفسه بأن يجلس معهما، ولم يقدر على أن يفعل أي شيء ـ كان رد الفعل عارضًا بعد كل هذه الإثارة. وبينما كانت العاصفة تهدأ، توجه إلى دكته ورقد عليها، غلبه النعاس فراح في غفوة هادئة، شاردًا بأفكاره بعيدًا.

٣٤

بعد هذه الحادثة، انتظر ماتيس شيئًا ما أكثر من جورجن. توقع منه أن يدعوه ليفعل أشياء أخرى كذلك. فأنت لا تستطيع أن تحكي أبدًا عما يمكن أن يتوصل إليه أناس مثل جورجن.

كان ماتيس ممتنًّا له من أعماقه لما حدث أثناء العاصفة الرعدية. فهو للحظة قصيرة قد كَبُر قليلًا بدرجة ما. لكن، بعيدًا عن هذا، مازال مذهولًا كما كان من قبل ممتلئًا بالظنون. لاحظ كيف كانت هيج وجورجن سعيدين مع بعضهما البعض. ورأى الطريقة التي يضيء بها وجه هيج بالبهجة حينما يعود جورجن إلى المنزل من الغابة. رأى الكثير من المؤشرات الصغيرة على الفجوة التي تفصل الآن هيج عن حياتها القديمة، وعن أخيها.

ما الذي سيحدث لي؟

داوم على مراقبتهما:

هل يظنان أنني أستطيع أن أدير الحياة بمفردي؟

لا أظن أنهما فكرا في الأمر.

سأل هيج مباشرة: «لماذا أخرجني جورجن إلى العاصفة الرعدية؟»

أجابت هيج: «أراد أن يرى مقدار ما ستتحمله، وكان أكثر مما ظننا».

جعلته كلماتها يرتعش. افترض أنه لم يستطع؟ كان سعيدًا أنه اجتاز الاختبار. وربما كان هذا دلالة منذرة بما يدخره له جورجن.

أخذ يجول بالقارب في البحيرة، وهو فريسة للقلق والافتراضات الوحشية. لم يكن هناك مسافرون؛ ومن حين لآخر يأتي صوت أزيز محرك زورق، وأحيانًا يتجه مباشرة إلى التلال في الغرب. لم يطلب أحد قارب ماتيس.

فكر في أن الشيء الجيد الوحيد، هو أنني أتعلم من جورجن ما الذي أفعله حينما أقابل فتيات. يا لكثرة الأشياء التي لم أعرفها! لكن المدهش أنني تصرفت مع آنا وإنجر كما لو أنني أعرفهما.

تبدو هذه الأسماء السماوية دائمًا قريبة جدًّا من هنا في الماء. جدف ببطء، ومضى القارب في هذا الاتجاه وفي ذاك.

قبل مرور وقت طويل كان ماتيس يبحث عن قرارات مرة أخرة: سأل هيج بلهجة غير ودية تقريبًا: «هل تعرفين أي شيء أكثر الآن؟» لم يكن هناك شك فيما كان يشير له.

أجابت هيج بإخلاص: «لا، نحن لا نعرف أي شيء. نحن فقط سعيدان. لماذا لا تكون سعيدًا أيضًا؟»

كانت شخصًا مختلفًا، بدا أنها تنسى الماضي. حينما كان ماتيس بالقرب منها، رأى كم كانت سعادتها مكتملة ـ بطريقة كان قادرًا بها أن يشارك في سعادتها. استطاع أن يظهر مرِحًا وجريئًا، وحتى متهورًا: قال: «ربما فقط تخبريني كذلك».

«أخبرك ماذا؟»

«أستطيع ذلك»، هكذا قال بصورة غامضة على الرغم من أن أعماقه من الداخل كانت ترتجف من الخوف.

نظرت هيج عليه مترددة. كانت عمياء، لم تستطع أن ترى. لكن عادت حينئذ سعادتها مرة أخرى، وأرادت أن تخرج.

بدأ يقول: «هل تتذكرين ما الذي كانت تشبهه الأشياء من قبل؟»، لكنه لم يستطع أن يستمر، كان عليه أن يغادر بدون كلمة أخرى. عاودته الكثير من الذكريات.

٣٥

في صباح يوم ما، توجه إليه جورجن، من الواضح أن لديه شيئًا ما خاصًّا في رأيه يريد أن يقوله. بادر ماتيس: لابد وأن هذا اختبار ما جديد. ربما أن جورجن سينفذه حينما يتركه. كان صباحًا باردًا في بداية سبتمبر، مع بقع من الضباب تنجرف فوق البحيرة وعلى السماء من فوقها.

لقد استعد جورجن ليمشي إلى الغابة كالمعتاد، الآن أتى إلى ماتيس: «يجب أن تأتي وتعمل معي في الغابة قليلًا الآن».

أجاب ماتيس باقتضاب: «لديَّ المعدية لأعتني بها».

قال جورجن: «لا أحد يعبر الآن في الخريف هنا. يمكنك أن تأتي معي إلى الغابة اليوم».

بدا تقريبًا أنه يصدر أمرًا، هذه هي نوعية شخص مثل جورجن. نادى ماتيس على هيج، فظهرت هيج في الحال.

«هل يُفترض أن أذهب إلى الغابة مع جورجن؟»

قالت: «نعم، اذهب مع جورجن. إذا كنت لا تعرف شيئًا عن تقطيع الأشجار، فسوف يُعلِّمك. سوف أجهز بعض الساندويتشات فورًا».

وقف ماتيس حائرًا.

لم تعد الساندويتشات مشكلة بعد. لديهما الكثير ليأكلاه هناك مع الحطاب، بالمقارنة مع ما كانت عليه الأحوال من قبل. سمح ماتيس لنفسه أن يكون جاهزًا، لكنه لم يشعر بالسعادة من جراء ذلك.

قال جورجن حينما تم كل شيء: «حسنًا».

«ما هو الأساس في كل ذلك؟»

«نحن بسبيلنا أن نتعلم كيفية تقطيع الأشجار».

ذكره هذا بالوقت الذي نادى عليه للخروج في العاصفة الرعدية. والآن، فقط كما لو كان يؤدي بصورة جيدة جدًّا في عمل المراكبي، وحصل على وظيفة ثابتة يستطيع أن يتماشى معها.

وفي طريقهما إلى الغابة، مشيا عبر القرية. رأى الناس ماتيس والحطاب يمشيان معًا، وكان ماتيس يرتدي مثل الحطاب نفسه. كان الأمر لطيفًا، على الرغم من أنه لم يكن يعني الكثير الآن كما حدث من قبل في الربيع. فتغيرات كثيرة قد حدثت منذ الصيف.

كان عليه أن يضحك.

قال جورجن مبتسمًا: «الحال على ما يرام؟»

«أوه، لا شيء، تذكرت فقط الطريقة التي لم أستطع أن أقتلع بها اللفت في الربيع».

قال جورجن: «همم». فهو وافد جديد، ولم يفهم تمامًا.

لاحظ ماتيس ذلك.

قال: «الجزيرة الصخرية».

قال جورجن بصدق: «أخشى أنني لا أفهم ما الذي يعنيه ذلك».

قال ماتيس: «لا، لا أظن ذلك».

أيضًا لم يقدم أي تفسير إضافي.

وصلا إلى المكان الذي يقطع فيه جورجن الأشجار. بدا المكان مثل ميدان معركة: هناك جذوع أشجار في كل مكان، ممددة فيما بين الأفرع المقطوعة. ألقى إلى ماتيس بجذع نصف منتهٍ، وطلب منه أن ينزع عنه اللحاء. وبدأ جورجن عمله أبعد قليلًا منه.

قام ماتيس بعمل كل شيء بأفضل ما يستطيع، لكن هذا مختلف عن الجلوس في القارب يجدف ـ هنا في الغابة اضطربت أفكاره على الفور. وظهر هذا على جذع الشجرة، بدا كما لو أن شيئًا ما قد نخره. كانت الأشجار من خلال جورجن تتحطم من أعلى وتنشق الفروع وترتجف الأرض.

كان ماتيس ينضح بالعرق. في النهاية أعلن أنه قد انتهى.

جاء جورجن. قام بنوع من النخر. وبعيدًا عن هذا لم يظهر أنه كان راضيًا. ينبغي أن يبدو الجذع مخيفًا لحطاب حقيقي.

كان كل ما قاله جورجن: «خذ راحة قصيرة، وسوف أضيف لمسات قليلة هنا وهناك».

جلس ماتيس. بدا جورجن كأنه يبتلع الجذع بفأس حديدية صغيرة جدًّا لنزع اللحاء. كان السؤال يدور ويدور في رأس ماتيس: لماذا أنا هنا؟

قال بصوت عالٍ: «لماذا أنا هنا؟»

قال جورجن: «لتتعلم».

«نعم، لكن لماذا؟»

«إنه شيء مفيد أن تكون قادرًا أن تقطع الأشجار».

رفض جورجن أن يفسر المزيد. فكر ماتيس: كل هذا بسبب أنهما سيرحلان.

«أنت ناديت عليَّ للخروج في العاصفة أيضًا».

«نعم، وأنت نجحت بشكل جيد جدًّا. الآن نحن سنتناول الطعام ونستريح فترة قصيرة».

أعطى الطعام إلى ماتيس.

«هذا لم يكن ما أنا...»

«لا، لكن خذ هذا. أنت لم يكن لديك الكثير منه في حياتك».

من جانب جورجن، كان هذا نوعًا من الرموز الصغيرة للصداقة، لكن ماتيس لم يستطع أن يجبر نفسه على أن يلمس ما قدمه إليه.

«أنت قد أحضرتني هنا لسبب!»

كان جورجن يمضغ ساندويتشاته ببطء.

قال: «إنه من أجل الخير الذي نكنه لك من الأعماق. أستطيع أن أعدك بذلك ماتيس».

أكل ساندويتشًا بأكمله قبل أن يقول شيئًا آخر.

قال فجأة ونظر إلى ماتيس بصورة واضحة: «نحن فقط لا نعرف ما نفعله».

قال ماتيس مستوعبًا سريعًا: «عني أنا؟»

«نعم بالطبع».

جلس الحطاب الكبير يمضغ ساندويتشات هيج. كان هناك نوع من التعبير على وجهه. من ناحية معينة، لم يكن ماتيس خائفًا منه، لكن في الوقت نفسه فإن الأشياء التي عرفها جورجن ولن يخبره بها جعلته يرتجف.

قال جورجن: «لكننا نستطيع أن نتحدث عن ذلك فيما بعد. أنت ستتعلم كيف تقطع الأشجار الآن. فالناس يمكنها أن تكسب نقودًا حينما يعرفون كيف يفعلون ذلك، ثم يستطيعون أن يديروا أمورهم».

«اندفع ماتيس: «أنا أدير أموري بالفعل».

قال جورجن بصوت ودود ولكنه حازم: «أوه نعم، لكن من الأفضل أن تكون قادرًا على أن تدير أمورك بطريقتك».

كانت حالة ماتيس في التنبه والمراقبة في هذه الأيام، تعني شيئًا واحدًا فقط: سيتركانه، لم يكن في هذا شك.

صرخ: «لا أريد أن أتعلم!»

قال جورجن: «أحيانًا نضطر إلى فعل أشياء لا نحبها»، وكان هذا بالصوت نفسه الذي استدعاه به. ماتيس، أُخرِّج إلى الرعد والبرق.

كان ماتيس بسبيله إلى أن يستسلم. لكن فجأة خطرت له فكرة. سأل على حين غرة: «هل يمكنني أن أعود إلى البيت؟»

كان جورجن يواجه الطريق الآخر؛ كل ما فعله أنه أتى بحركة خفيفة بظهره، لكنها كانت إجابة كافية.

انتشى ماتيس من خطته، لقد كانت خطة مضيئة.

قال جورجن: «كان هذا غباءً منك!»

حينئذ اندفع مسرعًا.

٣٦

رأت هيج أخاها يجري تجاه البيت. أسقطت كل شيء من يديها، ومضت مندفعة لتقابله من خلال السور من أعلى تجاهه فيما بين الروابي المكسوة بنبات الهيذر:

«هل أصاب نفسه؟»

«من؟»

«من؟»

«لا، إنه يقطع الأشجار مثل مجنون».

قالت هيج: «الحمد لله على ذلك»، وسرت ابتسامة الاطمئنان عبر وجهها. «الطريقة التي جئت بها تشبه كما لو أنها مسألة حياة وموت كما تعلم. لا يجب أبدًا أن تأتي مندفعًا هكذا من الغابة حينما يكون الناس يقطعون الأشجار، وإلا سيظن كل شخص أن هناك حادثة».

أجاب ماتيس بوداعة: «نسيت، كنت مشغولًا في التفكير في شيء آخر».

«ما هو إذًا؟ شيء يتعلق بك؟»

«لا، ليس حقيقيًّا. لا أستطيع أن أخبرك مقدمًا».

شعر ماتيس كيف أنه عرض هذا بصورة معتمة.

«ركضت إلى البيت لأنني أردت أن أتحدث إليك وأراك».

تململت هيج: «تراني أنا. بالفعل ماذا لو فكرت في هذا فيما بعد! فالوهم هكذا يرعبني، ظننت أنه قد أصاب نفسه».

كانت هذه تقريبًا بداية غير ملائمة لماتيس وخطته المضيئة، كما يمكنه أن يتخيلها. فالوهم يمزق البيت بهذه الطريقة الغبية ـ وحينما يكون متأكدًا تمامًا من أنه يقدر أن يفوز بتأييد هيج قبل عودة جورجن من الغابة. وفي ومضة خاطفة رأى حلًّا. لكن الآن؟ كانت هيج تقريبًا طائرة من السعادة والراحة تجاه جورجن ـ فقط لأنه لم يجرح نفسه.

وفي الوقت نفسه، كانت هي هيج في النهاية مَنْ بدأ، حينما وقفا هناك على الجانب الآخر من السور. كان ماتيس يتنفس بمشقة بعد المجهود الذي بذله في الركض ـ وفي غمرة البهجة، وضعت هيج ذراعها حوله، وجذبته ليجلس إلى جوارها على الرابية الصغيرة.

قالت بسعادة: «اجلس، وخذ نفسك. أنت مبلل بالعرق أيضًا بعد هذا الركض».

هناك، جلسا على الرابية الصغيرة جنبًا إلى جنب، كما لو أنه لم يكن هناك غيرهما أحدًا قط، وأن شيئًا لم يتغير.

وفجأة، خطرت لماتيس فكرة جديدة؛ الآن عرف ما الذي سيفعله:

أولًا ابتسم لها.

ابتسمت هيج مسرورة.

ثم أومأ.

ردت بإيماءة.

كان الأمر مثل لعبة منسية قديمة اكتشفاها فجأة.

لم يكن ماتيس ساذجًا تمامًا كما تتخيل الآن، هكذا فكر بنفسه. فهو لديه خطة.

بدأ: «ها هنا نحن جالسان على الرابية».

أومأت هيج. استمر: «ونحن جلسنا على روابي من قبل».

قالت هيج: «نعم، بالتأكيد فعلنا، وليس منذ زمن بعيد أيضًا».

ضحك ماتيس من نجاحه. لابد أنه بارع الآن وقد اكتسب هيج من جورجن.

«لا يوجد شيء يضارع في هدوئه الجلوس على الروابي معك». عند هذا، نظرت إليه هيج، مندهشة قليلًا؛ كان عليه أن يسرع: «أظن أنه ينبغي أن نجلس على الروابي بصورة متكررة أكثر».

«وي؟»

«ماذا تظن إذًا؟»

كل ما قالته هيج: «حسنًا، تستطيع، أليس كذلك؟»

استطاع أن يرى الحاجز الذي تضعه بينهما. كان يائسًا وأراد الحقيقة.

«لكن لست أنت؟»

قالت هيج: «أنا؟ حسنًا، لا. كان من المؤلم أن يرى الطريقة التي تتجنب بها نظرته.

«لماذا لا؟»

قالت: «أنت تعرف من أجلس معه».

قالتها ببساطة، كأنها تنسف خطته بضربة واحدة. الآن لم يتبق شيء. كما لو أن كل أفكاره وحماسته قد تسربت عبر غربال. فهو قد خسر قبل أن يبدأ تقريبًا.

«حسنًا، هذا كل ما أردت أن أتحدث عنه»، هكذا قال بقنوط، ونهض واقفًا.

لم تجب هيج، ولم تحول وجهها باتجاهه أيضًا. أضاف ماتيس: «الغريب هو أن الروابي لم تنفع. وظننت أنني سأنجح في اكتسابك قبل أن يعود جورجن إلى البيت». كانت هيج مازالت جالسة على الرابية الناعمة. الآن نهضت هي أيضًا، وقالت بلهجة يأس: «حسنًا، لا أعرف».

«ماذا»؟»

«ألا تظن أننا لم نتحدث عنك؟»قال ماتيس بسرعة: «أنا أعرف على نحو مضحك أنك فعلت».

قالت هيج: «سنفعل أي شيء نستطيعه، أنت تعرف أننا سنفعل، أليس كذلك؟»

انتبه ماتيس بصعوبة لما تقوله. رأى تسلقها من خلال السور، ورجوعها إلى الداخل. كان مشغولًا يقلب أمرًا ما في ذهنه: الأفكار المضيئة. ماهي الأفكار المضيئة في النهاية حينما تصل إلى النقطة الحاسمة؟ لا شيء. إذا حاولت واستفدت منها تتناثر مثل الهشيم، بمجرد أن يفتح شخص بارع فمه. تحتاج هيج فقط أن تقول كلمة أو اثنتين، وستصلك النتيجة، الخطة قد تدمرت.

هي تقول، افعل كل شيء في استطاعتك. إنها لا تفهم على الإطلاق.

٣٧

كانت هذه النهاية لعمل المراكبي. من المستحيل الهروب من إرادة جورجن الحديدية. يصطحب جورجن كل صباح ماتيس معه إلى الغابة. يجب أن تتعلم، قالها جورجن بطريقته الفظة التي تجعل كل الاعتراضات مستحيلة. يعترض ماتيس، لكنه يذهب معه في الوقت نفسه.

رجع متهالكًا، بعد يوم شاق، إلى النوع الجديد من الأكلات التي تعدها هيج الآن.

قالت: يجب أن تجتهد في هذا التدريب».

لم يكن من المفيد محاولة أن يشرح لها أن الأفكار تهدأ كثيرا مع المجدافين في القارب، لكن ليس مع فأس أو أداة نزع اللحاء ـ هي فقط لا تستطيع أن تراها.

كان جورجن رحيمًا معه في الغابة التي لم تكن كذلك معه. فهو ينتقي لماتيس أشجارًا صغيرة، من السهل أن يقطعها ـ وفي العادة يوليها اهتمامًا كبيرًا فيما بعد. لم يحقق ماتيس أي تقدم، كان يستميت من أجل أن يتحدث مع جورجن عن هيج طوال الوقت.

وفعل أخيرًا، بينما كانا يأخذان راحة وفنجانًا من القهوة. لقد استنزف نفسه، لكن لديه القليل ليظهره، كان بالكاد يحول أكوام الفروع. الآن، كلاهما راقدان على الأرض، يريحان رأسيهما على بعض الأحجار، نعسا في النهاية، كل واحد في عالمه.

إنه الآن وإما لا إلى الأبد.

اخرج إلى العاصفة! فكر ماتيس فجأة ليمنح نفسه الشجاعة. جلس حينئذ. كان جورجن متنبهًا في الحال لمن يحرسه.

«دعنا نستريح أطول قليلًا يا ماتيس».

أعلن ماتيس باللهجة التهديدية التي ينبغي أن تقال بها: «لا، أريد أن أتحدث معك».

«قل ما تريد».

«ألا تستطيع أن ترى أنني أجد الأمر أكثر صعوبة كل يوم؟»

كان هذا حقيقيًّا. فهو يتحول إلى الأسوأ بدلًا من الأفضل. عرف جورجن هذا جيدًا جدًّا، فهذا هو السبب في أنه لم يستطع أن يتحمل سماعه من ماتيس.

قال في الحال وبدا صوته متوترًا: «نعم، ما الأمر معك؟»

أعطى هذا ماتيس الشجاعة التي احتاجها. النغمة الغاضبة.

«وما الأمر معك؟ تأخذ هيج بعيدًا عني! وما الأمر مع شخص مثل هذا؟»

ارتبك جورجن.

كان كل ما قاله: «هذه فقط الطريقة التي جرت بها الأمور».

لاذا بالصمت. كانت هيج هناك في مكان ما فيما بينهما، ولا تنتمي لأي منهما.

لكن حينئذ قال جورجن: «ألا يمكن أن تفكر أنت في هيج قليلًا كذلك؟ ألا يجعلك هذا سعيدًا على الإطلاق؟ ما نوع الحياة التي تظن أنها عاشتها؟»

صُعِق ماتيس، احتاج وقتًا من أجل أن يرى الأشياء من هذه الزاوية الجديدة. ربما كان جورجن على حق، لكن لا فرق. رفرفت أفكاره عاجزة، بينما ظل هو متجمدًا. كان العالم مليئًا بالقوى التي لا تقدر على القتال ضدها والتي تلوح فجأة وتوجه لك ضربة ساحقة. لم يكن فقط مجرد هيج وجورجن والناس البارعين الآخرين ـ لا، هذه القوى قادرة إلى حد أن ماتيس نقل حظه العاثر عبر البحيرة في قاربه وطلب منه أن يأتي معه إلى البيت. ماذا تفعل حينما تسير الأمور على هذا النحو؟

«حسنًا، ألن نتوقف عن الحديث عن ذلك؟» كان هذا ما اقترحه جورجن، نظرًا إلى أن ماتيس قد توقف عن الإجابة.

قال ماتيس مرعوبًا: «إنني أُفكر في أشياء بغيضة عنك».

قال جورجن: «أُفٍّ، هذا لا يفيد كثيرًا».

«ما الذي يفيد إذًا؟»

قال جورجن بقسوة: «نحن لن نستمر هكذا أكثر من ذلك. سوف تبقى الأمور على ما هي عليه».

قال ماتيس: «نعم». مازالت الأفكار القاتمة تنخر بداخله، لكنه قال نعم، ليتيح لنفسه الصمت، ليرقد على الأرض ثانية.

رقدا يريحان ظهريهما. كان ماتيس يمسك بقطعة عصا في يديه، شارد الذهن يوجه ضربة لنجمين لامعين قريبين منه. كان الرجلان يستريحان على الأرض الجرداء المليئة بفروع الأشجار وجذوعها وحزم العشب ونباتات فطر الجاريقون العريضة. فجأة، بدأ جورجن الحديث عن هذه الفطريات الجميلة، في محاولة منه لتغيير الموضوع.

«انظر إليها ماتيس. إذا أكلتها، أظن أنه لو أكلتها ستكون نهاية كل شيء».

وقفت فطريات الجاريقون هناك مكسوة باللون القرمزي مشقوقة إلى اثنين بعصا جورجن. كان لحمها أبيض طازجًا، يحوي السم والموت.

أخذ ماتيس المبادرة لكنه ظل راقدًا، ينظر شاخصًا إلى الفطريات.

«هل تظن ذلك بالفعل؟»

قال جورجن: «نعم، هي سامة. كانوا قديمًا يضعونها في الحساء حينما يريدون أن يذهبوا إلى تهييج الناس وذبحهم».

لم يستطع ماتيس أن يبعد عينيه عن الفطريات، فكان فريسة لرغبات غريبة ومفزعة تجاه الفطريات، ونظرت الفطريات للوراء وأمسكت به وأحكمت السيطرة على عقله وجسده وسحرته.

قال: «هل هذا حقيقي؟»

«نعم، لا تلمسها وإلا سيصيبني الرعب عليك».

«لا تقل هذا»، قال ماتيس هذا، لكن فقط بكلام غير واضح. حدق مسحورًا في فطريات الجاريقون، وألقى نظرة سريعة على جورجن، وحينئذ مضى إلى العمل. لقد خطر له الأمر على حين غرة في الحالة اليائسة التي كان عليها: «سوف آكل بعضًا منها! آكل بعضها، مهما كان ما يقول. سآكل بعضا منها.

امتدت يده بالفعل ليمسك بجرعة من السم الشيطاني.

قال جورجن: «توقف! إنها سامة بالفعل. اترك هذا...»

انتهى الوقت. كان ماتيس أسرع، قبض على قطعة من اللحم الأبيض ذي القشرة القرمزية من حوله، والتهمها بفمه. لم يتوقف ليفكر ما الذي يشبهه مذاقها، ابتلعها مرة واحدة في ابتلاعة هائلة. شعر بحلقه كما لو كانت نارًا ـ على الرغم من أن هذا كله لم يكن حقيقيًّا على الإطلاق. لكن سرعان ما بدأت تؤلمه، فهذا طعام غير معتاد ـ وأطلق صرخة قصيرة حادة بالمثل، مثل صرخة غاضبة لكلب.

قال جورجن: «ما الذي تحاول أن تفعله أنت يا مجنون!»

صار جورجن غاضبًا بالفعل.

صرخ: «الفظها ثانية! ضع أصبعك في حلقك».

قال ماتيس بشبه غصة: «فات الوقت». شعر بجسمه كله مختلفًا؛ جزء منه إثارة وجزء خيال.

«هل كانت قطعة كبيرة؟ أجبني! هل ابتلعتها بالفعل؟»

كان جورجن غاضبًا.

فقط دار ماتيس بعينيه وحاول أن يرى ما إذا كان في طريقه إلى الهياج. كان خائفًا، شعر بحلقه كما لو أنه يحترق. فكر فجأة، إن جوفي كله من الداخل يحترق، ينبغي أن أسرع.

لم يدع جورجون يغيب عن بصره. لاحظ، مع فطر الجاريقون يتورم بداخله، راقب حركته الفعلية استعدادًا للعمل.

كان جورجن غاضبًا وخائفًا أيضًا. لم يعرف مقدار الكمية التي أكلها ماتيس من فطر الجاريقون. هل يمكن أن يكون خطيرا بالفعل؟ أمسك بوعاء القهوة المتسخ من بين الجمرات المنطفأة التي كان مستندًا عليها، وهزَّه وعمل على أن يصفي منه كوب قهوة حطاب قوية بالفعل يعده لماتيس: «ها هو! اشرب هذا».

«بعض الآمال!»، هكذا سخر ماتيس وهو يزيح الكوب ويريق كل شيء. كان مرعوبًا من الطريقة التي يتحدى بها جورجن، لكنه فخور أيضًا. تحدى إرادة جورجن. فبعد كل شيء، هو قد أكل فطر الجاريقون! الآن جورجن لذلك هو نفسه ـ ماتيس في جنونه يتخذه هدفًا.

حينما سقط الكوب من يد جورجن، تجمد وجهه. جذب معصم ماتيس، وتمخضت المحاولة إلى لا شيء. أحس بالشلل في القبضة الحديدية للحطاب.

«هل جننت بالفعل؟»

جال ماتيس بعينيه من حوله.

«اتركني أذهب!»

وتركه جورجن يذهب، لكن ليس لأن ماتيس أخبره بذلك. أمسك بالكوب ثانية وملأه بالماء من الجدول الصغير المجاور.

«اشرب! هيا لشرب! ضع أصبعك في حلقك، تقيأ هذا مرة أخرى!»

أجاب ماتيس في صوت غير مُميَّز: «أريد أن أحتفظ بما أخذته». تخيل أن جسده تلتهمه النار ببطء. ولم يكن يرغب في إخراج النار من جوفه، سوف يسحق جورجن بالكامل! شعر بقوته وحكمته تتعاظمان سريعًا.

وحينئذ، غير جورجن تكتيكاته فجأة.

قال: وهو كذلك، إذا كانت تلك الطريقة التي تريدها، إذًا لا أظن أنك تحتاج إلى أن يقلق عليك أحد، قطعة صغيرة جدًّا من فطر الجاريقون لن تقتلك. لم تكن الكمية الكافية لذلك. اجلس وتصرف كإنسان طبيعي مرة أخرى».

قال ماتيس بصوت له صرير: «ماذا؟»

لكن الغريب تمامًا أنه فعل كما أخبره. جلس. شرب بعضًا من الماء أيضًا، لكن مثل رجل في حلم. نعم، هو الآن بالفعل مختلف. أراد أن يكون مختلفًا. أكل أشياء خطرة.

نعم، كم شعر بالاختلاف في العقل والجسد، خفيف ورشيق نوعًا ما. كان في كلا المكانين، هنا وهناك. أبحر فوق قمم الأشجار بسهولة بالغة. كان الشيء الأول الذي فكر فيه بشكل تلقائي تمامًا هو الوودكوك طائر الغابة.

قال محدقًا بعينين متسعتين: «اجلس أنت أيضًا جورجن! وسوف أخبرك عن الوودكوك طائر الغابة الذي امتلأ جناحه بالكامل بالرصاص تحت الحجر. لماذا يرقد هناك؟»

دمدم جورجن: «مليء بالرصاص! تقصد مليئًا بهراء مجنون. من الأفضل أن تعود إلى البيت».

دعم ماتيس نفسه ببساطة من أجل المزيد: «قلت لك اجلس. أنت ستسمعني الآن. نعم، يجب أن يحين دوري إن عاجلًا أم آجلًا».

جلس جورجن صابرًا.

«وهو كذلك، أخبرني إذًا». قال ماتيس بصرامة: «أظن أن هيج قد أخبرتك بالفعل عن الوودكوك طائر الغابة؟».

«كان لدينا الكثير لنتحدث عنه، لا أستطيع أن أتذكر ما إذا كنت سمعت عنه أم لا».

نظر ماتيس إليه بعدم تصديق.

«هل من الممكن أن يكون لديها شيء أكثر أهمية لتتحدث عنه غير الوودكوك؟»

«نعم».

«ألم تقل لك أيضًا أن الوود كوك قد أُطلقت عليه النار أيضًا؟»

«أوه، لابد وأنها فعلت، لا أتذكر. ما هو الشيء العجيب عن هذا الوودكوك إذًا؟»

رمق ماتيس جورجن بنظرة وحشية. إنه لم يأكل فطر الجاريقون من أجل لا شيء: «كان هو الوودكوك طائر الغابة وأنا، أنت ترى! والآن هو

يرقد تحت الحجر ـ لكن هذا لا يحدث فرقًا، إنه يحلق فوق المنزل، نوع من، نوع من، أنت تعرف. نوع من أنا والوودكوك. نحن نحلق إلى هنا، نوع من. سوف نحلق هنا طوال الوقت! فقط حاول...»

وقف مرعوبًا.

غمغم جوردون بحذر تحت مراقبته: «أنت والوودكوك. بالطبع، نعم، أنت والوودكوك طائر الغابة».

«ما الذي تقوله عن هذا؟»، هكذا قاطعه ماتيس. مازال يشعر بالاختلاف؛ كان كما لو أن هناك شعلة حارقة بداخله.

قال بصرامة إلى جورجن: «يوجد فقط هيج وأنت بالداخل إذًا، كما ترى! وليس من السهل إذًا، أنت ترى. لا يصنع فرقًا بين ما يرقد تحت حجر وما لا يرقد تحته. بعدئذ». قال جورجن: «نعم».

«علام تقول، نعم؟»

ارتبك جورجن.

أجاب: «لا».

قال ماتيس وهو مازال يحملق فيه: «هل يمكنني أن أسألك عن شيء لم أجرؤ أن أسأل عنه، جورجن؟»

أشار جورجن أن يمكنه.

«أنا والوودكوك، مسحة منا! هذا هو كل شيء. ألا تفهم أي شيء؟»

هز جورجن رأسه.

كان ماتيس يتخبط عبر مسارات غير معروفة. شعر بشيء ما قادم. ما هو؟ لا، كان قادمًا، هذا كل شيء. مجنون. نار. دمار. كانت عيناه تحترقان، ثبتهما على جورجن، وفي الحال احترق جورجن من النيران. خدمته بشكل صحيح.

هراء. أنا لم أكن آكل فطر الجاريقون ـ هذا هو ما كان. لكنني سوف ألقي بعين الشر على جورجن. الآن أنا أوجهها إليه...

في الحال انبعث ظل أسود ووصل إلى جورجن. هراء مرة أخرى، إنه مجرد فطر الجاريقون الذي أكلته. أنا لا أحتضر. جورجن سوف يموت!

في اللحظة التالية كان يتقاتل مع جورجن. انقض عليه مثل وحش على الفريسة وأخذه في قبضته.

«أوه، أنت تهاجمني لتنال مني، أليس كذلك؟»، هكذا قال جورجن بصوت بارد هادئ، وهو يبعده برفق. أمسك بماتيس كطفل.

«بحق السماء ابتعد عني أيها المجنون».

التقط جورجن ماتيس وحمله بضع خطوات إلى الجدول. هناك، بدأ يصب الماء على وجهه المشوه. بدأ ماتيس في المقاومة، لكن برودة ماء الخريف أطفأت النار بداخله. هدأ، استعاد حواسه. وفي الحال انهار، تأوه خجلًا وندمًا.

«لم أكن أريد قتلك!»

قال جورجن: «لا، هذا لم يكن سهلًا».

«أين هيج؟ إنها ليست ميتة؟»

قفز جورجن تقريبًا: «اخرس! يالسخف ما تقوله. لن أستمر في سماع المزيد من هذه الترهات، هل تفهم؟»

بدا كما لو أن فأس جورجن هي التي تتحدث، كانت صارمة وحادة جدًّا.

تصفو رأس ماتيس بالتدريج. قال وهو مازال حائرًا: «ما الذي كنت أفعله؟»

«كنت تتخيل أشياء. تأكل فطر الجاريقون وتتمادى في جنونك».

قال ماتيس فجأة بسعادة غامرة: «لا يهم، طالما أنني مازلت أحيا».

كان جورجن يرتبك سريعًا من مثل هذا الشيء.

«وهو كذلك، وهو كذلك...»

طرأ تغير كامل على ماتيس الآن، أخذ هياجه منحنى مختلفًا، فبدأ يفكر في أشياء لطيفة، وأراد أن يخبر جورجن ـ كان ممتنًّا لحقيقة أن جورجن حي، وأنه لم يقتله، بينما كان مسحورًا بفطر الجاريقون.

«آنا وإنجر»، هكذا قال انطلاقًا من العرفان التام، واضعًا اسميهما بين يدي جورجن كهدية، «هل لديك فكرة عن ماهية ذلك؟»

لم يجب جورجن، فقط انتظر.

«هل أخبرتك من قبل عنهما جورجن؟»

«لا، من هما؟»

قال ماتيس بافتخار: «فتاتان».

«نعم، خمنت ذلك».

«لقد جدفت بهما الصيف الماضي. كنا فوق جزيرة صخرية صغيرة. وقفت القرية كلها تشاهد حينما رسينا على الشاطئ».

قال جورجن: «حسنًا، هذا سوف يعلمهما شيئًا أو اثنين».

أغمض ماتيس عينيه بشعور من الروعة؛ جورجن أجاب فقط الإجابة الصحيحة. كان هنا الشخص الذي يعرف نوعية الأشياء التي تهم رجل.

من أجل هذا بدأ يقول: «هل يمكنني أن أسألك عن شيء ما جورجن؟»

«كنت تسأل عن شيء ما منذ لحظة، أيضًا. وأنا لم أفهم شيئًا. لكن استمر».

قال ماتيس مترددًا قليلًا: «ما أريد أن أعرفه، ما إذا كنت تفكر في الفتيات أثناء منتصف الأسبوع؟»

أصاب هذا جورجن بالدهشة، لكنه أجاب بدون أن يجفل له جفن:

«نعم أنا متأكد أنني أفعل».

«هل يحدث هذا دائمًا؟»

«نعم، أنا متأكد».

قال ماتيس وهو يتنهد بارتياح: «أوه، حسنًا، هذا على ما يرام إذًا».

مضى يقول: «نعم، هذا غريب، أليس كذلك؟»، ونظر نظرات خالية من كل الرغبات في القتل.

«ما هذا؟»

«أوه، لا أعرف ـ كمية من الأشياء».

«أوه، نحن أضعنا وقتًا كافيًا الآن»، هكذا قال جورجن على حين غرة، وبدأ يقطع الأشجار بضربات هائلة.

ظل ماتيس جالسًا هناك؛ كان مزاجه خليطًا غريبًا من السعادة والصدمة من الطريقة التي تصرف بها. سحق بقايا فطر الجاريقون إلى فتات بحذائه. ثم ضحك مبتهجًا. قال، كنت أتخيل أشياء، وأستخدم كلمات من كلمات رئيسه الصارم.

٣٨

لكن الحكاية تركت انطباعًا عميقًا عند ماتيس في الوقت نفسه. وحينما هدأت الموجة الأولى من الترويح، تبقى معه شعور من الرعب الذي رفض أن يغادره.

لقد كدت أن أقتل جورجن ـ كيف استطعت أن أفعل شيئًا مثل هذا؟

أم كان ذلك بسبب فطر الجاريقون الذي أكلته؟

لقد تابع هيج ليوم أو يومين، متوقعًا التأنيب الذي يستحقه. لم تقل هيج شيئًا، وفي النهاية كان عليه أن يأخذ المبادرة بنفسه.

«ألم يقل جورجن أي شيء؟»

«عن ماذا؟»

«عني وعنه وهذا النوع من الأشياء ـ في الغابة، عن أكل فطر الجاريقون وهذا النوع من الأشياء».

«لا، هل توقعت منه أن يفعل؟»

«لا».

سألت هيج: «هل حدث أي شيء؟»

«لا، لم يسفر هذا أبدًا عن أي شيء، ألا ترين ذلك؟»

انجرف ماتيس بعيدًا. كان مندهشًا من جورجن.

لقد طلب منه جورجن أن يأتي معه إلى الغابة في اليوم التالي بالمثل، لكن ماتيس أجاب: «لن أذهب إلى هناك مرة أخرى!»

بدا مرعوبًا جدًّا إلى درجة أن جورجن ترك المسألة عند هذا. إن استقدام ماتيس للغابة لم يكن يعني شيئًا سوى الإزعاج لجورجن على أية حال، لذلك ربما لم يوله اهتمامًا.

ظل ماتيس جالسًا على الدكة، ينظر من النافذة . حامت هيج بصعوبة حوله. لم يكن هناك شك في أنها سألت جورجن عما حدث، وهو قد أخبرها. اقتربت الآن من شقيقها، وقالت وهي تتحسس طريقها: «من الأفضل العودة إلى عمل المراكبي، ماتيس».

«ربما».

«لكنك كنت سعيدًا جدًّا بالعمل فيه».

قال ماتيس: «ربما اختلف الأمر الآن».

«أوه، حسنًا».

أصبحت هيج في حركة مرة أخرى. كانت دائمًا في حركة في هذه الأيام حينما يكون حبيبها بالخارج. تقوم بالأعمال المنزلية بيدين سريعتين،

كانت تتفتح لحياة جديدة. كان ماتيس مدركًا للتغيرات التي انتابتها. كل ما استطاع أن يفعله هو أن يعيد طرح الأسئلة المملة التي يسألها كل يوم: «ما الذي سيحدث لي؟»

لم يبدأ العمل على المركب ثانية. شيء ما قد تغير. أخذ يتجول عاطلًا، اتخذ المبادرة حينما لاحظ شيئًا ما يبرق باللون الأحمر عند السور. وقف هناك نبات ضخم من فطر الجاريقون مفعمًا بالضراوة الخفية القبيحة. يقف مباشرة بعد السور، كما لو أنه يناجي ماتيس.

فكر، لا لا، خاف منها، قاومها. سوف أسحقها قبل أن تبث سحرها فيّ.

مشى إليها، وركل فطر الجاريقون. فتفسخ إلى أجزاء متوهجة حمراء وبيضاء.

وبعد قليل عثر على أخرى داخل السور في أرضهما. جميلة تمامًا. لم يركلها في هذه المرة، انسحب فقط شاعرًا بسخونة ووخزات شائكة. عرف أن المكان كله مليء به الآن، كل المنحدرات وأرضية الغابات، وقد امتد إلى السور وبالداخل عبر الروابي.

كان المنزل محاطًا بالسم.

هل كان الأمر كذلك في السنوات السابقة؟ لم يلاحظ أبدًا. من أين أتت؟ يبدو أنها تكبر أسرع حينما تقف تراقبها.

فكر بصفاء ووضوح: ربما يموت جورجن وسط ذلك كله، هو الشخص المُحاصر.

لا، لا! لا أريده أن يموت!

لكن الفكر جاء يزحف مرة أخرى مثل وحش ليس له أقدام. قال مرعوبًا، عاجزًا عن الحركة، ما الذي سأفعله.

يجب أن أفعل شيئًا ما. لن يمضي وقت طويل حتى أذهب إليه ثانية.

في النهاية، فعل ما فعله دائمًا: يتحول إلى الأشخاص البارعين. ذهب إلى هيج كالمعتاد.

سأل بدون تفسير: «أليس هناك الكثير من فطريات الجاريقون الحمراء أكثر من المعتاد هذا العام؟»

قالت هيج وهي لا تفهم شيئًا: «ليس أكثر من المعتاد على قدر ما أرى. كل شيء على حاله كما كان دائمًا». كانت مرة أخرى في حالة الحركة.

٣٩

وكعلامة على أن لا أحدًا محاصر بالسم، أتت فتاة تسعى إلى الممر.

في البداية لم يستطع ماتيس أن يصدق عينيه. فهو حتى عرفها: كانت الفتاة التي عمل معها في حقل اللفت في الربيع الماضي. الفتاة التي كانت تقرص صديقها باستمتاع شديد، وكان صديقها يقرصها بالطريقة السعيدة والمبهجة نفسها. كانت مثل معجزة أن يراها تأتي من الطريق في لحظة كئيبة مثل هذه اللحظة.

فكر ماتيس في الحال، إنه أنا من أتت لتراه، متذكرًا ما حدث على الجزيرة في البحيرة.

لكنني نسيت أن لها حبيبًا.

لقد مرت سنوات وسنوات منذ أن جاءت فتاة لتزورهما. كانت هيج الفتاة الوحيدة هنا. وبمجرد أن رآها قادمة، فكر: آنا أم إنجر؟ لكن حينما اقتربت، رأى أنها لم تكن أيًّا منهما. سيكون هذا أقرب إلى الحقيقة على أية حال. كان سعيدًا، حيث إنه يعرف هذه الفتاة كذلك.

إن حقيقة أنهما عملا معًا في مناسبة واحدة، أعطى ماتيس الثقة، وسهل عليه الموقف. تذكر أن هذا نوع الفتاة التي كانت عليه. بدا كما لو أنهما يتذكران، لأن الفتاة قد أومأت له كما لو كانت تعرفه، وابتسمت. تبدد كل بؤس ماتيس، لم تعد الغابة بعد مليئة بالسموم، كانت مثل وقاء حامي.

وقبل أن تكون لدى الفتاة فرصة لأن تقول كلمة واحدة ـ تقريبًا قبل أن تصل إليه، سارع ماتيس بالقول: «ألم تعودا حبيبين بعد؟»

ضحكت الفتاة.

«من؟»

«أنت وهو بالطبع. الشاب الذي كان يقرص ذراعيك وفخذيك».

سألت: «كيف تقول هذا إذًا؟ الناس لا يتجولون ممسكين بأيدي بعضهما البعض طوال الوقت، كما تعرف».

أحنى ماتيس رأسه. هل قال شيئًا غبيًّا بالفعل؟ فكر في أنها كانت على حق بالطبع. وضعت الفتاة حدًّا للإحراج بقولها: «لكن بالفعل أنت على حق. انتهى كل شيء بيننا».

شعر ماتيس بوخزة. أو بالأحرى وخزتين: واحدة من السرور والأخرى من الأسى.

قالت الفتاة: «لست بحاجة إلى أن تبدو فزعًا هكذا. هل أنت كذلك؟»

غمغم: «لا».

أضافت بشكل مريح: «لا، هذا النوع من الأشياء لا يستمر دائمًا. أتوقع أن تعرف ذلك بنفسك». فتاة طيبة القلب.

لم يجرؤ على أن يخبرها بكذب صريح بـ «نعم» مباشرة، حولها إلى «همم» غامضة، بدلًا من ذلك. لكنه كم كان ممتنًّا.

سأل بعصبية: «هل هناك أي شخص في هذه اللحظة إذًا؟ أي أحد جديد؟»

قالت الفتاة بحركة لا مبالية برأسها: «لا، أنا بكثير أو بقليل حرة غير مرتبطة الآن».

قال ماتيس: «أوه».

ضحكت الفتاة مرة ثانية، بدون سبب واضح، لكنها لم تكن ضحكة شريرة. أخيرًا، حينئذ كانت قادرة على أن تلف وتدور حول سبب زيارتها.

«تلقيت رسالة لأسلمها إلى الحطاب الذي يعيش هنا، جورجن، شيء ما أو آخر، أليس كذلك؟ لكن لا أظن أنه في البيت في هذا الوقت من اليوم».

أجاب ماتيس بصيغة مقاطعة قليلًا: «لا، إنه بالخارج في الغابة». يبدو كما لو أنه كان مخطئًا، كان جورجن هو من أرادت أن تراه.

«لكن ربما أستطيع أن أخبرك بالأحرى، تستطيع أن تسلمه رسالة، أليس كذلك؟» هكذا اندفعت بدون تفكير.

اصطبغ ماتيس باللون الأحمر قليلًا. لكن الفتاة كانت شابة جدًّا ومرحة ومليئة باهتماماتها لتلاحظ.

لم يجرؤ ماتيس على أن يأخذ الرسالة. ربما من الخطأ أن يأخذها. وخصوصًا أنها تتعلق بجورجن.

قال: «من الأفضل أن تتركيها مع أختي، إن كنت لا تمانعين. هي بالداخل». كان شيئًا مريرًا أن يضطر إلى قول ذلك.

ابتسمت الفتاة.

«بالطبع. أنا نسيت».

خطت إلى الداخل بخطوات رشيقة. تابعها ماتيس بعينيه، وكان قد غفر لها بالفعل. لقد تغير إلى شخص آخر بعد الصيف الماضي ـ بعد أن جدف بآنا وإنجر، ومشى خلال العاصفة الرعدية، ونجح بالمثل في عمل المراكبي. لم يكن من الصعب أن يعفي الفتاة من أن تقول أشياء لا ينبغي أن تقولها.

وكان هذا هو السبب في أن خططه ترجرجت فجأة في ذهنه، أيضًا، الخطط التي تتعلق بالزائر وفرصة أخرى للتحدث معها. مشى على الممر حتى اختفى من الكوخ، وهناك توقف وانتظر. فالفتاة سوف تمر به في طريق عودتها.

كان فعلها مثل سحر. بعد فترة قصيرة، جاءت عبر الممر، ومشت متجهة مباشرة إليه ـ بالأحرى مثل الوقوع في شرك. لكنها فعلت ذلك بضحكة مبتهجة.

«إذًا ها أنت هنا. ترقد في انتظاري في طريق عودتي للبيت».

عجيبة، كم هي بارعة ترى من خلال كل شيء مباشرة. أو تقريبًا كل شيء. لم يستطع أن يستخدم النغمة المبتهجة نفسها كما تفعل، فالمشاكل التي يتصارع معها عويصة جدًّا يصعب ذلك معها، خطيرة إلى حد بعيد بالفعل. خطا إلى الأمام وسأل بصوت يشي بالخطورة: «هل يمكنني أن أسير معك قليلًا على الطريق؟ فقط إلى الشارع؟»

«أجابت الفتاة: «بالطبع تستطيع». فقط أحبت ذلك.

تلعثم ماتيس: «نعم، ظننت أن هذا مناسب أن أرى أنه ليس لديك حبيب».

قالت الفتاة: «أنا لم أقل ذلك، أنا قلت زاد الأمر أو نقص أنا حرة غير مرتبطة. أوه نعم لقد حصلت على حبيب. نوعًا ما على أية حال».

اتسعت عينا ماتيس، أبطأ سيره. نكس وجهه. لم يفهم شيئًا.

قالت: «ألا تريد أن تأتي إذًا؟ أوه حسنًا، كما تحب».

«أريد؟» لم يفهم. كيف يمكنه أن يسير معها، إذا كان لديها حبيب في النهاية؟ ما هو الغرض؟

أرادت أن تمضي، لكن حركة من ذراعه أوقفتها. كانت حركة من النوع الذي يقوم به الناس حينما يحاولون أن يمسكوا بشيء ما، لكنهم يقررون حينئذ أن يتركوه يسقط.

كان هناك حجر مسطح كبير على جانب الممر. مر به ماتيس طوال حياته بدون أن يلاحظه ـ لكنه يبدو اليوم أنه يفصل نفسه عما يحيط به. شعر ماتيس أنه ينبغي عليه أن يذهب، لكن كان يوجد هذا الحجر ـ وبدون أن يعرف لماذا انصرف إلى التفكير فيه، سريعًا أشار إليه وقال بعجالة:

«الأحجار المسطحة من أجل الجلوس عليها».

إن الطريقة التي قال بها هذا، جعلت الفتاة تجلس في الحال. ذلك قبل أن يأخذ وقتًا للتفكير.

فكر في أن هذا جنون، وجلس بالقرب منها.

كانت هناك أماكن متعددة على الحجر. حرص ماتيس على ألا يقترب منها كثيرًا. ما الذي يريده؟ لا يمكن أن يقول بالتأكيد. ليسمع شيئًا. أقترب. لكنه لا يجب أن يجلس هناك بدون أن يقول كلمة، تأكد من ذلك. يبدو أن الفتاة تنظر إليه بترقب، تصر أن يقول شيئًا. وهكذا سأل في الواقع فجأة: «هل تظنين أن هذا وضع بارع؟»

كانت الفتاة تداعب خدها بنبتة من العشب. تهز قدمها إلى أعلى وأسفل. أبدًا لم تسترخي تمامًا.

«ماذا تعني؟»

«ما قلته عن الحجر المسطح بالطبع. وعن الجلوس».

تذمرت الفتاة، نهضت على قدميها بالفعل.

قالت محبطة، كما لو أنه فاض بها منه: «هل أنت تسأل هذا النوع من الأسئلة أيضًا؟»

فاض بها منه...

سأل مرعوبًا: «لكن كيف...؟» ظل جالسًا على الحجر.

كانت الفتاة تمضي، وماتيس لا يجرؤ على الحركة.

قال: «لم أعرف أن هذا خطأ».

«لا، حسنًا، أنا آسفة لأنني لا أستطيع أن أبقى أكثر من ذلك».

«أنت ترين...»

قاطعته: «دعنا لا نتحدث في ذلك، ليس مهمًّا؛ لا يهم أيًّا منا، أليس كذلك؟»

بدأت تسير مبتعدة. أومأت أولًا، بطريقة ودودة، ربما بقليل من الخجل. لكنها كانت تمضي.

تشبث ماتيس بالذاكرة: قال: «الأخريات لم يكن كذلك! وقد تحدثت إليهن كثيرًا».

توقفت الفتاة في الحال.

«الأخريات؟ من هن؟»

قال بصوت منخفض: «أنا أعني آنا وإنجر، حينما أقول الأخريات. سمعت عنهما، أليس كذلك؟»

«نعم، أنا... بالطبع سمعت».

«خرجنا في البحيرة، وتحدثنا معًا طوال اليوم. ولم تكونا مثل هذا».

جاءت الفتاة إليه، نظرت مباشرة في عينيه، نادمة على ما قالته. اتسعت عيناه. ماذا كان يتوقع؟ لم يعرف. لكنه انتظر.

«اسمع يا ماتيس».

كان يرتعش.

«نعم؟»

لم تعرف ماذا تقول. نظرت في عينيه. بدأت: «لا، أنا... أوه، من المستحيل أن أعرف ماذا أقول لك!»

حينما تكلمت، مست برفق وجنتها بيدها، وحينئذ ذهبت بالفعل، سريعًا، برشاقة، ذهبت في لمح البصر.

لم يحاول ماتيس أن يحدد مشاعره، لكن كل شيء وُضِع في نصابه وتم إبرازه. فالفتاة بدافع من السعادة قد فعلت ما لم تفعله آنا ولا إنجر... واكتسبت لها مكانًا في قلبه.

ظل جالسًا على الحجر لفترة طويلة.

٤٠

حينئذ جاء. شيء مختلف تمامًا: وميض البرق الذي حل مشاكله. فجأة وبدون تحذير رآه كله. وكان صعبًا.

قفز من على الحجر المسطح.

مثل وميض برق مبهر. لكن داخله هذه المرة، أضاء كل شيء.

ماذا! فكر، مرعوبًا. لا أستطيع أن أفعل ذلك.

نسى الفتاة. كان جالسًا يفكر سعيدًا حول اللحظات الرائعة التي منحتها له ـ وحينئذ جاء الوميض. مخرج جاهز وكامل منذ البداية حتى النهاية ـ في ومضة.

فجأة وبدون مقدمات، قطعت الطريق على كل المشكلات التي كانت تتجمع حوله. كان عليه أن يتقبلها بدون سؤال، بدون خوف ـ على الرغم

من أن تأثيرها كان ساحقًا. رأى أنه يتعين عليه أن يفعل ويفهم ويقبل ذلك، مخدرًا.

والآن حان موعد خطته ـ في ومضة بينما هو جالس على الحجر، فالحجر الآن عزيز جدًّا عليه بعد ما حدث. هذا الطريق إلى الصعاب الذي طالما عذبه. فكر، هيج وجورجن وأنا. لم يكن الوودكوك طائر الغابة متضمنًا هذه المرة، كان شيئًا ما آخر.

جلس مرة أخرى بدون تفكير.

قال بصوت عالٍ في الهواء الطلق: «سيكون هذا صعبًا». لكن أحدًا لم يكن ينصت له. كم تأكد أن هذا مؤلم، أن يصبح واحدًا من أبرع الأشخاص.

٤١

كانت الخطة سرية. فكل شيء ينبغي إنجازه بمنتهى الحرص. لا يستطيع حتى أن يذكره إلى هيج ـ فهي ستتدخل في الحال وتوقفه.

لكن بما أنها خطة صعبة، شعر أنه ينبغي أن يسمح لنفسه بمحاولة أخيرة لأن يصبح أكثر خفة، والآن هذه الومضة الأولى من الإثارة وقد هدأت.

لذلك انتظر حتى غادر جورجن في اليوم التالي إلى الغابة، ثم اقترب من هيج، بطريقة رسمية نوعًا ما. كانت تجلس بين سويتراتها، تدندن بنغمة خفيفة.

قالت: «ما هذا يا ماتيس؟»، وتوقفت عن الدندنة. كان من الواضح على مظهره أن هناك شيئًا خطيرًا في ذهنه.

أجاب: «إنه أمر مهم، أكثر أهمية مما تتصورين».

قالت هيج بقليل من نفاد الصبر: «تعال إذًا أخبرني».

بدا حلق ماتيس جافًا: قال وهو يغوص مباشرة في الصميم: «يجب أن تقرري من تريدينه أن يكون معك من الآن، جورجن أم أنا».

لا تحتاج هيج أي تفسير. لا تحتاج أن تفكر في ذلك أيضًا، على قدر ما يفهم هو.

قالت بدون تردد: «لا شيء قد تغير على قدر اهتمامي. بالتأكيد أنت تعرف من الذي سأبقى معه ـ من الآن فصاعدًا».

قال ماتيس بصوت متملق: «نعم»، لكن حينئذ سيكون...» وتوقف، لقد قال تقريبًا الكثير جدًّا.

عالجت هيج المشكلة من زاويتها: «ألا يصدمك كأمر طبيعي أيضًا، إذا كنت تفكر بالفعل في ذلك؟»

فكر في هذا، لكن عليه أن يعترف أنها على حق في الوقت نفسه. وأن الأشياء ربما تتغير. فهذه الأشياء يمكن أن تفضي إلى لا شيء. هذا ما حدث للاثنين اللذين يقرصان بعضهما البعض.

راهن كثيرًا على سؤاله التالي: «وهل أنت متأكدة أن الأشياء لن تتغير أبدًا، هيج؟»

ردت هيج: «كما أنا متأكدة من أنني أجلس هنا. وأشكر الله على ذلك».

أحنى ماتيس رأسه.

«أوه حسنًا، في هذه الحالة».

عرفت هيج بوضوح ما الذي كان يتحدث عنه. بدت متأكدة بشكل مطلق. لم يكن هناك أمل في كسب تأييدها.

قال: «هذا بارع وصعب، ربما ليس من السهل إدارته».

سألت غير فاهمة: «إدارة ماذا؟ ألا تظن أن جورجن وأنا سوف ندير؟»

صُعِق. هي لم تفهم شيئًا. لكنها حينئذ حسمت المسألة بقولها: «لا يجب أن تحسدني على ذلك، ماتيس».

صوت عنيف. أُغلِق الباب.

قال: «تحسدني».

كانت طريقته مخططة؛ لم يكن هناك المزيد مما يمكن قوله.

«هل هناك شيء آخر تريده؟»، هذا ما سألته هيج بنغمة ودودة، طالما أن ماتيس ظل واقفًا هناك بدون أن يقول شيئًا.

هز ماتيس رأسه. كانت هيج واضحة كما ترغب. لذلك كانت الأشياء الآن مستقرة بقدر يزيد أو يقل. سوف ينتقل إلى خطته الكبرى. كان يقف هناك فقط لفترة أولًا.

٤٢

لسنوات كثيرة، كانت تستند في السقيفة قطعتان من الخشب الخام المحفور واللتان بدتا كأنهما كانتا مجدافين في يوم من الأيام. لم ينزلهما

ماتيس ويجهزهما، واعتمد على المجدافين القديمين. الآن هو قد أحضر هذين المجدافين نصف المصنعين وبدأ يكشطها بفأرة النجارة.

استولت الخطة على تخيلاته بالكامل تمامًا، حتى أنه كان يرى القطعتين غير المصقولتين من الخشب كجزء من تلك الخطة. فكر، نعم، ليعمل ذهني بصورة جيدة بالفعل لمرة واحدة! بإحساس غريب يسري في جسده. شعر أنه بالكامل كان في قبضة المجهول.

عاد جورجن من الغابة، ورأى ماتيس واقفًا هناك يكشط بفأرته. منظر غير معتاد.

«هل تصنع مجدافين جديدين؟»

قال ماتيس: «نعم، كنت أنوي ذلك منذ وقت طويل».

قال جورجن يستحث الفكرة بداخله: «ستبدأ في الإبحار بالمركب مرة أخرى إذًا؟»

«أظن ذلك».

أجاب ماتيس بدون أن ينظر. لن يستطيع أن يكون صادقًا بالكامل الآن ـ وإلا ستفسد خطته. وتُحظر تمامًا. ربما سيقيدانه.

قال جورجن: «حسنًا، شيء سيئ لأي شخص أن يكون بغير عمل».

ومضى ليلحق بهيج، ويتناول غداءه.

كان المجدافان كبيرين وسميكين، لكن ماتيس كشطهما فقط ليجعل لونهما أبيض وأكثر نعومة، لذلك سيبدوان أكثر تشطيبًا. ظلتا قطعتين خشنتين من الخشب ـ وهذه هي الكيفية التي سوف تستخدمان بها.

فاعتمادًا على هذين المجدافين إما أن يطفو ويصل الأرض آمنًا، وإلا سيغرق تحتهما ويختفي. كان هذا هو أهم جزء من الخطة الكلية.

حينئذ سأعرف ما الذي أفعله. سأكتشفه.

سوف تتسرب المياه إلى القارب في منتصف البحيرة تمامًا، لذلك سيغرق إلى القاع. إنه فاسد جدًّا حتمًا. وأنا لا أعرف كيف أسبح. لكن هذين المجدافين السميكين ينبغي أن يتحملاني ويرجعاني ـ إذا قُدر لي الرجوع لأكون معهما ثانية.

لكن هذا لن يكون قراري.

فكر، لكنه سيكون صعبًا.

حينما انتهى المجدافان والتمعا باللون الأبيض، ذهب إلى النوم. الآن، كل شيء جاهز، زحف إليه شعور غريب. تبقى شيء واحد ليفعله.

فكر، لكن ليس غدًا.

لماذا لا؟ بدا أن صوتًا يسأل بأناة وإلحاح.

أجاب، حسنًا، إنها مجرد الطريقة التي تكون عليها الأشياء. وهذا ما سينبغي عمله.

كان راقدًا على دكته، ينظر إلى النافذة. جاء ضوء خافت من المساء في الخارج.

لم تكن هيج وجورجن قريبين حينما أتى في المساء، لكنه سمع أصواتًا مكتومة تأتي من حجرة السطح. أصوات سعيدة في معظمها ـ تقول نوعية الأشياء التي اشتاق كثيرًا لسماعها. لكنه حديث عنه كذلك

بدون شك، وليس سعيدًا جدًّا حينئذ ـ لابد أنهما يشعران أنه عبء مريع بعد كل شيء.

لكنَّ – الآن – المجدافين جاهزان، كذلك سرعان ما سأعرف ما الذي سيحدث.

نحى التفكير جانبًا، لم يرد أن يواجهه. بعد لحظة فيما بعد، قال لنفسه: أظن أنه لا يختلف عن مواجهة عاصفة رعدية.

فوقه، مازالت الأصوات تهمهم. كان هناك رنين ضحكة أيضًا، توقفت فجأة مثل كرة زجاجية تلف عبر الأرضية. هكذا كانت هي الكيفية التي يمكن أن تضحك بها هيج حينما تكون سعيدة. ألم يعرف هو هذا من قبل؟

لكنهما ربما الآن يتحدثان عنه مرة أخرى. لم يكن هناك مزيد من الضحك.

«يا إلهي، أنصت إلى هذا!» قال هذا فجأة بصوت عالٍ وسعيد، وهو جالس على الدكة.

عاصفة من الريح بالخارج.

رياح خريف مفاجئة.

يئن المنزل أنينًا خافتًا حينما تخترق الريح جدرانه القديمة الآيلة للسقوط، وتنهيدة من بعيد تسري خلال الأشجار؛ سوف تستيقظ الأمواج في البحيرة.

رائع.

استرخى مفعمًا بشعور بالسلام.

الآن، من المفترض أن يكون الغد يومًا عاصفًا. وسيعني هذا أنني لن أكون قادرًا على أن أفعل شيئًا. لابد وأن يكون الجو ساكنًا عندما أجدف. الآن أستطيع النوم.

استغرق في النوم في الحال؛ لم يكن يومًا موترًا أو مرهقًا.

٤٣

يوم هادئ، لا رياح على سطح الماء ـ كانت هناك فقط الشروط التي وضعها. ينبغي أن تكون البحيرة مثل المرآة حينما يبدأ اختباره، وإلا لن تُحسب. بعدئذ يظل ينظر ما إذا كانت الريح سوف تأتي.

فكر، إنه شرط واضح.

ظلت الريح لأيام في النهاية.

يكون المجدافان جاهزين، ويكون القارب جاهزًا ـ وماتيس نفسه يستيقظ كل صباح مضطربًا، وقلبه يدق بقوة: هل البحيرة ملساء؟

لكن كل صباح هناك رياح. يخف الضيق من صدره حينما يراها.

فكر، يوم ما أكثر. ولا أحد يعرف! أليس هذا غريبًا.

بعد وقت قليل، فكر فجأة: هذه هي الطريقة التي يكون عليها كل شيء.

أخذ يتمشى متمهلًا. لم يبد جورجن أية إشارة أخرى عن العمل على المركب، ولا طلب من ماتيس أن يعمل في الغابة.

كان فطر الجاريقون الأحمر الناري مازال موجودًا في كل مكان، لكنها لا تخيف ماتيس الآن. لم تستطع أن تغير أي شيء.

ولا أحد يعرف أي شيء. رأت هيج وجورجن المجدافين الجديدين الكبيرين جدًّا ولم يتأكدا من شيء. إنهما يظنان مجرد أنني أستطيع أن أجعلهما أصغر بأي قدر.

فهل أنا بالفعل بارع الآن؟

فكر، إنه ليس نهارًا سريعًا.

بزغ نهار جديد. كان يحاول أن يجهز نفسه ضد صدمة سماع هيج تقول إلى جورجن في المطبخ: «البحيرة تشبه اليوم مرآة».

لكن من المحتمل أن تكون لحظة بغيضة، حينما تأتي أخيرًا.

فكر في الطرق الأخرى التي يمكن أن تقولها بها: يمكن أن تقول بشكل جيد: «ولا نسمة ريح اليوم»، ويمكنها أن تقول هذا أيضًا: «الجو ساكن جدًّا، لابد وأن هناك سببًا لذلك».

لم تقل هيج أيًّا من هذه الأشياء. بالتأكيد لديها مسائل أكثر أهمية لتناقشها مع جورجن أكثر من الطقس. فالطقس لا يحدث فرقًا كبيرًا بالنسبة لهما. جورجن يقطع الأشجار، الجو ممطر، الجو مشرق.

لذلك من الممكن أن تكون البحيرة ساكنة مثل حمام سباحة، على الرغم من أن هيج لم تقل أي شيء، هكذا فكر وهو مستلقٍ على دكته. وحينما نهض بجسده، شعر بثقله الطبيعي مرتين. كان عليه أن يخرج ويرى.

شكرًا لله...

مازال عاصفًا، والبحيرة مغطاة بأمواج زرقاء داكنة تحت سماء صافية. كان مشهدًا غريبًا، الآن يعني هذا الكثير. تأخير يوم آخر.

بينما كان يأكل، لاحظ أن هيج تراقبه. فقد شهيته في الحال وخرج. هل يظهر هذا بعد كل شيء؟ أخذ بعض الأدوات التي ظهرت مرة أخرى في المدخل، وقال إنه ذاهب ليصلح القارب.

قالت هيج مسرورة: «هذا صحيح، أنت تذهب وتصلح القارب. حينئذ سوف أعرف أين أنت».

قال ماتيس بصورة استفزازية: «نعم، حينئذ تجلسين إلى جوار النافذة تضعين عينيك عليّ».

«لماذا أفعل هذا؟»

«حسنًا، ألا تفعلين؟»

مضى، متلعثمًا، يرمم القارب قليلًا. وفي الوقت نفسه اكتشف قطعة متعفنة بالفعل في القاع، تحت اللوحين السائبين اللذين كان يعالجهما. لن يكون من الصعب أن يضربهما بقدميه يحطمهما إذا أعطاهما بالفعل ركلة ثقيلة. وشعر بالتأكيد أن لديه القوة الكافية في هذه اللحظة، قوة أكثر من كافية. تمتم كما فعل من قبل، الأحجار المسطحة هي من أجل الجلوس عليها. كانت مصاغة جيدًا، لكن الفتاة لم تقدرها حق قدرها. أوه، هذا لا يقلقني، لا شيء مثل هذا.

جلس إلى جانب القارب وحول وجهه ناحية الرياح على البحيرة.

تهب الريح! كانت رغبته السرية.

كانت هناك أشياء كثيرة بعيدة جدًّا ليفكر فيها.

حجر فوق كل عين، قالها بدون سبب معين.

قال: آنا وإنجر وكل شيء.

قال: كل شجرة حيث حطت عليها الطيور.

كل ممر حيث مشت شقيقتي هيج.

لكن هذا كثير جدًّا عليه، هو لم يجرؤ أن يذكر أي شيء أكثر من ذلك.

انبعثت الرائحة من القطران في القارب كالمعتاد، ومن عفن اللوحين اللذين سخنتهما الشمس. نظر ماتيس إلى البحيرة؛ كانت الرياح تحفر أخاديد عميقة على السطح، والأمواج تبقبق عند قدميه.

لكن سرعان ما هجعت إلى الهدوء. الريح لا يمكن أن تستمر. الهدوء لا يمكنه أن يدوم أيضًا. أنا والوودكوك طائر الغابة، هكذا قال بشكل مفكك.

٤٤

حينما لم يمكن عمل المزيد للقارب، عاد إلى هيج.

سألته تحثه كما فعل جورجن: «هل القارب جاهز الآن للعمل؟»

قال ماتيس: «نعم، كل شيء جاهز الآن. غدًا سوف أبدأ العمل كمراكبي كما فعلت من قبل».

لم ينظر إلى أخته. قالت هيج بحسم: «غدًا؟ نعم، بالطبع. الشيء نفسه، ماتيس».

كان هناك على الشاطئ يفكر ماذا سيقول. وكانت المناقشة تسير فقط بالطريقة التي أرادها.

مضى يقول: «هذا ما لم تكن الرياح قوية. لكن القارب عفن بالكامل، لذلك لا أجرؤ حينما يكون الجو عاصفًا أكثر من ذلك. فمن الممكن بسهولة أن تنفذ قدماك بسهولة إلى القاع إذا وضعتها في المكان الخاطئ».

كان من الصعب أن تقول ذلك بالنغمة المعتادة، لكنه نجح بكيفية ما. نسيت هيج اهتماماتها الخاصة للحظة، وفكرت فقط في أمان شقيقها. قالت: «إذًا بالتأكيد هو خطر في الجو الساكن أيضًا، أليس كذلك؟ وفي هذه الحالة، لا أظن أنه ينبغي أن يُسمح لك باستخدامه».

تململ ماتيس.

«أنا أعرف القارب بالفعل».

«هل أنت متأكد؟ لا أريدك أن تغرق في القاع كما تعرف».

«أوه، هراء».

داخليًّا، كان في حالة غليان حيث إنه وصل إلى هذه المرحلة من خطته. لكن كل شيء عمل بشكل مُقنع، فقد قال الأشياء الصحيحة الأشياء التي يتأكد أنه من الآمن قولها، ويعرف على وجه التحديد ماهيتها. أليس غريبًا أنك تصبح بارعًا فقط حينما يصير الوقت متأخرًا جدًّا؟ هكذا فكر.

قال: «حينما يكون الجو هادئًا يمكنني أن أبقى بالخارج في البحيرة طوال اليوم، من أجل هذه المسألة. لا ينبغي أن تقلقي، هيج، إنني أعرف ما الذي أستطيع أن أفعله، وما الذي لا أستطيع. وأين أضع قدمي وأين لا أضعها».

قالت هيج وهي تسرع بالمغادرة: «حسنًا، وهو كذلك إذًا، لكن كن حذرًا». لكنها عادت بعد لحظة وقالت: «أظن أنني سأجعل جورجن يقرر بعد كل شيء ـ ما إذا كان القارب خطرًا أم لا. جورجن يفهم في هذه الأشياء. إذا قال إن القارب ليس صالحًا، فلن تستخدمه بعد ذلك».

صرخ ماتيس: «جورجن!»

هناك شيء واحد يجب أن يبتعد عنه في اللحظة التي ليس لديه ما يفعله بشأنها. انفجر ماتيس بوحشية: «يمكنني أن أدير الأمر بدون جورجن! كل شيء! إذا أدخلت جورجن في هذا سوف أفعل شيئًا مروعًا!»

تراجعت خطوة إلى الوراء.

«لكن ماتيس...»

«لا تجرُئين أن تأتي بجورجن! سأخبره بشيء أو اثنين إذا فعلت!»

قالت هيج: «الآن توقف عن هذا. فأنت لا تحتاج أن تخبر جورجن أي شيء. هو رجل، وهو لم يفعل لك شيئًا ضارًّا».

لكن ماتيس وجد أنه من الصعب أن يتوقف: قال باهتياج شديد: «هذا يتوقف على الطقس الآن!»

«الطقس؟»

«نعم، هل تسمعين؟ الرياح والطقس. هل تظنين أنه ليس لديَّ تفكير؟»

الكلمة التي كانا بالطبيعة يتجنبانها من أجل ماتيس ـ وهنا هو يستخدمها بنفسه، بدقة وتعمد.

أفسحت هيج الطريق قليلًا.

قالت: «أنا متأكدة من أنك تفكر في أشياء كثيرة. لدينا نحن جميعًا الكثير لنفكر فيه، بعد كل ما حدث».

«ما حدث بعد ماذا» ـ هذا هو الشيء الوحيد الذي بدا أنها مدركة له. وقف أمامها حزينًا ومكتئبًا. لم تعد هي نفسها. كانت جزءًا من جورجن. نصف جورجن.

سأل: «كيف أصبحت مثل هذا؟»

«تقصد مثل كيف؟»

«مثل ـ مثل ما أنت عليه بالطبع! لا أستطيع أن أتعرف عليك، بالطريقة التي أنت عليها الآن. ما الأمر معك؟»

«الأمر معي؟ حسنًا، أنت تعرف. أخبرتك. أنا سعيدة».

غمرها اليقين بهذا مثل موجة تجتاحها.

«وذات مرة عانقتك من أجل ذلك، ألا تتذكر يا ماتيس؟»

كما لو أن جورجن كان واقفًا إلى جوارها عندما تكلمت، لكن على الرغم من ذلك فقد أنهت كلماتها ثورة ماتيس العنيفة. استطاع أن يقول فقط بهدوء: «اذهبي إذًا إلى جورجن».

لم تبد الدهشة على هيج.

«هذا ما سأفعله تمامًا»، قالت هذا ومضت.

تركت ماتيس يجلس هناك. بالخارج سمع الرياح الصديقة. وهبط الغسق. بدأ ينظر حوله بطريقة خاصة. لا تريد، لكنك لا تملك شيئًا في هذا. بالصعود إلى الحجرة العلوية، استطاع سماع همهمات لا نهاية لها من أصوات هيج وجورجن.

فكر، الآن كل شيء جاهز. تعمدت إخبارها عن القارب كذلك أيضًا. الآن دعها تنفجر أو تكون ساكنة، ليس هناك أكثر من هذا أستطيع أن أفعله.

بعد صراعه المرير مع هيج وكل التفكير الذي مارسه ذلك اليوم، شعر أنه مستعد للنزول، وزحف إلى الفراش مبكرًا أكثر من المعتاد.

توقف الحديث في الغرفة العلوية ـ لسعادة ماتيس وأساه. بالخارج، كانت الرياح تهب وتعلن عن وجودها بمائة طريقة مختلفة، مؤكدة أنها ستهب غدًا بالمثل.

٤٥

لكن الرياح توقفت الآن.

استيقظ ماتيس متأخرًا هذه الليلة نفسها، وتأكد من هذا تقريبًا قبل أن يستيقظ تمامًا. توقفت الرياح، لم تقل الحقيقة. لا خشخشة فيما بين الأشجار، لا همسات. كان تفكير ماتيس الأول هو: ليس بالليل! أنا لم

أقل أنني سأحاول بالليل.

ربما تهب الرياح صباح الغد مرة أخرى، حتى لو توقفت الآن. الرياح تسكن غالبًا في الليل.

ضوء القمر الساطع يتألق من خلال النافذة. ظهر قمر جديد كبير منذ الليلة التي كان يجدف فيها.

مرة أخرى، يخبر نفسه، الرياح تسكن عند الليل. لكن هذا ليس طيبًا؛ فالرياح قد توقفت بطرق مختلفة عن ذي قبل. القمامة! كيف يمكنك أن تقول أكاذيب على فراش النوم؟

لم يكن هناك صوت بالمنزل.

هل هيج في حجرتها؟ هذا ليس من شأني، هكذا قال لنفسه بصرامة. بالتأكيد يكفيني أن الرياح قد توقفت.

لم يستطع أن يتحمل أن يستمر في الرقاد هكذا لوقت طويل، عليه أن يذهب ويلقي نظرة. ارتدى ملابسه بهدوء في منزل صامت وساكن. ذهب.

شَكَّل ضوء القمر مسحته المعتادة عبر الماء. وعلى البحيرة، لم تكن هناك خفقة لنسمة هواء. كانت البحيرة أكثر اتساعًا من أي وقت مضى ـ تطلع ماتيس إلى سحرها الآسر.

رأى الغابة أيضًا والأراضي العشبية والجدول والنباتات على ضفتيه. فكر فجأة، فقط ليكون قادرًا على أن يشرب من جدول.

مشى من خلال الندى إلى الغور الصغير حيث يجري الجدول. كان جدولًا دقيقًا، ولم يقل شيئًا إلى ماتيس، لكن الشيء نفسه كانت هناك بركة

صغيرة فيه.

لم يرغب ماتيس في أن يهبط إلى البركة، لم يرغب في أن يرى وجهه فيها، استشعره متيبسًا وغير طبيعي، وكان متأكدًا أنه سوف يكون قادرًا أن يراه في إشراقة ضوء القمر.

عندما نظر إلى البحيرة الساكنة، سأله صوت واضح بداخله: كيف تريد أن تجري الأشياء؟ فليس من المؤكد ما سيجري في القارب، لا أحد يعرف. لم يرغب في التفكير في ذلك. وحتى لم يستطع. وبوجهه متجهًا إلى أعلى، كما لوكان يخاطب القمر الساطع نفسه، قال بنغمات عالية صارمة: «لا شيء تفعله معي بعد الآن، إن الأمر في أيدي الآخرين. لقد وضعت الأمر كله في أيدي الآخرين».

كانت هذه كلماته إلى القمر. تعثر حينئذ عبر الأرض الجرداء أعلى السور والروابي وباتجاه الكثير مما كان غريبًا ومتعذرًا الوصول إليه، تمامًا كما كان الأمر دائمًا. فكر فجأة، طوال حياتي، لكنه دفع بهذا جانبًا، أيضًا. ابتعد عن أشياء مثل هذا!

مازال يجلس على أحد الروابي الصغيرة لفترة. كان هناك الكثير منها، وبدت كلها لطيفة جذابة للجلوس عليها هناك لفترة من الوقت. بدا في الضوء المكتمل للقمر أنه أصبح مخلوقًا فاقد الحياة إلى جانب ظله، جزءًا من لعبة سرية كانت تُلعب بين القمر والظلال.

بعد قليل بدأ يرتجف من البرد، مشى إلى الأرض الجرداء ومضى. زحف راجعًا إلى الفراش. كان النوم مستحيلًا.

فكر، في الأعماق. هذا هو المكان الذي قادته إليه أفكاره المضطربة في النهاية. لكن هناك الكثير جدًّا: فكر، الأعماق العشبية. الأعماق الرملية. الطينية. الأعماق الحجرية. الصخور والجلاميد. أعماق لم يحلم بها أحد.

لكن حينئذ، هناك الشيء الآخر، أيضًا، هكذا فكر مشوشًا، متوغلًا على قدر ما يجرؤ. وحينئذ تصعد مرة أخرى من خلال كل الأعماق.

هل هذا هو المكان الذي سأذهب إليه في النهاية بالتأكيد؟ سأل حالمًا هكذا متشبثًا بالفكر.

كرر، نعم، هذا هو المكان الذي سأذهب إليه.

لم يستطع النوم. ظلت الرياح ساكنة.

٤٦

لابد أن ماتيس قد استغرق في النوم بعد كل شيء لبعض الوقت قرب الفجر. لم يلاحظ هيج وهي تمشي في طريقها إلى المطبخ. لم يلاحظ حتى جورجن. كان كلاهما في المطبخ حينما استيقظ ماتيس. سمع قعقعة الأكواب ـ وعندئذ هزه شيء ما مباشرة أيقظه من نومه: «إن الجو ساكن اليوم جدًّا، هو تقريبًا...»

كان الحديث موجهًا إلى جورجن، مجرد ملحوظة عرضية، ربما شيء يُقال بينما هي مشغولة بنفسها في تجهيز ساندويتشاته وصب كوب من القهوة له.

أجاب جورجن بلامبالاة: نعم، هو كذلك».

قالت هيج: «ولذلك سيكون قادرًا على أن يخرج إلى البحيرة اليوم بالفعل».

لم يسمع ماتيس ما إذا أعطى جورجن أية إجابة على هذا. شعر بقشعريرة تسري مباشرة في جسده. اجتاحته أفكاره من كل الجوانب لتطغى عليه بالكامل تقريبًا. لكن عليه أن يقاومها على قدر استطاعته، عمل على أن يسحب نفسه كلية ويتصرف بطريقة طبيعية.

قال لأفكاره: الآن فقط أبقوا حيث أنتم واستتروا. لم يتبق شيء لتفعلوه الآن سوى تنفيذ الخطة.

من النافذة، استطاع أن يرى البحيرة. كانت ساكنة تمامًا كما هي حينما كان فيها الليلة الماضية. لم يتحرك شيء سوى غلالات من الضباب ـ كان صباحًا خريفيًّا جميلًا. لم تشرق الشمس بعد، لكنها سرعان ما ستظهر بكل مجدها وتبدد كل ما كان من بقع الضباب الغريبة الموجودة.

كان ماتيس يتصارع بعنف مع أفكاره حينما جاء إلى المطبخ. يستطيع أي فرد أن يميز ذلك. كانت هيج هناك بمفردها. فقد غادر جورجن بالفعل، ولاحظ ماتيس ممتنًّا.

سألت هيج في الحال: «ما الأمر؟» لاحظت أنه لم يكن صباحًا عاديًا.

طلبت بصرامة: «أخبرني»، وهي تعرف أخاها كما عرفته وإلى النقطة التي يطيع عندها.

قال بصدق: «إنني أقتل نفسي تقريبًا، فأنا أفكر كثيرًا».

قالت هيج: «أوه، أهذا كل شيء».

إنه قد أعطى بداية.

قالت: «تعالى وتناول إفطارك».

حاول أن يبتلع بضع لقيمات. أرضت إجابته هيج، ولم تسأل مزيدًا من الأسئلة. تابعها ماتيس بعينيه، وفي النهاية أعلن: «حسنًا، اليوم تبدأ العبَّارة».

تفاعلت هيج بسرور واضح.

«نعم، هذا صحيح، ماتيس. هذه فكرة رائعة».

هل ظلت طوال هذا الوقت تنتظر بفارغ الصبر؟ لكنها تذكرت حينئذ القارب الخطر.

«لكنك بالفعل ـ قلت ذات مرة إن القارب فاسد قليلًا. هل مازال؟»

«لا، إنه ليس سيئًا جدًّا حقيقة».

«أنظرت إليه جيدًا لترى ما إذا كان خطرًا...»

«ليس حينما يكون الجو ساكنًا. قصدت هذا حينما يكون عاصفًا».

قالت وهي على وشك التحرك: «حسنًا، أسهر عليه. لن أقطع لك أية ساندويتشات اليوم. تستطيع أن تأتي حينما تشعر بالجوع».

الآن هو مستعد، عليه أن يمضي. ظل واقفًا في وسط الطابق. في النهاية سألت هيج: «أتريد أي شيء؟»

قال: «لا».

وبهذا تعين عليه أن يذهب. لقد استطاع الآن أن يقول أشياء قليلة تمامًا، لكنها لم تكن صحيحة. كان من الصعب أن يضطر للمغادرة بالكثير مما

لم يُقل.

وعندما مشى أسفل المنحدر، أشرقت الشمس فوق القمم. كان هناك دفئ خريفي رقيق في أشعتها جعل المشهد شفافًا وسهلت نوعًا ما السير فيما بين أوراق الشجر اللامعة. ومع ذلك لم يكن سهلًا.

رأى ماتيس اليوم يتشكل. وشعر بالمنحدر طويلًا وصعبًا، لذلك قال في صوت عالٍ وعنيد: «سيكون اليوم لطيفًا لعمل مراكبي».

وبعد بضع خطوات إلى أسفل، قال: «ربما سيأتي الكثير من الناس من أجل أن يعبروا اليوم».

مازال يهبط: «وهذا أمر طيب».

عمل بهذه الأفكار على أن يغطي على طول الممر القصير الذي كان مغرمًا به، وهو الممر المؤدي إلى الشاطئ والقارب. ضربته رائحة القطران، تدعو للحياة مع شمس الصباح. كان المجدافان الجديدان الضخمان يميلان على تجمعات من أجمات شجر جار الماء ذات البياض الخشبي اللامع. وضعهم ماتيس في القارب.

الآن لم يعد هناك المزيد.

ماذا عن...؟

لا...

عليه أن يتصرف سريعًا الآن. سريعًا مع القارب. دفعه للخارج. لكن حينئذ نظر حوله بوحشية، جذب القارب للداخل مرة أخرة، واندفع راجعًا فوق الحصى إلى أعلى أخشاب الأجمات وشجر جار الماء الموجودة على حافة منحنى الشاطئ، رقيقة جدًّا وأنيقة. ركض إلى جذع رمادي خفيف

من شجر جار الماء، وعض بأسنانه على اللحاء حتى يتذوق مرارة عصارته اللاذعة. كان هذا شيئًا لا ينبغي أن يراه أحد، واستغرق فقط لحظة واحدة. ومن أجل هذه اللحظة الوحشية ظل هناك واقفًا متيبسًا، ثم مزق قطعة من الخشب، شبه ركض مرة أخرى إلى القارب ـ بينما بدأت علامات أسنانه تتحول إلى اللون الأحمر على الجذع.

ماذا الآن؟

لا شيء أكثر.

انحدر من على الشاطئ. بدأ يجدف، وظلت الأشياء التي يتركها خلفه في المشهد طوال الوقت.

٤٧

لم يعد هناك شيء خارج البحيرة فيما عدا محرك زورق يصدر أزيزًا، ويتضاءل هديره شيئًا فشيئًا. يبدو أنه ليس هناك أحد ليتدخل فيما ينبغي أن يفعله. كان هناك توتر عظيم يمزق نفسه فقط الآن ـ لكن في الوقت نفسه عمل على تثبيت أفكاره على المجداف اليمين والمجداف اليسار بالطريقة المعتادة بدون أن ينزلق إلى التشتت. جدف بانتظام كما يفعل في أي يوم عادي. لم يثبت نظره على أي شيء حتى على الشاطئ في هذه المرة، ليحافظ على مساره مستقيمًا، ومع ذلك جدف بصورة مباشرة على غير عادته في الانحراف.

أشارت الانحناءة إلى اتجاه المنحدرات المقفرة في الغرب، لكن المجدف البارع يعطي ظهره لها. وعندما تقدم استطاع أن يرى بالفعل امتدادًا أعظم للشاطئ من المكان الذي كان يجلس فيه. بدا كل شيء رآه حميمًا وجذابًا.

فكر من وقت إلى آخر: لا تلتفت لها.

لكنه لم يستطع أن يوقف نفسه عن التفكير. فكر، شخص مثل هذا، آخر مثل ذاك. كان هذا أقرب ما جرؤ أن يفكر فيه حول ذلك. كان عليه أن يرسم خطًا في مكان ما، إذا ما كان له أن يستمد القوة لتنفيذ خطته.

فقط، لم يعد القرار ملكي، أنا وضعته في أيدي الآخرين.

يرقد المجدافان الجديدان السميكان عبر المؤخرة، يشيران باتجاه الأرض ـ سوف يحتفظان به طافيًا بسهولة في الطقس الساكن، إذا غرق القارب تحته. لا يستطيع أن يسبح ولا شوط واحد، والآن كان هذا كما ينبغي أن يكون ـ إذا عرف كيفية الفعل، سيكون الاختبار لا معنى له.

لقد هوجم بكل أنواع الإغراءات ـ هواء الخريف النقي والأشجار ذات الاصفرار. هزمها جميعًا بكل الأشكال التي اتخذتها.

إلى بعيد. إلى أين هو ذاهب؟ إذا رآه أي شخص في المزارع، ربما اندفع إليه ليتدخل. عليه أن يبتعد عن كل المزارع وعن الشاطئ، بعيدًا جدًّا.

ينبغي أن يمضي إلى الأعماق المظلمة، حيث يمكن أن يتقرر ذلك، يجب أن أمضي بعيدًا، بعيدًا جدًّا...

وهذا ما يبدو أنه يجدف نحوه الآن.

أنا لم أحضر هنا من قبل، هذا ما قاله لنفسه.

انزلق بعيدًا عن المكان بكيفية ما، على الرغم من أنه ينبغي أن يكون كل شيء حوله مألوفًا.

فجأة، رفع مجدافيه ـ وظهرت قطرات كبيرة من العرق على جبينه. ما هذا؟ كانت هنا. هذا هو المكان. كان مختبئًا هنا، وبعيدًا عن أي شاطئ، لم يعد هناك أي عذر. فقط هنا! لا ينبغي التفكير.

رفع مجدافيه. تلألأت المياه عليهما تحت الشمس. انزلق القارب لفترة قصيرة، ثم تجمد ساكنًا تمامًا.

قال عبر سطح البحيرة: «حسنًا، هيج، حان الوقت».

أراد أن يقول ذلك بنغمة عالية وحاسمة، لكنه لم يفلح. ومن الناحية الأخرى عمل على تنفيذ خطته بدون أي إزعاج. بأصابع مخدرة أزال اللوح السائب وكشف عن البقعة الضعيفة. شعر بقدمه مخدرة كذلك، لكنه ضرب بقوة على اللوح الخشبي المتعفن، فسقط في الحال. وهز قدمه في التو كما لو أنه قد لُدِغ. اندفعت المياه متدفقة من الفتحة. أمسك بالمجدافين الضخمين وجلس يرتعش في قاع القارب، مجداف تحت كل ذراع.

سرعان ما امتلأ القارب. تشبع بالماء بالكامل، وحينما وصلت المياه إلى القمة، غرق سريعًا أسفل منه. قبل أن يتحقق مما كان يحدث، كان مرتفعًا يطفو على المجدافين. تمامًا كما انتوى.

لم تكن المياه باردة. مازالت محتفظة ببعض دفء الصيف. لكن الأعماق السوداء بدت تضرب في قدميه. وانتابت ماتيس رعشة. ظلت

رأسه فقط فوق السطح. بدأ يرفس ويؤرجح ذراعيه بوحشية في محاولة منه أن يدفع نفسه تجاه الشاطئ الذي كان يحاول الوصول إليه. تمكن من أن يفعل هذا، فهذا كان جزءًا من الخطة. أخذ يضرب مثل مجنون يصدر صخبًا غريبًا، وتحرك بالفعل إلى الأمام. كانت البحيرة مثل مرآة، تتمدد السماء والأرض هناك فوقها وتحتها.

دفع ماتيس نفسه إلى الأمام، كان يحدق بثبات في نقطة على المنحدرات الغربية. اقتربت النقطة منه. لابد أن يحرث طريقه خلال الماء بكل ذرة قوة يستطيع أن يستجمعها ـ كان ذلك جزءًا من الخطة.

هبت نفخة من الهواء عبر البحيرة بعد فترة، كما لو أن شخصًا ما قد نفخ فيها. هنا وهناك هبط ظل على السطح، لكن ماتيس لم يلاحظ. صارع لاستنشاق الهواء، ومضى يدفع نفسه ببطء إلى الأمام في الاتجاه نفسه. وفي غضون ذلك ارتفع جانب من سحابة فوق الأفق ـ لم ير هذا أيضًا. لم يعد يرى شيئًا، كانت كثيرة أكثر مما يستطيع أن يندفع في طريقه إلى الأمام بدون أن يسقط المجدافين. مازال يشعر بجسده غريبًا ومخدرًا، وثقيلًا مثل الرصاص، أيضًا. كانت المسافة التي قطعها لا تكاد تُذكر بالمقارنة مع ما تبقى. كان تقريبًا بعيدًا عن الشاطئ الآن مثلما كان حينما بدأ.

«هيج!»، صرخ فجأة ـ لقد رأى الرياح قادمة. وهكذا كانت الرياح قادمة على أية حال! تغيرت نفخات الهواء الرقيقة سريعًا إلى رياح. وعن بعد، استطاع ماتيس أن يرى خطًّا أزرق قاتمًا يمتد مباشرة عبر سطح المياه، وتحول وجهه إلى الشحوب. كان يقترب سريعًا. أسرعت الرياح زرقاء قوية من السحاب خلفه ـ سرعان ما ستكون البحيرة في اضطراب عظيم.

كانت الريح بالفعل تستثير القمم البيضاء للأمواج؛ التي سرعان ما تملأ فم ماتيس وتحرمه من التنفس. سوف يفقد المجدافين قبل مرور وقت طويل.

صاح في خضم اضطرابه وأطلق صوته عاجزًا: «ماتيس!» عبر المياه المقفرة بدت صرخته مثل نداء طائر غريب. كم هو كبير أو صغير هذا الطائر، لاتستطيع في الحقيقة أن تخبر.

المؤلف: تارجي فيساس

ولد تارجي فيساس في جنوب النرويج في مزرعة بقرية صغيرة في منطقة جبلية في ١٨٩٧، ولم يسافر تقريباً خارج النرويج حيث ارتبط بحبه لريف بلده، وحيث مات هناك في ١٩٧٠ عن عمر يناهز اثنين وسبعين عاماً. ويعتبر أعظم كاتب نرويجي في القرن العشرين. كتب أكثر من ٢٥ رواية وخمسة دواوين شعرية، بالإضافة إلى المسرحيات والقصص القصيرة، ورُشح ثلاث مرات لجائزة نوبل، وحصل على أهم جائزة أدبية إسكندنافية وهي جائزة مجلس أدب الشمال. بدأ الكتابة في العشرينيات من القرن العشرين، لكنه لم يحصل على الاعتراف الدولي حتى منتصف الستينيات حينما نشر بيتر أوين ترجمة كتبه لأول مرة، ومنذ ذلك الحين ظهرت أعماله مترجمة إلى الكثير من اللغات. وصفت دوريس ليسينج هذه الرواية وروايته الشهيرة الأخرى، قصر الجليد، بأنهما جميلتان بحق... شاعريتان ورقيقتان متميزتان واستثنائيتان لا تنسيان أبداً. كان يعتبر في وقت موته الكاتب الإسكندنافي الرائد، ومازال محبوه حتى اليوم يرحلون بالحافلات لزيارة بيته القديم في إحدى المزارع في النرويج.

المترجم: مصطفى محمود

مترجم مصري عضو اتحاد الكتاب المصري وعضو نادي القلم المصري. من أبرز أعماله المترجمة نساء يركضن مع الذئاب- الاتصال بقوى المرأة الوحشية لكلاريسا بنكولا عن المركز القومي للترجمة ومكتبة الأسرة. ومستقبل الفلسفة في القرن الواحد والعشرين- آفاق جديدة للفلسفة لمجموعة من أشهر الفلاسفة المعاصرين عن سلسلة عالم المعرفة الكويت. والصوفية النسوية- الغوص عميقا والصعود إلى السطح لكارول بي كريست عن دار آفاق للنشر والتوزيع. والمثنوي كتاب العشق والسلام- نظرية جديدة للتفسير لسيد صفافي جهرمان عن دار آفاق للنشر والتوزيع. وموسوعة المفكرين السياسيين في القرن العشرين تأليف مائة من أشهر المفكرين والفلاسفة المعاصرين للقرن العشرين عن المركز القومي للترجمة. والإنسان هو المقياس- دعوة صريحة لدراسة المشكلات الأساسية للفلسفة لروبن آبل عن المركز القومي للترجمة، وروايتي كل رجل والحيوان المحتضر لفيليب روث عن سلسلة الجوائز الهيئة المصرية العامة للكتاب.